المرابي

محمد ابراهيم العلي

الجزء الأول

رواية

المرايي

طبعة ثانية

دار الندى للنشر

- دمشق - شارع الروضة - هـ : ٣٣٣٨١٦١

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

محمد ابراهيم العلي

المُرابي

رواية

الإهداء

الى امي التي اكتحلت عيناي بمرأى وجهها الباسم دائما ، تلك الانسانة التي علمتني كيف اعيش ، كيف اكافح في معترك الحياة ...

الى امـــي التي علمتني من خلال فهمها للخير والشر حب الوطـــن فدمجـــت حبها في حبـــه وصدرها في ارضه ، فعلمتني التمرد على كـــل الاوضاع الفاسدة والانظمة الاستغلالية ، وهكذا فعلت .. الى اميارض الوطن العربي الكبيـــر ...

اقـــدم عملـــي الادبي الاول

محمد ابراهيـــم العلي

تقديم

لا يختلف اثنان من ابناء الامة العربية على ان قضية فلسطين هي قضية الامة العربية اولا ، وقضية الشعب العربي الفلسطيني ثانيا ، ذلك لان الصهيونية ليست وليدة يوم وليلة فهي عبر سنين متلاحقة خططت وبرمجت لاحتلال فلسطين وانشاء امبراطوريتها الكبرى على الارض العربية ، لقد تم هذا المخطط في غفلة عن جماهير شعبنا العربي الذي كان يئن تحت وطأة الظروف الاستعمارية القاهرة فعانت به فسادا ومزقت وحدته السياسية وتركته ، يرفل في حمأة التخلف والجهل .

وخلال المراحل المتعاقبة من عمر هذه المأساة الملحمية قدم الشعب العربي الفلسطيني الدماء الزكية عربون الوفاء العظيم لقضيته المقدسة سواء في الساحة الفلسطينية او في الساحة العربية من معارك الالتحام مع العدو المغتصب الى معارك الدفاع عن الوجود الثوري في ساحتي الاردن ولبنان . وكانت الجماهير العربية تقف مع الشعب الفلسطيني وثورته تدافع عن وجوده وتناضل من اجل تثبيت هذا الوجود .

ولم يكن ذلك ليتم الا بعد ان استفاقت جماهير الامة العربية ، على وقع اقدام الغزاة الصهاينة يغتصبون فلسطين ويطردون شعبها الذي شرد وعذب .

لقد اغرقت الساحة الثقافية في الوطن العربي بالكتب التي تتحدث عن هذه المشكلة وابعادها ، ومخاطر هذه الغزوة العنصرية الجديدة ، أما على صعيد الادب فقد انتجت اثارا وروائع ادبية في مختلف الاجناس الادبية وفنونها ، ومع هذا فانني ادخل هذا العالم — عالم الادب — بعد هذا الفيض لاتناول في اول عمل ادبي لي هذه القضية ، ولا ازعم انني سآتي باكتشاف جديد ولكنني سأقدم رؤية جديدة ، لمرحلة ما قبل النكبة والظروف الاجتماعية السائدة التي ارهقت كاهل الجماهير العربية واغفلتها عن قضيتها في ساحة رئيسية مساندة وداعمة للساحة الفلسطينية هي ساحة القطر العربي السوري من خلال رواية توثيقية « المرابي » ، تكشف الجوانب التآمرية لعلاقات الانتاج الاقطاعية الرأسمالية

المتحالفة مع المستعمر من خلال نظامها الاقطاعي الراسمالي .

ـ لقد كان نظام الاقطاع والرأسمال الاستغلاليين ومن خلال تشابك علاقاتهما اما :

ـ انه مدرك لجوانب هذه المؤامرة ويتكتم عنها .

ـ او لا يعي ولا يدرك كافة مخاطرها وابعادها .

وفي كلتا الحالتين يعد متآمرا على القضية لم يقدم ولم يستخدم امكانات الشعب وجماهيره لمواجهة الغزوة .

انني في زحمة العمل السياسي اذ اقدم هذا العمل الروائي الاول ضمن هذا الافق ، اعترف انني في نقطة البداية لاتمام عمل متكامل ، عله يخدم القضية ويقدم رؤية جديدة تكون عربون وفاء جديدا من أجل تلك القضية التي نذرنا انفسنا من اجلها ونحن الجيل ، الذي اكتحلت عيونه بمرأى الكارثة واستفاق على وقع اقدام الغزاة يغتصبون فلسطين ، واني لارجو ان اوفق في ما ابغيه .

المؤلف

١

كان الصيف قد انتهى . وبدأ استعداد التلاميذ لدخول المدارس . ويذكر جيدا أنه سافر الى حماه أكثر من مرة . حتى تكللت مساعيه بالنجاح ، وعاد الى أمه في القرية في آخر رحلة ليقول لها :

ـ أمي لقد سجلت في المدرسة الابتدائية وأني بحاجة الى مريول أسود وحذاء ، كما لا بد من غرفة نستأجرها قريبة من المدرسة ، وثمن الكتب .

وردت فاطمة :

ـ حسن يا بني حسن جدا ، وكم أرجو الا يضيع تعبنا من أجلك ، وكما ترى يا بني فنحن نعمل ليلا ونهارا وليس لنا أمل سواك ، أنت وابناء عمك ، وكم تحتاج غدا في المدرسة ؟.

وهون محمد عليها الامر ، فالفرشة يأخذها من البيت ، ولا بد من شراء حذاء للمدرسة . كما أن قلم الحبر ضروري . هكذا قال أستاذ المدرسة .

وردت فاطمة : لماذا لا يسلفنا الاستاذ ، ونحن مستعدون للدفع في آخر السنة . .

وأكد لها ابنها أن المراقب فقير ، وليست حالته بأحسن من حالتهم بكثير .

اعترضت أمه :

ـ كيف ؟ ابن حكـومة وفقير ؟.

قال محمد : ولكن ليس كل أولاد الحكـومة أغنياء .

بينما قالت فاطمة ، وهي منهمكة بخض اللبن : كل الناس يقولون ان ابناء الحكومة أغنياء ، أنـا بعيني شـاهدت المصاغ بصدر زوجة رئيس المخفر ، مثل رشمة الفرس ... والفلاحات تحت امر نسوان الدرك .

قال محمد : ومـا علاقتي أنـا بهذا الموضوع ، ما لنا وما للدرك ، ورئيس المخفر ؟.

ـ اذن . لمـاذا قلم حبر ؟. محبرة وريشة .. والسلام .

وعـاد محمد يستعطف :

ـ لا يمكن هذا ، لا يمكن أبدا ، فالمـدرسة في حماه ، تختلف تماما عن شيخ الكتاب عندنـا .

قـالت فاطمة بحـزم :

ـ يـا بني لا تخبرني بمدرستك هذا الصباح .. بعد قليل يـأتي والدك ونتحدث جميعا بما تحتاج . لكن يجب أن تعرف كم نشقى ونتعب من أجلكم أنت وأبناء عمك . يجب أن نراكم بعـد كم سنة ـ درك ، أو رؤسـاء مخـافر واذا قصرتـم بالدروس فستصبحـون معلمين أو مراقبي مـدارس .

وسألهـا محمد عن موعد رجوع والده فأجابت : انه ذهـب منـذ الفجر الى البذار وحوالي الظهر يعود من السهل وقـد يذهب الى حماه بعـد الظهـر او فـي الغـد الباكـر ، ليحضر بذار العدس ، من خان الحج أحمد وسوف يرافقونه الى حماه وهناك يفهمون من المـراقب كل شيء عن الاغراض ، والحاجات .

وأضافت وهي تجمع الزبدة ، عن وجه اللبن المخضوض ، بعـد أن سكبته في وعـاء كبير :

ـ اسمع يـا محمد .. بعد قليل سـأزور جارتنا أم أمين ، وان وجـد معها أي مبلغ فسوف أستلفه منها على العكوب(١) فيكـون لك ثمنا للبنطلون ، والحذاء وقلم الحبر . ومـا كادت تفرغ من جمع الزبدة ، ووضعها على الرف ، وغسل يديها بالاشنـان(٢) حتى انصرف الابن الى

---

(١) ـ العكوب : نبات بري ، ذو شوك ، وذو صمغ ، يؤكل نيا ، ومطبوخا ... والفلاحات في بلادنا يقلعنـه من الارض ، ويبعنه في المدن ..

٢) ـ نبات بري ، لحموضته يستعمل للتنظيف ، سواء في الاجساد او الثياب ، او جلـي الانيـة .

مراقبـــة اخوتـــه ، طالما ان غيابها لن يطول ..

وصلت أم محمد الى دار أم أمين :

ـــ صباح الخيـــر يـــا أم أمين .. كيف صحتـــك ؟ .

واهلت أم أمين وهي تسوي الجلة(٢) :

ـــ صباح الخير ، الحمد لله ، كما ترين ، العمل صـــعب ، ونحـــن مقبلون على الشتاء ، ولا بد من تـــأمين الوقود . وتعرفين قلة المياه هذه السنة ، انقل على رأسي من البير الى الدار ... مشوار متعب كثير ، الحمـــد لله ..

قالت أم محمد : الله يعطيك العافية ، ولا يضيع تعبك .. يـــا أم امين انت دومـــا صاحبة مروة ، وتتعبين لتأمين راحة أبو أمين . يـــا أم أمين لي عندك غرض ، بـــألف غرض .. محـــمد سيسافر غـــدا للمدرسة ، وتلزمه كتب ، وبعض اغراض ولا أملك النقود الكافية وانت صاحبة فضل ، ومـــالك يرد مع الشكر ، وجميلك يبقى على الراس .

وقـــالت أم أمين :

ـــ طلبك يا ام محمد والله لا يرد ، ومحمد مثل ابني ، ولكنـــي والله اليوم معصورة على الليرة، ومنشفة على القرس .. لكن عندي ربيطة (٢) كالبيدر .. أرسلها للبيع اليوم أو غـــدا مع أحد الذاهبين الى حمـــاه ، وأسلفك نصف الثمن ، تكرمي يـــا أخت ويسلم لك محمد وأهل محمد .

وشكرتها أم محمد على معروفها ، وعرضت عليها أن زوجها مسافر الى حماه اليوم أو غـــدا ، وأشرق وجه أم امين قـــائلة :

ـــ اذن الخروف غـــدا بأمانة صاحبك ، سيحمله معه صباحا الى سوق الغنـــم بحماه فيبيعه ويسلفـــك نصف ثمنه ، وعلى فكرة قولي لي يا أم محمد كيف تستلفون البذار من الحج احمد ابو محمد صاحب الخان ؟.

فرجتها ام محمد ان تصدقها اذ أكدت لها أنها لا تتدخل في مثل هذه الامور ، التي هي من أعمال الرجـــال .. لكنها أضافت :

ـــ هذا الحجي سمعته عند الناس ، مـــا بترفع الراس .

وردت أم أمين : سمعت عن زنوبة أنها تحـــاسب الحجي ، وزوجها

---

(١) ـــ بعـــر او خلافه مـــن روث الحيوانات اذا يبس يستعمل للوقود عنـــد البدو والفلاحـــين .

(٢) ـــ هي الدابة المحبوسة عن المرعى ، المربوطة على علف البيت ، واكثر ما تكون من الغنـــم المعلـــوف .

حـــاضر يسمع !.
وصحكت أم محمد وهي تهز براسها : الله يستر على الجميع ، كل الناس خـــير وبركة ..
قالتها فاطمة ، وهي تلم نفسها مودعة شـــاكرة لصاحبتها جميلها .
وعلى الباب قـــالت أم أمين ، وهي ترى فاطمة الخروف الربيط :
ـــ دعي ابراهيم يبكر فيه الى حماه .. وعـــادت فاطمة الى بيتها ، والارض لا تسعها من فرحتها فقـــد استطاعت أن تستلف ثمـــن نصف خروف كامل اكرامـــا لعيون محمد وحذاء محمد ومدرسة محمد ..
ولا تكاد تزف البشرى للتلميذ المنتظر على نـــار ، حتى اقلع كالريح الى بيت خـــالته صفية ، وبالحقيقة فهي ليست خالته ، وانما كان يناديها كذلك لانـــه ليس له خالة حقيقية ، وقبل ان يصل الى الدار لمحته زنوبـــة فبادرتـــه :
ـــ سمعت انك ذاهب الى المدرسة ، وعندك نوايا أن تصير دركيا !.
وســـألها محمد :
ـــ وهل ذهابي للمدرسة يضايقك يـــا ست زنوبة ؟.
أبدا ، يـــا عين خالتك ، ولكن لماذا لا تصبح سائسا لخيل الدرك ؟.
وقـــال محمد :
ـــ الدنيا قسمة ونصيب .
ـــ فلاح ومتفلسف .. وله شكلك غير محبوب عندي .
ـــ لست وحدي غير محبوب عندك ، كل الفلاحين كذلك .. شكل غير الفلاحين أحلى !..
وردت زنوبـــة وقد قوست ظهرها ، وحاجبيها ، وفمهـــا بعصبيـــة ظاهـــرة :
ـــ متعلم طول اللسان بالمدرسة ؟ .. اذهب من وجهي يا قليل الادب .. امك تريدك في الدرك ، وانـــت كثير عليـــك سايس بغال ..
ورد محمد بحذر : انـــت حلي عن دربنا ، ونحن بالف خـــير ..
قالها ودخل دار صفية التي كانـــت تسمع الحوار حرفا بحرف ، والتـــي بادرتـــه بقولهـــا :
ـــ يا محمد لماذا تأخذ وتعطي مع زنوبة ؟ يا خالتي غدا بتفسد للحجي ، وتبـــدأ المشاكـــل .
أجاب محمـــد : واي مشاكل يعملها الحجي معنا ؟. لن يسلفنـــا البذار .. أكدت ذلك صفية بحزم .

وقال محمد : طيب يا خالتي ، معك الحق ، الله يلعن زنوبة والحجي معا . اين عمي حسين ؟

وردت صفية :

ـ مع والدك يبذران الارض .

وقال محمد : خالتي أنا بالواقع قاصدك ، وغرض امي عندك ، ان ترسلي ابنك الى المدرسة معي .

وردت صفية : أنت تعرف يا محمد معزتك عندي ، وانا احب امك .. وسأعمل ما بجهدي من أجل ذلك .

وشكرها مودعا دون ان ينسى تذكيرها بضرورة ذهاب احد اولادها الى المدرسة .. ولم تنس هي ان تفهمه بان هذه الامور يقررها عمه حسين .

عاد محمد الى البيت ، واخبر أمه بما جرى له . وعند الظهيرة عاد والده من الحقل ، وتربع الى وقعة مجدره ممتازة ، يرطب اجواءها الحارة بالبصل الاخضر ، والشنين (١) وبدأ يأكل ، ومن حوله زوجته ، ومحمد ، والبقية .

قالت الزوجة :

ـ هل اخبرك محمد بما جرى له بحماه ؟.

وقال ابراهيم ، وهو يشرب اللبن :

ـ كثير مليح ..

ولكنه يحتاج الى اغراض كثيرة ، قالت الام ، واضافت :

كتب ومريول وقلم حبر .. يجب تأمينها جميعا ..

ورد الوالد ، بعد أن انزل الكأس عن فمه ـ كتب ومريول وقلم حبر ، قولي ، وحصان ايضا قولي ويجب ان يصير أفنديا (٢) ، أو رئيس مخفر ...

وسكتت الزوجة ، ليقول محمد :

ـ ولكن زنوبة قالت لي يجب ان اصير سائسا عند الدرك ، سائس بغال عند الدرك .

وأوقف والده الشرب ، سائلا :

ـ أين شاهدت زنوبة ؟. وماذا قلت لها ؟..

---

(١) ـ كل لبن ضرب بالماء .. والعامة لا تعرفه الا اللبن المخضوض وقد ذهبت زبدته.

(٢) ـ اصطلاح قروي يعني الدركي .

ورد محمد بثقة : شتمتها ..

وصب ابراهيم غضبه على محمد ، وهو يكيل له الشتائم ، لانه ليس متفرغا لمشاكل جديدة مع زنوبة ، والحجي ، وتتدخل أم محمد معاتبة زوجها على صراخه بوجه الصبي ، ولاعنة والد زنوبة ..

وقال ابراهيم لزوجته ..

يا مره . نحن نريد حل مشاكلنا مع الحجي .. والسنة ما زالت بأولها، والارض بحاجة للبذار ، والبيت يحتاج للمونة .. والف مصيبة ومصيبة .. وما زاد الطينة بله مرض البغلة والله يلعن ، جد زنوبة لا هي من عائلتنا ولا من عشيرتنا ولا دخل لنا بمشاكلها تكفينا مشاكلنا .

قالت ام محمد : زرت ام أمين وقال عندها خروف ، وؤعدتني بنصف ثمنه الى السلبين (١) .

واردف ابراهيم : ام امين حرمة آدمية ... لكن يجب علينا حصر الدين ، بدون نتف هنا وهناك غدا ازور الحجي بالخان ، ونستلف منه ما نحتاج اليه . واخر السنة بيفرجها الله .

في هذه الاثناء جاء صوت من صحن الدار ينادي على ابراهيم انه ابو حسين زوج صفية حيث دخل ، وقد عرض على ابراهيم الذهاب الى حماه في الغد من أجل الاستلاف من الحجي وكان رأي ابراهيم واضحا انه كلما كثر عدد الفلاحين امكن بالتالي تخفيف الفوائد ووافق ابو حسين شريطة اصطحاب بعض الهدايا للحجي كالجبنة واللبن والفريك (٢) .

اعلن المؤذن بعد صلاة العصر ، ان وفدا من الفلاحين سيكون صباحا في خان الحجي في حماه لاستلاف المبالغ التي يحتاج اليها الفلاحين وبعد الانتهاء من الصلاة زار شيخ الكتاب وهو — المؤذن بالطبع بيت ابراهيم حيث رحب به وعرض عليه صعوبات ذلك العام ، قال ابراهيم :

غدا يا شيخي سنزور الحجي في حماه لاستلاف ثمن البذار والمؤونة ونكسي العيال ولا نعرف هل نوفق أم لا .. فالحجي يمسك يده في هذه الايام مع أنه يشعر بحاجة الناس ، فرد الشيخ : بسيطة يا ابو محمد أنا ايضا لي بعض الإعمال مع البيك وسأمر على الحجي وبأذن

---

(١) — هو العكوب نفسه عند العوام .

(٢) — حبة القمح المشوي قبل نضوجه .

الله ، فان الحجي لا يرد لـي طلبـا وانتم مثل اولادي واعز ورحل شيخ الكتاب على أمل اللقاء في حماه غدا .

ها قد هبـط الصباح واستبق الشيخ الفلاحين الـى الحجي ، كان الشيـخ عبد الرحمن يدخل على الحـج احمد وقد تحلق حوله الحاج خالـد ، والحاج علي ، والحاج حسن ، عندما بادرهم الحجي الكبيـر قائـلا :

ـ اهلا بالشيـخ عبد الرحمن ، كيف حالك .. كيف حال القرية ، فأجاب الشيـخ : اليوم وقت البذار ، والناس تعمل من الفجر الى غروب الشمـس .

ـ وكيف حال الناس يا شيـخ ؟

ـ كما يشتهي الحجي ويرغب .. ولولاك لمات الناس ، وهلك الزرع والضـرع ، وانـت المؤمـن الكبيـر ، والمحسن العظيـم ، والناس لا ينسون الفضل ، ولا كرم الاروميه ، وطيـب الاصل ..

وفـيما كـان الشيـخ مستمـرا فـي هـذه الثـرثرة قاطعـه السايس أحمد ، بأن الحجي مطلوب علـى الهاتف من بيروت . كانـت المتحدثة السيدة أم جيسكار زوجة الخواجة الياس ، صديق الحجـي ، والمدير العام لبنـك سوريا ولبنان ذي الفروع الكثيرة في الدولتين .

وقد طلبـت أم جيسكار من الحجي ان يحضر الـى بيروت ، لكن الحجي طلـب منها ان يتكلـم معه الياس ، فور عودتـه الـى البيت ، وقبـل ان تلقي السماعة ، طلبـت اليـه نقل تحياتها واشواقهـا لصبحـي بيـك .

انصرف ضيوف الحجي ، بعدما تداولوا معـه باحوال السوق ، وتقييـم الاسعار ، وايجاد السيولة ، لتسليف المحتاجين . ووعدهـم الحجي بالعودة الـى الاجتماع ، بعد عودتـه من لبنان . مكث الشيـخ عبد الرحمن حتى الانتهاء من الوداع حيـث عاد الى ذكر مناقبه ومحامده .

قال الحجي : اهلا شيخي ، كيـف العمل ؟

ـ على خير ما يرام .. كما اسلفـت لحضرتكـم .

ـ انت تعلم يا شيخي انني اعطيك دومـا دون فوائـد ، واحيانـا زكاة ، مـن أجل أن تكون احاديثك مرتبة مع الفلاحين ، والله الموفق .

ـ وانـت تعلم يا حجي انني صديـق مخلص ، لتوجيهاتك وأوامرك كمـا يريد الله والبيـك وكـل ما بيني وبينـك حلال الا ما حرم الله .

قال الحجي ، وهو ينفخ دخان نارجيلتـه ، ودون ان ينظر اليـه :

ـ كيف حال زنوبـــة ، من مدة لـــم أرهـــا ؟
واجاب الشيخ : زنوبة حالتها كويسة وانت شديد الغلاوة عندنا ، تحدثني بالسر ، دوما عنك ، ودون أن يسمع احد ..
قال الحجي مداعبـــا :
ـ شيخي ، سمعـــت عنـــك انـــك واقع بغرام بدوية .. بس أن شاء الله تكون قد المقام ؟.
وقال الشيـــخ : اعوذ بالله ، انا لا اعشق على زوجتي ، ولا أرغب بغيرها أم خالد هي المكرمة وحدها ، اليست هي أم أولادي العشرة .. ولكن الانسان قد يميـــل احيانا دون ان يؤذي وان يفتضح امره .. لكن لزنوبة يا حجي ، اخت حلوه .. حلوه كتير .
وبينما كان الحجي يوجه الشيـــخ لاحضار زنوبـــة قطـــع حديثـــه دخول السائس المعلن عن حضور الفلاحين الراغبين بمواجهتـــه .
وأمره الحجي أن ينتظروا قليلا ، والـــى الشيخ :
ـ شيخي ، يجـــب ان تحضر زنوبـــة واختها .. وبعـــد ذهـــاب الفلاحين سأبحث معـــك الامور ، وعلى فكرة ، ماذا تحـــب ان نعطـــي الفلاحين ؟
وكان رد الشيـــخ واضحـــا :
ـ لا تسلفهم كـــل ما يحتاجون اليـــه ، دفعة واحدة ، حتى يظلوا تحـــت يدك وانت اخبر بهـــم ، واعلم ...
ونادى الحجي على السايس ليدخل الناس .. وقد رحب الحجـــي بهم ، وادار السائس عليهم القهوة المرة ، و .. اهلا بابي محمد ، وأهـــلا بأبي حسين ، وهو يدقق بدفاتره ، دون ان ينظر اليهم قال :
ـ كيف وجه هذه السنة ؟
ـ وجه السنة ، بوجهك يا حجي !
وقال الحجـــي :
والله ، يا بني احواننا في السنة الماضية ، لم تكن مريحة ، والاسعار وسط ، وقد ضربنا بالسواد (١) والانسان يحب السترة... والشيـــخ عبد الرحمن أوصاني بكـــم خيرا ، كما رجاني تلبية مطاليبكم ، وانتـــم اعزاء علـــي ، وتعرفون تقديري للشيـــخ واحترامي له . فايمانه كبـــير أهتمامه بكـــم أكبـــر .. وأنتـــم جميعا أولاد حلال ، وخصوصا ابراهيم الذي احبـــه ، والـــى ابراهيـــم :
ـ لكن يا ابراهيـــم بقي عليـــك دين من السنة الماضية ؟

فرد ابراهيم : طبعا يا حجي اعرف ذلك ، واعرف ان الدين ذل في النهار ، وهم في الليل وصاحب الحاجة يريد قضاء حاجته ، وهذا كله امر الله .

وقاطعه الشيخ ، والحجي ينظر في دفاتره :

ـ يا حجي ـ ! ابراهيم رجل طيب ، ويحب الله ، وأيمانه عظيم ، ودائما يقول لي ان اعمال الحجي تجارية ، وهي خالية من الحرام ، والله حلل البيع والشراء ..

وقطع الحجي ثرثرة الشيخ :

يا ابراهيم باق عليك من السنة الماضية مئتا ليرة . أما حسين فقد سدد ... والاخرون سددوا ... الاسبوع المقبل يمكن ان تحضروا الي هنا ..

وتململ الحاضرون لسماع الاسبوع المقبل فالدنيا كلها بذار ببذار .. وقال ابراهيم :

يا حجي انت تعلم كم تكلفنا النزلة الى حماه ، وكم تعطلنا .. والايام فلاحه .. والمطر قريب ، والحاجة ماسة ، فنرجو أن تدبر أمورنا وتلبي حاجتنا .

قال الحجي :

ـ يا جماعة أحوالي .. ولم يكملها اذ قطع جهاز الهاتف الكلام . كانت مكالمة من بيروت وبعد مخابرة قصيرة مع أم جيسكار التي أكدت عليه ضرورة حضوره الى بيروت ، عاد الحجي ، وهو يحوقل ، فقال ابراهيم:

خيرا ان شاء الله يا حجي .

وقال الحجي :

شريكنا الياس طلب مني النزول الى بيروت ، وهو بحاجة لمحاسبتي وبحاجة الى أموال وانه سيسافر الى باريس . .وانتم تعرفون انني تاجر ، واستلف وأسلف ، هذه هي التجارة ، وهذا هو حال الدنيا .

وقاطعه الشيخ :

ناس فقراء ، وناس اغنياء ، ان الله خلق البشر ، بعضهم فوق بعض طبقات ..

وقال الحجي :

نعود الى حديثنا الان ، كيف نسجل حسابات هذه السنة .. وخاصة انت يا ابراهيم .. عليك من السنة الماضية مئتان ، ولنبدأ

من جديد بفتح صفحة جديدة . واخذ يدون في دفتره . اولا : حساب ابراهيم العام الماضي بقي منه مئتا ليرة وشوال حنطه ، وبذا تكون حصيلة ما عليه ثلاثمئة ليرة سورية .. ثم الصافي للعام القادم ٥٠٠ ل.س. (خمسماية ليرة سورية) .

اذن حساب جار على ابراهيم مبلغ خمسمائة ليرة قرضة الله حسنة تسدد في نهاية البيدر كحساب مدور ..

ثانيا : حساب جديد من بداية السنة .. واوقف الحجي القلم والتفت الى الشيخ ، قائلا ما رايك يا شيخي عندي نية هده السنة ان اذهب الى الحج والان شهر شوال .. بقي شهر ونصف للعيد هناك نضحي ونكفر عن السيئات والله يغفر لعباده ذنوبهم ..

فقال الشيخ :

ـ هذا عمل خير والله فرض الحج على عباده القادرين ، وانت قادر من نعم الله وفضله .

وقاطعه الحجي :

ـ نعود للحديث ، ما رايك يا ابراهيم سأفتح لك صفحة جديده بالحساب .. وانتم ايضا ..

فاجاب الفلاحون : هذا معقول .

ولكن .. الفائده زادت .. قالوها ، بهمس .

وقال ابراهيم برقة :

ـ حجي الا ترى انك رفعت الاسعار لشوال الحنطة هذه السنة ؟

فرد الحجي :

ـ يا ابراهيم ، قدوم الشيخ معكم ، ووصوله لعندي ليس رخيصا فمن اجلكم وكرامه له ساقضي لكم حاجاتكم رغم قلة الاموال عندي في هده الايام . وساستلف من عند جيرتي من أجل خاطركم وخاطر الشيخ .

قال الشيخ :

ـ الله يبارك فيك يا حجي ، كل الفلاحين يقدرونك ويحترمونك ويقولون ان حسابات الحجي دقيقة . وكذلك سعادة البيك يحترمك ويقول ، هو احسن حجي عندنا ، في كل الريف .. حساباته دقيقة ، وجدان واخلاق ، واستقامة في المعاملة ..

ـ صدقا يا شيخي ، ان عمري في هذا العمل عشرون سنة وقد ورثته عن المرحوم ابي ، رحمة الله عليه كان يعرف كل الريف والبدو .

يا ابراهيم ، الا تذكر ابي ؟

ـ اجاب ابراهيم ، وهو يلعن بسره أبا ابيه ، وهذا الموقف جملة : رحمة الله عليه ولا يجوز على الاموات الا الرحمة ! انت تعلم يا حجي ، وان كنت اكبر مني فانا بالعمر اكبر منك .. كان المرحوم والدك يحب الكيف والبسط ، الله يرحمه كان يحب رقصة النور ، وخصوصا ساره النورية !

ـ واندفع الشيخ :

ومن شابه اباه ما ظلم ..

وأوضح الحجي :

ـ لكن يا شيخي ، أنا لا احب النوريات ووسخ النور . خلونا في الحسابات :

ـ ماذا تريدون الان ؟

أجاب ابراهيم :

ـ أنت تعرف يا حجي ظروفنا اكثر منا ، أخذنا في الاسبوع الماضي جزءا من البذار ، والان علينا ان نأخذ الباقي ونحن بحاجة ايضا الى كساء للعيال والشتاء على الابواب فلا بد من المؤونة ، تمر ، زيت .. وفهمك بالفلاحين وشؤونهم أكثر من فهمي .

قال الحجي :

ـ الامر بسيط ، ستأخذون كل ما يلزمكم اضافة الى البذار ، يا سايس احمد ، نادي الحذاء والسمان ، وبائع القماش .. وكان الحديث بعد ذلك دائرا حول الورع والتقوى والاحسان .. عندما وصل أولئك جميعا ، قال الحجي لكبيرهم :

ـ يا أبا عبد العزيز اذهب مع الاخوان واشتر لهم ما يحتاجونه من السوق ، من احذية وقماش وسكر وشاي وكاز وزيت حلو ، وتمر . وانا حاضر ..

وأنت يا ابراهيم اذهب مع اخوانك فاقضوا حاجاتكم ، وبعد صلاة الظهر .. نكمل الحساب ، وسوف أقدر حاجتكم من البذار والان مع السلامة .

ونهض الفلاحون الى السوق . ونهض الشيخ يود الذهاب ، ولكن الحجي استبقاه ، فاغراضه وأغراض الست ام خالد ، سيتدبرها السايس احمد ، ولن يكلف الشيخ خاطره بأي تعب ..

وبقي الشيخ مرتاحا ليستأنف حديثه عن زنوبه ..

ـ يا حجي ، زنوبه أم أختها ..

ورد الحجي :

ـ دعها هي ترتب أختها .. يجب ان تأخذ لوازم الاولاد من حماة لتأتي أختها معها .

قال الشيخ :

ـ زوج اختها لا يدعها تأتي الى حماه الا اذا كان برفقتها فهو رجل عنيد كثير الشك وتدبيرها صعب يا حجي . وعاد الحجي الى بث الحماس في الشيخ :

ـ ولو يا شيخي ؟ هل توجد حالة صعبة لا يوجد لها حل عندك ؟

فقطع هذه المحادثة صوت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر .

ـ قال الحجي : هيا بنا الى الجامع لاداء الفريضة .

فقال الشيخ : لنصل هنا بالمكتب ، ونخلص من زحمة الجامع والناس ... وهكذا كان فقد اديا الفريضة بالخان ، وبعد الصلاة تابع الحجي الحديث :

ـ اسمع شيخي : بعد عودتي من بيروت سأرتب لي ولك سهرة مشتركة بمكان ما ، من حماه او ريفها وزنوبة معنا ، اسمع لقد اشتريت لك كساء العيال ، واحذيتهم وبعض المؤونة ، وانت غال يا شيخي . وانا واثق بصداقتك ، وكلامك بالقرية ، واحاديثك عني ، وثقة الناس بي لهذا كله فخاطرك كبير عندي .

وشكره الشيخ على كلامه وثقته .

عاد الفلاحون بعد الظهر الى خان الحجي ، كما واناه اصحاب المتاجر بالفواتير جميعها ، كل فاتورة على حدة ، بالفلاح وافراد العائلة .

ـ قال الحذاء : هذه فاتورة افرادية ، وفاتورة اجمالية زيادة ١٥ ٪ وانت ادرى ، أما أحذية الشيخ فقد اعتبرتها من الزكاة ، واضفتها على المجموع ، والحمل على الجماعة خفيف .. اخذ ابراهيم حذاء لابنه وهذه اول مرة يشتري فيها فلاح لأبنه حذاء ، وسأله الحجي لماذا على غير العادة . فأجاب ولدي غال علي وسأدلله .. ولكن الحجي الذي عرف ان ابنه سيذهب الى المدرسة تنهد قائلا بانفعال ، واضح مادا يده الى الحذاء قائلا : بسيطة تفضل هذا حسابك ..

وقدم بعده صاحب القماش الفاتورة التفصيلية والاجمالية : مشيرا بوضوح تام الى الطقم الجديد الذي اشتراه ابراهيم لابنه وبالتجهم ذاته مع سرعة في حركة اليد دفع الحجي الحساب وهكذا فعل السمان ،

والاخرون والزيادة دائما كانت ما بين ١٥ ــ ٢٥ ٪ .

ــ سأل الحجي الفلاحين هل اخذتم كامل حاجاتكم من السوق ؟ .

فرد ابراهيم :

ــ بقيت بعض الاغراض سنأخذها في مشوار اخر . وخاصة عباءات الشعر من أجل الفلاحة فقد وعدونا باحضارها في المرة القادمة .

قال الحجي ، وهو يفتح الصندوق ، وينشر سجل الحساب :

لا بأس يا ابراهيم انت اخذت كسوة واحذية ومؤونة ، بمبلغ ٦٠٠ ليرة وقد اشتريت لك خمسة قناطير قمح واربعة قناطير شعير ، وقنطار عدس وقنطارين جلبان .

قال ابراهيم :

ــ كيف ستحاسبنا الان يا حجي ؟ وكيف ترغب ان تسجل البذار ؟

الحجي :

ــ اسمع يا ابني ابراهيم ، المبلغ يسجل قرضة الله حسنة على حنطه . وبذلك اكون قد سلفتك على المحصول ستين شوال بمبلغ ٦٠٠ ليرة تعاد بآخر السنة ونهاية البيدر وبقية البذار يسجل حسب سعر السوق وثمنها جميعا الف ليرة سورية . تسجل الان عليك الف ليرة سورية قرضة الله حسنة ثمن البذار فيكون لي بذمتك ستون شوال قمح والف ليرة سورية ، تفضل وقع على السجل ، وقل بسم الله ، قرضة الله حسنة ... شرفوا وقعوا ، حساباتكم مثل بعضها ، اسمع يا ابراهيم ، خذ هدية ــ جزمة فلاحة ــ بسعر السوق خذها ..

وللسايس خروف بالربيع لانه هو الذي اتى بها والتفت الحجي الى الشيخ قائلا : لقد اعتبرت كساء العيال ، والاحذية ، جزءا من المؤونة ، زكاة مني اليك ، لكن لا تنس حديثنا بعد عودتي من بيروت وخاطب الفلاحين : تستطيعون ان تسافروا الان الى القرية خذوا الشيخ برفقتكم .. الشيخ رجل ادمي ، ومؤمن ، واتى من اجلكم ولا ارد له طلبا ، سلموا على كل الفلاحين ، وان اراد اي فلاح اي شيء فأنا حاضر .. الله معكم مع السلامة !

غادر الفلاحون الخان عائدين الى القرية شاكرين الحجي على هذه الحسابات الدقيقة وتعب الشيخ ... وانكفأ الحجي يدنق سجلاته ويحصي الارباح المرتقبة ولكن الفلاحين كانوا قد سبقوه الى عملية الاحصاء ، فقد كان ما جلبوه يزيد على عشرة الاف من قرية صغيرة ، لا تضم سوى بضعة بيوت . وبعد اطمئنانه على كمية المبلغ امسك بالهاتف :

ـ الـــو يا مقسم انا الحجي . اريد ..
وقاطعـــه عامل المقســـم :
ـ اهلا حجي تريد بيروت الياس ؟ بعد لحظة .
وقال الحجي لنفسه :
ـ عامل المقسم فهيـــم ، وحافظ شغلته كويس ، ثم اخذ التلفون وطلب صبحي بيك برقمه بحماه وعندما صار على الخط ، قال الحجي :
ـ آلـــو سعادة البيك ، مساء الخير ، انا مسافر الى بيروت غـــدا فهل تأمـــر بخدمة ؟
ورحب بـــه صبحي بك ، ورغب اليـــه ان يراه قبل سفره وسينتظره في قناقه (١) ويفضل الا يتأخر عن ساعة زمان .
وجاءت مخابرة بيروت فأكد الحجي لام جيسكار زوجـــة الخواجـــه الياس ، انه سيكون عندهم في الغد حوالي الظهر . ثم انه غادر خانه ، الى قناق البيـــك ... ورحب هذا بـــه وسأله عن سبب ذهابه المفاجيء الى بيروت ، في هذا الوقت الذي يحتاج الفلاحون فيه ان يبقى بينهم .. لكن الحجي اعلمه ان كل شيء مؤمن ، ولم يبق من الاعمال سوى القليل، وعلى كل فلن يتأخر ... ابدا ..
سأل صبحي بك :
ما هي اخبار ابو جيسكار ؟
واجاب الحجي :
ـ طلبوا مني تدقيق بعض الحسابات ، وام جيسكار؟ هي التي هتفت لي بذلك . وسارع البيك يقول :
ـ اترك لي مبلغ عشرة الاف ليرة ، قد احتاجها في غيابك ، لـــدي سهرة بحلب . والتفت اليـــه الحجي بشيء من العتاب الرقيق :
سيدي ! ارجوك ان تترك هذا اللعـــب ... فالقمار كيفما ناقشته يضر ، وخصوصا الصحة ... وانا اعرف انني مدين لك ، وان نصيبـــك من الفواتير بذمتي ، ولكن يا سيدي اذا كان الموضوع من اجل البســـط والانشراح فبيروت ام الانشراح ، أكلف أم جيسكار ، فتدبـــر لنا شقـــة فخمة .. والسلام .
واعتدل البيـــك بجلستـــه وقال :
ـ انا اعرف حكاياك مع الفلاحات والنور ، وسمعتك الزفت مـــع زنوبـــه ... اما ام جيسكار وبيروت ، والشقة فهذا جديد .. وعلى كـــل

---

(١) ـ دار البيك التي يستعملها لادارة الاعمال .

حال ان واتتك ظروف بيروت ، فحلب ليست بذات بال .. انت دبر وانا مستعد .

قال الحجي :

ـ امرك سيدي ، واحتياطا فهذا مبلغ خمسة الاف ليرة .

قال البيك ، وهو يرمي المبلغ في احد الادراج :

من قدم اليك من الفلاحين اليوم ؟

قال الحجي : جاء كثيرون ، منهم ابراهيم واقرباؤه ، والشيخ عبد الرحمن واوضح البيك :

ـ هذا الشيخ الابليس ، صباغ وتلبيس ، جئي وحامل مسبحة !.

فرد الحجي : يا سعادة البيك ، وجود الشيخ ضروري لنا بالقرية، وعدا باله البيك .

ـ لا يهمك ... وامرك لله . سلم على بيروت ، ولام جيسكار سلام خاص . وانتظر منك تلفونا في غد من بيروت ، وان شاء الله بالسلامة .

عاد الحجي الى خانه ليحول مبلغ مليون ليرة الى فرع بنك سوريا ولبنان ، وقيدها لحساب الياس ، وبعد ان حجز باتوموتريس طرابلس ، غادر خانه الى بيته ، وفي الصباح غادرها ليصل بيروت حوالي الظهر .

هتف الى بيت الياس فردت عليه السيدة المنتظرة .. وفرحت كثيرا بتشريفه ... وبعد لحظات احتواه البيت العامر .

ـ بيروت نورت ، قالت السيدة ، وهي تستقبل الحجي ، بالذراعين المفتوحتين والعينين الحالمتين . سأل الحجي بلهفة :

ـ كيف الصحة .. كيف الياس ، وغلادس ؟

اجابت السيدة :

ـ الياس سيحضر بعد يومين من باريس .. اما غلادس ... غلادس ! . تعالي سلمي ، الحجي شرف .

واشرقت غلادس كصبح فياض بالنور ، مع بونجور ، كندى ورد ،فقال الحجي .

ـ مئة بونجور ، ما شاء الله ... حيا الله ... يا ام جيسكار ، غلادس بنتك ام اختك ؟

.وردت ام جيسكار بدلال :

ـ لو كنت تعرف يا حجي ، كم كنت جميلة .

واكد الحجي :

ـ لم تهرب منك ولا شعرة جمال .. لكن خبراتك بالحياة زادت ...

انا اعرف الياس من قبل زواجه بك ، كان موظفا صغيرا بالبنك ، واصبح بفضلك مديرا له . واضاف :

ـــ انا اصغر من الياس بقليل ... اننا ابناء جيل واحد ..

وقطعت ام جيسكار :

ـــ حجي ! ماذا تحب : قهوة ، شاي ، بارد ؟

ـــ واشارت الى خادمة كانـــت احضرتها معها من الجرد :

ماري ! قهوة مغلية كويس .. مع سكر قليل ؟ وواصلت « تعرف يا ويرتاح قليلا في بيروت من عناء العمل ، والفلاحين » .

فرد الحجي .

ـــ لو تعرفين !... لو طلعت علي ليلة قدر ، هل كنت اطلب ، غير ما دبرت لـــي .. كيف تحبين ان نقضي هذا الوقت ؟ لكن ام جيسكار سألـــت بدلـــع :

ـــ حجي ، ماذا احضرت لي معك من حماه ، هدية ؟

كل حماه صارت بين يدي سيدتي ، قالها الحجي ، بشوق ولهفة .

وماذا يوجد في حماه ... وهل تليق بك سوى هدايا بيروت .. او باريس .. انت تختارين والهدايا تأتي على الرأس .

قالت ام جيسكار :

ـــ انا أمزح ، ليست مشكلة .. كنت أتصور أن تحضـــر لي عباءة بدوية ، شغل دير الزور ، رأيت في فيلـــم فرنسي عباءات عراقيـــة ، فتصورت وجود مثلها في دير الزور .

فقال الحجي :

ـــ حتى عباءات دير الزور ، تزحف اليك من اسواق بيروت ...

وبعد ان شربوا القهوة نزلوا الى الاسواق فاختارت السيدة لنفسها عقدا بخمسمائة ولابنتها فسطانا وسوارا بثلاثمائة ، وللحجي علبة دخان فضية باثنتين وعشرين ليرة ، دفع الحجي ثمنها جميعا ، كما يفعل الماشي بنومه ... وعادوا الى البيـــت فتناولوا طعام العشاء . وتحدثوا عـــن الاموال ، والاسعار ، والنساء ... والجمال وعرض الحجي مشـــروع الشقة البيروتية على ام جيسكار ، فوافقـــت بحماســـة ، ومن علـــى الطاولة طلبت السيدة حماه ولم تمض دقائق حتى قدمت السماعة للحجي .

فقال :

آلو سعادة البيك ، انا الحجي ...

ورد البيـــك :

ـ اهلا حجي ، من اين تتكلـم ؟
فقال الحجي : من بيت الياس ، تفضل تكلم مع ام جيسكار .. وناولها السماعة .
وقالت ام جيسكار :
ـ مساء الخير سعادة البيك ، كيف صحتك ؟
ـ اهلا وسهلا ، كيف الاخبار ..
ـ نحن بانتظارك على الغداء ، غدا في بيتك في بيروت .
ـ بسيطة ! . غدا اكون عندكم ، ان شاء الله . انتظروني على الغداء ... وضربت السيدة كأسها بسماعة التلفون وقالت :
ـ كاسك سعادة البيك ، تصبح على خير ...
ـ واجاب البيك :
ـ مئة صحة ، وانتم بألف خير ! هل تريدون خدمة من حماه ؟ .
وختمت ام جيسكار :
ـ شكرا ، سلامتك سوى ان نراك بيننا . مع السلامة .
كان الحجي ، لا يشرب ، بسبب طبيعة عمله مع الفلاحين من جهة ، ولانه حجي من جهة ثانية لكن ام جيسكار سقته شيئا من النبيذ واستدعى ذلك ضرورة الموقف وما يفرضه من المسايرة والاشتهاء . فأمضى ليلة ، وكأنه هارون ..
في ضحى اليوم الثاني ، رن جرس الهاتف ، وبعد ان القت السيدة السماعة قالت :
سيكون صبحي بك بعد دقائق هنا ..
وبالفعل فبعد دقائق فتحت الخادمة الباب ، فاستقبلت السيدة وبنتها البيك في الممر ... بينما كان الحجي واقفا في الصالون الكبير .. قالت السيدة :
ـ نورت ... نورت بيروت ، نور كل لبنان .
ومد البيك يده مصافحا :
صباح الخير مدام .. كيف صحة الياس ؟
وردت : كما تحب سعادتك ، وتشتهي ... كلنا بشوق وانتظار .
والتفت البيك الى غلادس : ما شاء الله ، انستنا ما شاء الله .
طبي الجرة على تمها بتطلع البنت لامها .
وضحكوا جميعا بمنتهى الانشراح والعافية ! .
ـ والى الحجي : يا مقصوف العمر .. النحلة الشاطرة تعرف

كوارة (١) الزهر ...

ورد الحجي : كلنـــا زلـــم (٢) البيـــك ! ...

استلمت غلادس زمام المبادرة في الحديـــث قائلة :

ـــ اهلا سعادة البيـــك ، انا اتابع اخبارك ، انت تأتي الى بيروت دائمـــا ، وتذهب الى الكيت كات .. ولا تلفون للبيـــت ! ..

فأجاب البيـــك : ومن اين يسقط علي الوحي بأن البيت بكل هـــذا الخيـــر ؟

انتم جميعا اعزاء علي ، وخصوصا الوالده ... ولكن انت ما شاء اللـــه ، اجمل ما رأيـــت في حياتي .. والتفـــت الى الحجي

ـــ كيف حال الحجي ، اين نزلت الليلة الماضية لنكون فـــي جوارك الكريـــم ، انـــت خبير بالفنادق الدسمة ..

وسكـــت الحجي لحظـــة ، لتقول ام جيسكار :

ـــ يا عيـــب الشوم يا بيك ، الحجي صديق العمر ، وينزل فـــي فندق .. انت والحجي ، وكل من تحبون في بيوتكـــم ، عندنا في قلوبنا .

وعلى الطاولة العامرة ، قال البيـــك :

ـــ صحيـــح يا حجي ، بأي فندق ستنزل ؟

وردت غلادس :

ـــ الضيف بعد يومين او ثلاثة يصير من حقه ان يفكر ، او ان يتصرف انتـــم الان ضيوف ... لذلك فأنتـــم تتلقون الاوامر منا .. الليلة نحـــن في الكيـــت كات ، واذا لم يكن لديك مانع نقضي بقية السهرة في البيت .

واردفـــت امها :

ـــ هذا رأي غلادس ، فما هو رأي سعادتك ؟ عندنا بيت واســـع جدا .. وقد خصصنا جناحا لك ، واخر للحجي وتنامان هنا ...

ـــ قال البيـــك : الرأي للحجي .

ـــ فقال الحجي : الناس على دين ملوكهم ، وانا تحت امرك وامـــر ام جيسكار ... وكلام غلادس يأخذ العقل : نصف السهرة بالكيت كات ، ونصفها الاخر بالبيت ...

ـــ لعبوا ليلتها في الكيت كات ، وربح البيك الفا ، وخسر الحجـــي الفـــا ، وربحت غلادس ثلاثماية . وامها الفـــين ، وشربـــوا ... الا

---

(١) ـــ الكوارة ، عند العامة ، مكان خزن الحبوب للمؤونة . وهي ايضا المكان الذي يأوي اليـــه النحـــل .

(٢) ـــ مفردها زلمـــة . وهي بالعامة الرجل التابع والمطاوع .

الحجي ، الذي جرع قليلا من البيرة .. وقضوا بقية سهرتهم في القصر ونام الجميع وفقا لمخطط السيدة ..

نهضوا متأخرين . سعادته لحمام الصباح ، والحجي في الحديقة مع الورق والقلم والحسابات والسيدة لاعداد الفطور ، والانسة تسوي زينتها ، وتصلح ما كان قد افسده الليل .

نزل البيك الى الحديقة معاتبا :

ـ منذ زمن طويل ، وانت تعرف ام جيسكار ، وغلادس فلماذا لم تخبرني بذلك ؟

ورد الحجي ، وكأنه لم يسمع :

ارجو ان تكون قد سررت .. وادركت الفارق بين ليالي القمار في حلب .. وليالي بيروت .

ورد البيك : بيني وبينك ، غلادس اطيب من بلورية حلب ... اجمع اوراقك ، ولا بد من الذهاب للسوق للقيام ببعض الواجبات تجاه هاتين الطيبتين .

قال الحجي :

انا قمت بأكثر من الواجب ..

ونادى البيك على غلادس ، لتنزل معه مشوارا ... لكن الام اصرت على تناول طعام الافطار اولا ، قبل المشاوير . في ذلك المساء وصل الياس من باريس ، وسر لوجود البيك والحجي في بيته . وتحدث كثيرا عن مشاريعه . واخبرهم بدعوة سايكس له الى قصره في الشانزليزيه ، وعن افكاره الطموحة فقد اكد له سايكس ان العالم مقبل على ازدهار اقتصادي عجيب ، وان الذكاء التجاري سيحقق الاعاجيب ، واضاف الياس :

ـ لقد وضع تحت تصرفي مليوني ليرة كدفعة اولى بفائدة ٢ ٪ وسوف اقدم هذا المبلغ برمته للحجي ليسلفه للفلاحين في قرى صبحي بك ، وبمساعدته وتوجيهاته . كما وعدني بوضع اي مبلغ اخر تحتاجه الاعمال . وقد عقدت اتفاقا مع شركات المطاحن بباريس ، ان نصدر لها عشرين الف طن من الحنطة ، وعشرة من الشعير ومثلها من الجلسان وغيرها من حبوب اعلاف المزارع . فما رأي اصحاب الاختصاص . ما رأي سعادة البيك ؟

كان الحجي يصغي بانتباه شديد ، ويعي بعمق ابعاد الحديث ، اما صبحي بيك ، فكان مشغولا بغلادس ، واحاديث الصبا والجمال ،

والامـــل المنشود .

قال الحجي :

ـــ تقبل علينا اذن ظروف باهرة وفرص عظيمة ، فعلينا ان نعد لهـــا الافكار المدروسة والاعمال المستعجلة ، يجب تشجيع زراعة الحبوب وتنشيط الفلاحين بالبذار لرش اكبر كمية ممكنة من الارض .

وقطعت الحوار غلادس بدعوة البيك الى الصالون الكبير ، لمشاهـــدة آلـــة العرض السينمائية والافلام ! التي اصطحبها والدها معه . وقاما ... ليدعا الحجي والياس بحوارهما التجاري ومشاريعهما المستقبلية . وفتح البيك فمه مدهوشا اثناء العرض ، فقد كانت الصور من الاباحيـــة بحيث لا يهجس بها الشيطان لنفسه اذا خلا بها ... وقال وهو يداعـــب ركبة صديقتـــه الجالسة الى جانبه :

هناك حياة ثانية للدنيا ، لا يعيشها الا العارفون بها .. الدنيـــا معرفـــة .. ولا شيء غير المعرفة .. وسرت الصبية لعقل صاحبهـــا الفهيم واستجابته الواعية ، ثم نهضا بعد الانتهاء من متعـــة المشاهدة عائدين الى الرجلين الغارقين في خضم الدفاتر والحسابات .

وعلى مائدة العشاء الفاخرة سأل الياس غلادس بالفرنسيـــة عـــن انطباع الافلام ، على ذهن صاحبها البيـــك :. واجابته غلادس بلغـــة فرنسية مترفة لا يفهمها البيك لانه تعلم الفرنسيـــة في حماه على العهـــد الفيصلـــي :

لقد انتهى صاحبنا ، مشهد اخر ، وينقل الى بيغال (١) باريس ... كل مشاريعك « اوكي » ويوافق عليها بلا جدال .

وقال الياس ، وكأنه يعتذر عن الفرنسية التي تسبقه احيانا فـــي التعبيـــر :

ـــ يا سعادة البيـــك ، اللغـــة بالفعل انسان اخر ، ويجب ان تتقن الفرنسية ، واللغـــة ممارسة .. وكلما اتيت الى بيروت فليكن حديثـــك مع غلادس بالفرنسية ، ولا تمـــر فترة حتى تصبح جاهزا للحديـــث مع كل الفرنسيات ...

ـــ ارى الحجي مشغول الافكار بالتسجيـــل ...

ـــ لا ينشغـــل فكرك ايها الصديـــق .. كل مبلغ تحتاجه مهما كبر ، سيحول اليك بالهاتف .. فرع حماه كله بأمرك .. صحيح بقية المـــدن غاليـــة ، ولكن ليست بغلاوة حماه والحجي ، ورفع كأسه : نخب البيك

---

(١) ـــ شارع الباشـــي .

حيث انـــه وراء الجميـــع .

ورفع الحجي كأس البيرة المثلجة ، وهو يقول :

ـــ خواجه الياس .. الارباح لا شك كبيرة . والقرش باخر السنة ، غيره في اي وقت منها . القرش يعطي عند حاجة الفلاح اليه ، خمسة او سبعة ، واحيانا تسعة وعشرة .

وسعادة البيـــك ليس عليـــه سر ، فهو الذي سمح لنا بالعمـــل في مزارعـــه وقراه ، وبين فلاحيه وخدامه وله ارباح ١٨ ٪ ، وذمتي غاليـــة علـــي ... وفهمك كاف ، وكأس البيـــك ! . ورد الياس ، وهو يشرب كأس البيـــك :

ـــ ولو حجي (ولو) ! البيك معروف حتى في فرنسا ، فقد دعانا صديـــق مدير البنك بباريس وكان مستشار فرنسا بحماه او بحلـــب ، وتعمدت ان اذكر امامه البيـــك .. فاذا اسم البيك ملء الاجتماع ، كمـــا شاركـــت زوجتـــه كثيرا بذكر محامده . وتبسم البيك وقال لورا ، امراة فعـــلا ذكية ومرتبة . وملكة جمال .. واستدرك : لكنها ليست اجمل من غلادس .. وتفرست غلادس بالبيك ، قليلا ، وكأنها تصطنع الغيرة : ومع الفرنسيات ايضا علاقات ؟

قال البيـــك :

والله امضينا اويقات كثيرة بصيد الارانب ، في الليل .

وغمزت غلادس وهي تقول :

والغزلان ايضا .. صبوح .. لك مشاكل مع الستات لا تنتهي ..

وبلطـــف تدخلت ام جيسكار :

ـــ غلادس ماما لا داعي لهذه الاسئلة ، صحتكم يا جماعة ، اهـــلا سعادة البيـــك الحمد لله على عودة الياس بالسلامة ، ووصولكـــم مـــن حماه ايضا ...

وعقبـــت غلادس بسرعة :

ـــ بابا ، قدم لي صبحي هذه الهدية بألف ليرة والحجي قدم لامي هدية غاليـــة ايضا ..

ورد الياس :

ـــ بابا ، البيك كريـــم ، واهلا وسهلا بالبيك والحجي ، البيت بيتكم ، سواء كنت حاضرا ام غائبا ، وارجوكم كلما شرفتم بيروت ان تنزلوا ببيتكم المتواضـــع وحدق بالحجي قليلا وسأل :

ـــ حجي : هل ترغب السنة بزيارة الحج .

ـــ فرد الحجي : اخي الياس الحج زيارة ، وتجارة ..

ـــ وقال الياس : لكن قبل السفر ، ان قدر الله ، ارجوك ضبط كل الامور ، فقبل ان تصل حماه يكون قد وصلك شك بمبلغ مليوني ليرة .

كان الغداء قد انتهى ، ونهض الياس والحجي لتدقيق ما بقي من الحسابات وسأل الياس :

ـــ كم المبلغ الذي حولت ؟ .

ورد الحجي : مليون .. وصدرت الف طن قمح . وثلاثمئة الاف شعير .. هناك الف طن عدس مخزون .. والواقع ان صبحي بك يساعدنا كثيرا ، فقد اعطانا اكثر قراه ومزارعه ، قلتها امامه واقولها لك بغيابه .. وهو يحتاج لاكثر من تشجيع لاخذ ما تبقى من تلك القرى والمزارع .

قال الياس : سأزور حلب قريبا ، واعرج في طريقي عليه ، وسوف تكون معي الست وغلادس ، وسأزور ايضا القرى والمزارع التي تتعامل معك ، واسأل عنك فيها ، واجعل الجميع يتهافتون عليك ، ولا يرون من الدنيا سواك ، وسوى خانك ... لا يكن لك فكر سأرتب كل الامور ...

ـــ انا اعرف قدرتكم بهذا المجال ، قالها الحجي وقد فتح يديه بارتياح وشكران ظاهرين .

واكمل الياس :

ـــ هذه السنة يجب ان احقق لك ارباحا صافية وشخصية ما لا يقل عن نصف مليون ليرة فاطمئن . ان لم توجد ضرورة ماسة لزيارة الحج هذا العام ، فسوف تصل الارباح الى اكثر من ذلك ...

وعلى كل حال ، ان لم تسافر فاخبرني حتى ازيد مبلغ التسنيف ... بدلا من ان ازيده لسواك .. ودون ان يتركه يجيب اويرد اكمل طبعا حجي انا اعرف انك تهدي ، وتتصدق على رجال الدين ، والزعماء ، والمخاتير والوقافة (١) ، فيجب ان تضاعف من تساهلك ، ولا تنس رؤساء المخافر ...

فأجاب الحجي :

ـــ بسيطة ، بسيطة .. فلكل شيء ثمن ، والصفقات العظيمة تحتاج الى تضحيات وعلى كل حال فأنا على اتصال دائم بك .

والان ... شرف حجي ، لعند سعادة البيك .

في صبيحة اليوم التالي غادرا الى حماه .ووصل الحجي مساء الى بيته ، فحمدت زوجته الله على وصوله سالما ، وهنأته ، واستخبرته

---

(١) ـــ الوقاف : وكيل الاقطاعي في القرية .

عن سبب طول غيابه هذه المرة ، فقد قلقت افكـــارها ، وافكـــار الاولاد الذين اقلقهم غياب الوالد الكريـــم ..

قال الحجي :

ـــ كان شريكنا مشغولا جدا ، وانتظرته بالفندق يومين ، حتى جاء دوري للحساب ، وبعدها صار الحساب على الناشف ، ودون غذاء ..

ـــ قالت الزوجـــة :

الله ينشف الدم في قلبه اصله « غريكي » (٢) .. احسنت بأنـــك لم تأكل من عنده .. ماذا احضرت معك للاولاد من بيروت ؟ .

اجاب الحجي :

لا شيء يحرز ، كل الحاجات غالية .. الغلاء يكوي ، لم احمل معي سوى خمسمائة ليرة نصفها أكلها الفندق والمطعم ، وهدية لك سوار ، بمـــئة ليرة ، وموز وبرتقال ، للاولاد من ـــ طرابلس ، هاتي ، اطعميني ، لا نفس مثل نفسك على الطعام . صبحية ... وظهر الزهو على صبحية فردت بتفاخـــر :

ـــ حاضر ... ابن عمي .. عندي فريكه ، السمن تحتها قيراط ، واللوز فوقها شبر ، الفلاح ابراهيم جلب كولك (٣) لبن .. وجاء فلاحون كثيرون دقوا الباب وسألوا عنك ، وقالوا عندما يأتي الحجي ، علـــيه ان يخبـــر القرى ..

ـــ قال الحجي :

يا هلا بصبحية .. كيف حالك ، وحال الاولاد ...

ـــ انا مشتاقة لابن العم . والاولاد كانوا يحلمون ببدلات جـــديدة من بيروت .

ـــ فرد الحجي :

ـــ والله يا مره هذه السنة كانت صعبة .. والموسم محل ، بالكاد سددنا ديوننا وقطـــع حديثه فجأة لينادي ولده خالدا :

خالد ! كيف دروسك ... والمدرسة ؟

ورد الصبي :

ـــ انا بالمدرسة جيد ... لكن يا ابي كندرتي اهترت ...

فقال الحجي :

---

(٢) ـــ كلمة يطلقها القرويون على نصارى اليونانيين

(٣) ـــ وعاء خشبي ، يستعمل لحفظ اللبن .

للخـــان .

وأمر الحجي ابنه خالدا ، ان يحضر له السائس من الخان . ودخـــل الحمام . وعند خروجه كان السائس ينتظره في البيت ، وهنأه بسلامـــة العودة من بيروت ، قال الحجي :

ـــ اسمع يا احمـــد .. اذهب الى المختار والشيخ والوقاف بكـــل القرى التي نتعامل معها وقل لهم ان يحضروا غدا فالحجي رجع ..

وصدع السائس للامر ، ونام الحجي قليلا ، وعاد المساء الى خانه ، فأشعل نارجيلتـــه وتحلق من حوله السمان ، وبائع الاقمشة ، والاحذية ، وقسم من التجار الكبار ، وبعض التجار الصغار ودار الحديث على البيع والشراء ، وحركة السوق ، ومستقبل السنة ، وحالة الناس .

وهمس السمان بأذن الحجي . وهمس بائع القماش .. وثالث : كلمة بيني وبينـــك .

ورابع افهمه على العالي .. والجميع بحاجة الى سيولة .

وانصرف بعضهم وهم يحلمون بالوعود ، وبقي اخرون ، فجمـــــلهم الحجي بكلمـــة :

ـــ طبعا انا اعرف حركة السوق ، والسنة في بدايتها ، والفلاحـــون يحتاجون اليكـــم ، وانتـــم تحتاجون الى سيولة . وسأقدم لكل منكم مبلغا محترمـــا بربـــح قليل ، على ان يبقى الامر سرا بيننا ، لكل منكم خمسة الاف ليرة يعيدها سبعة الاف وخمسماية ، قرضة الله حسنة .

وقـــع جميعهم على السجل شاكريـــن مساعدتـــه ، ومساعدة البيك الذي سمح لهم بالعمل بين فلاحيـــه ، وذهب الحجي الى بيته ، ومع صلاة الصبـــح ، جاء الجامع فقضى به الفريضة ، ووجد السمان ينتظره هناك ؛ واصطحبه معه الى الخان ، ودار الحديـــث التالي :

ـــ انا ارى هذه الحالة التجارية غير مريحة والاحوال صعبة .

فماذا ترى انـــت ؟

قال السمان : انـــت شيـــخ العارفين بالتجارة ، وعليك ان ترشدنا لان مصالحنـــا مشتركة .

فأجابـــه الحجي :

ـــ يجب رفـــع الاسعار ، وانت تعلم ان الارباح مناصفة بيني وبينك .

ـــ انا موافق يا حجي ، لكن فائدة الياس كبيرة .

ـــ اسمع اذا وافقت على المبدأ الربح مناصفة ، سأعمل لحل مشكلة الفائـــدة معك .

ـــ انا موافق على هذا المبـــدأ .

— ابي ... الكندرة من غد الى التصليح ... اما الحذاء الجديد ، فينتظر امتحان اخر السنة .. فهمت ؟ .

وقالت صبحية :

— ابن عمي ، الحمام جاهز .. يجب ان تستحم وتنام قبل الذهاب

— اذن منذ هذه اللحظة ، فانا شريك معك ولي نصف الارباح ؛ والفائدة ستكون ٢٥ ٪

— من اصل رأس المال ، فائدة غير مركبة ، وغير مدورة ، موافق ؟

— موافق ، ولكن كم هو المبلغ ..

ووصل الاثنان باكرا الى الخان وجلسا حول منقل الفحم المتوهج ، الذي كان السائس قد جهزه منذ الفجر ، كما جهز نارجيلة الحجي .

قال الحجي :

— خذ هذه الثلاثين الفا ... اسمع وكل الفلاحين الذين سيحضرون الى عندي سأوجههم لعندك ويجب ان تكثر من كميات التمر ، والدبس .. وانني قريب منك ، واي مبلغ تحتاج اليه سيكون بين يديك .

شكر السمان اريحية الحجي ، لهذا الصباح الذي كله خير ، بخير . وودعه وانصرف ليستقبل الحجي زبونا اخر كان قد همس له بلقاء في هذه الساعة المبكرة من هذا الصباح .

ابتدأ الحديث بائع القماش بقوله :

— الرجاء ان تنهي لي المشكلة قبل ان يحضر احد ، ويقطع علينا العمل ، فانا يا حجي بحاجة لمبلغ كبير . فالشتاء لم يدخل بعد ، والفلاحون بحاجة الى كساء ، والاسعار لا بأس بها ، وعلي ان انتهيأ منذ الان ، فكيف تريد ان تمولني ؟ .

قال الحجي :

— اسمع يا اخي انا رجل مستقيم ، ونحن اصدقاء ، كيف تحب ان يكون الاتفاق ، شراكة ؟ ام على رأس المال ؟ .

قال بائع القماش :

— المهم المال .. .وانا كما ترغب اكون .

اردف الحجي بلا مبالاة وكأن الامر لا يهمه :

— انا من رأيي الشراكة . واتساهل معك بالفائدة ٣٠ ٪ .

فاحتج صاحب القماش قائلا :

— انك تعاملني كغريب ، تشاهده لاول مرة ... وتعاملني كالاخرين...

فرد الحجي :

ـ انت تثـور بسرعة ... التجارة تحتاج الى طول نفس وصبر ، والى اخذ ورد ... طيب ... ولكن الفوائد والمصاريف قد زادت ... تفضل استلم ووقع هذه مئة الف ، والحساب على الجرار ، وهذا شك من بنـك سوريا ولبنان بساحة العاصي . تفضل ، وقع .. تلفن الى حلـب ليجهزوا لك سائر طلباتـك .. مع السلامة .

تناول الحجي فطور الصباح ، مع الحذاء ودخل معـه بحديث حميم حول انواع الاحذية البدوية والزراعية . الحمراء الخفيفة الحلـبية ، وجزامي النساء الصفراء البدوية وجزمات البلاستيك للسقاية .. وتلـك التي تقاوم الافاعي بغاب حماه ... فاذا هو فارس مجل في هذا الميدان وخرج صاحبنا من عنـده وهو يقول :

ـ توكلنا على الله . موافق .. يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. توفقنـا . وعندما كان يوقع اوصاه الحجي برفع الاسـعار ، ومـدح البيـك ! .

قال الحذاء : لا توصني يا حجي .. ست وعشرون سنة ، ونحن مع البيـك بالانتخاب ... ست وعشرون سنة ، وموقفي معروف على سن الرمـح ... قالها وهو يطوى شك السبعين الفا بعناية ويضعه في حقيبة جيبه الخلفية ، ويحكـم اقفالها بالزرين ، ويودع شاكرا ..

وتفحص الحجي سجلاته في هذا الصباح المبارك وامر سائسه بتغيير نفس النارجيلة وتجديد نار المنقل . واخبره انه في حال وصول الشيـخ فلينتظـر قليـلا .

يقول المثل العامي عند الفلاحين (بين تشرين اول وتشرين ثانـي صيف اخـر) في مثل هذا الوقت من تشارين ، كما في الربيـع ايضا يفد الكثيـر من رجال الدين الى ريف حماه الشرقي ، بقصد تحصيل الزكـاة ولـم تكن الاعينية من المحاصيـل المتوفرة فهي اما قمح او عدس في مثل هذا الوقـت ، وتكون زبدة وحملان في الربيـع ويجود الفلاحون بالزكاة معتبرين ذلك استجداء وطلبا للخير في الموسم القادم ، مستلهمين مـن عطائهم هـذا الطلب من الله ان يجود عليـهم بسنة خير .

كانت نسمات الهواء لطيفة وعليلة ، عصر ذلك اليوم ، عندما اقبـل اربعة شيوخ من رجال الدين يركبون حميرهم متجهين صوب الدار ، كان اولهم يركب اتانا بلون ابيض اما الحمارين الاخرين فيتماوج لوناهما بيـن الابيض والاسود وقد جهزت الحمير الثلاثة بسروج وخروج ، لاح هـذا المنظر بينما كنا نلعـب مجموعة من الاطفال مستظلين بجدار المنزل فمـا كان مني الا ان انصرفت فور رؤيتي للمشهد هذا مخبرا والدتي ان المشايخ

قد اقبلـوا فأخبرت والدي بدورها مضطرة الى ايقاظه من قيلولته بعـد غدائه المؤلف من اللبن المثوم والبصل على ما يفعلانه من تخدير للاعصاب.

قالت والدتـي :

لقد اقبل المشايخ لزيارتنا فقم واستقبلهم ، وكالذي لدغته الافعـى، نهض مسرعا وخرج الى باب الدار .. كانوا في هذه الاثناء قد وصلـوا الباب وكأنهم على موعد معـه فما كان منه الا أن رحب بهم قائلا :

ـ اهلا وسهـلا ، تفضلوا ..

ثم نادى : محمد اربط الحمير واعلفهم .

كرر اهلا وسهلا فدخـل المشايخ البيت ، وبعد ان فرشت والدتـي فرشـة على الحصير ، ووضعت بجانب الجدار بعض المخدات ، لكـي يتكئوا عليها . وجه الخطاب الى والدتي :

ـ اسمعي يا فطيم احضري ماء وطشتا وطاسة . بينما كان المشايخ الاربعة يجلسون بحذاء بعضهم بعضا فخلعوا عماماتهم البيضاء وقام والدي بسكـب الماء على ايديـهم فغسلوا وجوههم وارجلهم في الطشت ، وهم يطلقون للوالد الدعوات الكثيرة ، ولم يحذفوني من دائرة بركاتهم بل اثنوا علـي كثيـرا ، بعد ان ربطت الحمير ووضعت لها التبن .

قامت والدتي باحضار وعاء مملوء باللبن فشربوا وارتاحوا .

وجه والدي الكلام الينا : امسكوا بالديوك . لكن والدتي اصرت على ان يذبـح الجدي المربوط حذاء الجدار ، بينما رأى الوالد ان تذبح الديوك بدل الجدي وهكذا كان فاستنفر الاولاد الذين كانوا يلعـبون مستظليـن بجدار الدار قبل قليل لمطاردة الديوك التي كانت بدورها تقف في الظـل بالقرب منهم ، هرب ديك فطارده محمد مسرعا ، وما كان من حسين الا ان قطـع عليـه الطريق وهكذا حتى انتهت المطاردة بالقاء القبض على ديوك ثلاثـة .

اخرج كبيـر الشيوخ السكين من جيبه وقرأ عليه الفاتحة ، وذبـح الديوك الثلاثة وانبسطت اساريرهم .. هاهوذا العشاء قد تأمن ، وبعد استراحة قصيرة خرجوا عند الغروب ، يتمشون بحذاء الدار ، حتى حان موعد العشاء ، فاصطفوا للعشاء الذي حضره بعض المدعوين من رجال القريـة وتبعـه حضور بعض الرجال الاخرين الذيـن فاتهـم العشاء . واكتفوا بحضور سهرة مع المشايـخ حيث دارت فيها احاديث مختلفـة عن المواسم وحاجة المشايخ للزكارة ومكانة هذه الفريضة الدينية بغية دب الحماس في نفوس الرجال لدفع اكبر قدر ممكن من هذه الزكاة العينية .

في صباح اليوم التالـي جمعت الزكاة من السكان في الوقت الذي

جلس فيه المشايخ على حصيرة وفرشة بظل جدار الدار ، ثم تناولوا فطورهم من الزبدة ومشتقات اللبن ، وطلب احدهم دخانا ، ولما لم يكن متوفرا في البيت ، فقد قصد الاب احد الجيران ، فأحضر كيلوغراما منه بعيدانه وهو غير مصنع بعد ، فتناولوه ، وجردوه من عيدانه ، وفرموه ، ثم تقاسموه فيما بينهم بعد ان وضعوا ما فاض عن علبهم في اكياس خاصة ، وبعد ان انتهت حاجتهم غادرونا الى قرية اخرى ، عند المختار .

ذهب والدي الى المضافة ليستطلع اخبار الحجي والبيك ولم تمض اكثر من ساعة من الزمن حتى ذهلنا من منظر تطويق القرية بسرية من الدرك ، معززة بثلاث سيارات مصفحة تمركزت احداها قرب دارنا واتجهت الاخريات لتحكما الطوق على البلدة ، ثم صعد قسم من الدرك الى السطوح لمراقبة مداخل القرية ، وبدأت عملية تفتيش القرية بيتا ، بيتا .

كان التفتيش مريعا ووحشيا في آن واحد . لقد جهز الدرك بمثابر حديدية يبقرون بها خيوش التبن والحواصل والعدل والكواير وان استعصت احدى هذه الاشياء عليهم قلبوها فيختلط الحب بالطحين والدبس بالزيت، وعندما نزلوا من سياراتهم في احدى ازقة القرية ، نبح كلب عليهم ، فأرداه احدهم قتيلا بطلق ناري من مسدسه ، بعد ان نبح نبحات الالم التي تفضي الى الموت .

كان السؤال المهم والرئيسي يتركز في : اين شاهين ؟

وشاهين الملقب بأبي علي ، فلاح متمرد على السلطة ، اذ جرت العادة ان يلقب كل خارج على النظام المستغل المتبع بالمتمرد ويعود سبب تمرده الى سنة خلت اذ ان شاهين هذا كان قد قتل احد افسر الدرك ، وذلك بسبب الحمية والعرض .

كانت العادة عند حضور البيك الى القرية ان تأتي نورية ما للرقص ، ولا بد من ان ترقص معها احدى الفلاحات ، اثناء تلك الحفلة وكان قد وقع الخيار في تلك الحفلة على الفلاحة زوجة ابو علي شاهين فاقتادها الدرك للرقص بناء على طلب البيك ، فلحق بهم زوجها طالبا اطلاق سراحها متوسلا . كان المنفذ دركيين ، ولما لم تنفع محاولاته بالرجاء ضرب الدركي الاول ضربة فلاح يائس يتعرض عرضه لمهانة اكيدة فسقطت بندقيته فتناولها واردى الدركي الاخر برصاصة قاتلة واخذ زوجته وهرب ومن يومها اصبح ابو علي شاهين متمردا يتعرض الى حملات الملاحقة والتفتيش ، وكانت هذه الحملة احداها ، لانه نمي الى السلطة ان ابا علي شاهين في القرية .

كان ابو علي شاهين يلقى العطف من جموع الفلاحين ، يحيونه ، ويطعمونه ويؤمنون له الذخائر من اجل معاركه الطويلة مع رجال الدرك التي استمرت لاكثر من سنة ونصف ، حتى القي عليه القبض واعدم ، لقد انتشرت شهرة ابو علي شاهين بين الفلاحين ، وسرت كالنار في الهشيم حتى غدا عند بعضهم بطلا اسطوريا ، كما الفوا عنه الاغاني وسطوته اصبحت مثار التهديد للاطفال ، اذا لم يناموا ، او يرتدعوا كانت الام تقول لطفلها نم قبل ان يأتي اليك شاهين .

لقد انتشر جو الارهاب من خلال حملة التفتيش فقد جمعنا احد افراد الدرك في زاوية من الدار ، والابواب مفتوحة ، واطلق احد الدرك النار على رأس خروف سمين فقتله وذبحه وامر بنقله الى السيارة .

واستمر الامر كذلك في كافة البيوت ولما لم يعثروا على شيء تجمعوا بجانب الجدار .

شاهد الرقيب اثار عروق الدخان التي نثرها المشايخ قبل قليل على الارض فقال :

ـ انهم يهربون الدخان ، وطلب صاحب الدار ابراهيم ، وسأله عن مصدر هذا الورق فأجاب : انه من رجال البدو الذين جلسوا صباحنا بجانب الجدار ولم يعرفهم ، كانت حجة واهية كما راها الرقيب ، فلطم ابراهيم على وجهه واقتيد الى السيارة ثم الى السجن بتهمة تهريب الدخان .

جرت عدة محاولات توسط لاخراجه ، ولكنها لم تنفع الا بعد ان قدم الى المحاكمة ، ودفع غرامة مصالحة ، وسجن شهرا كاملا في السجن المركزي في حماه ، وتعددت الواسطات التي كان آخرها توسط البيك نفسه ولم تصل الامور الى البيك بذاته الا بعد سلسلة من الهدايا التي ترضي الاتباع ، بدءا بالوقاف ، فالوكيل ، فالشيخ عبد الرحمن ، الذي كانت هديته دعوة طعام ذبح فيها الجدي الذي طالما تمنت فاطمة ذبحه للمشايخ اذ كانت تعتقد انه لو تم ذلك لما جرى ما جرى وهذه خطاياهم قد حلت علينا . ومع هذا فقد نذرت نذرا جديدا تكفيرا عما اقترفوه بحق المشايخ وعندما يعودون في الربيع يجب ان نذبح لهم خروفا قالت فطيم :

ـ هذا الوعد اعتبره نذرا علي عسى الله يوفقنا ويعمي عيون الظالمين عنا ذهب الجميع بعد الغداء الى مضافة المختار لمتابعة اخبار الحجي والبيك لتكملة الكسوة والمؤونة للشتاء .

في اليوم التالي قصد الشيخ عبد الرحمن خان الحجي لاتمام قروض

الفلاحين وعندما وصل الى الخان اعلن السائس للحجي عن وصوله .
قال السائس : اهلا يا شيخي ، تفضل اشرب القهوة المرة ، لحظة وتدخل وشكره الشيخ وهو يتناولها :
ـ كيف صحة الحجي ؟ .
اجاب السائس : الحمد لله صحته تمام ، وامواله في ازدياد .
وحمد الشيخ الله على ذلك وقال :
ـ الله يرزق من يشاء بغير حساب .. ويرزق عباده الصالحين والمحسنين منهم ايضا .
قال السائس :
ـ لذلك تزداد امواله وارباحه ، فأنا لا احسد احدا على عيشته ، وكل انسان في هذه الدنيا يأكل قسمته ونصيبه ، ولكن قل لي يا شيخي ، هل يفرق عزرائيل ، بين غني وفقير عندما يشرف بضرب باب الدار ؟
ـ حاشا الله . قالها الشيخ من صدره واردف :
كل ابن انثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول
الموت حق وكل الناس ستشرب هذا الكاس .
في هذه الاثناء نودي على السائس ، فادخل الشيخ على الحجي ، وصبحه بالخير فسأله عن صحته ، وصحة الناس فقال الشيخ :
ـ صباح الخير اولا .. وانا بصحة جيدة ، ما دام رضاك ، وعمل الخير مناك ومشتهاك ، والفلاحون بخير ما دمت لهم كنزا وذخرا ينهلون من اموالك ويعيشون من افضالك . وقل اعملوا ... وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، والعمل الصالح له ثواب في الدنيا ، وفي الاخرة . صدق الله العظيم وانت يا حجي لا تعرف شيئا عن نفسك ، ولو سمعت بما يتحدث به الفلاحون عن اعمالك الصالحة ، لانتابك زهو وغرور حماك اللـه منهما ... اما انا فأعرف ان ثوابك مضاعف ، واجرك عظيم ... وقل اعملوا ... صدق الله العظيم ...
فشكره الحجي ، وهو يسحب نفس التنباك ، بواسطة الحبل الطويل من رأس نارجيله مكومة كبرج :
ـ كيف احوال الفلاحين ؟
ـ احوالهم صعبة ، قالها الشيخ ، وكأنه لا يعني شيئا ، لا يزال البذار مستمرا ، لقد توقف العمل قليلا بغيابك .. وخاصة ان البيك كان كان غائبا ايضا .. وسمعت البارحة انه عاد .. ولما وصل السائس واخبرني بعودتك بالسلامة ، اخبرت المختار والناس بالمضافة فاستبشروا خيرا واليوم حضرت بناء على طلبك ، فماذا تأمر ، فأنا بالخدمة .

قال الحجي :

ـ لقد احضرت لك معي هدية من بيروت ، هي قطعة جوخ كحليـة تخيطها جبـة ... والسايس يدلك على الخياط الذي نعتمد فمبروكـة هذه هي .. وانا لا اريد منك شيئا سوى الدعاء ..

فقال الشيـخ :

لقد غمرتني بفضلك ، كما غمرت الاولاد ، لكن هناك في بعـض القرى الشماليـة ، الشيـخ عبد الجبار يتحدث عنك ، ويتخرص ... زرتـه ذات يوم ، ولما حكيـت بفضلك كان قاسيا معي جدا ، قال هـذا يحتال على الدين ، وتجارته ربا والربا حرام ... وان خلا بنفسه ، فـلا فرق بين ابليس وبينـه في شيء ... وانت تعرف يا حجي سمعة الشيخ عبد الجبار ، ونفاذ كلمته ، وخاصة وانه صاحب طريقة ، فلا بد مـن ايجاد حل له . لم ينفعل الحجي ، ولا ثارت له ثائرة كما توقـع الشيـخ عبـد الرحمن بل قال :

ـ سمعت بهذا الشيـخ ، وقيل لي بأنه تخرج حديثا من الازهر ؟.

فقال الشيـخ عبد الرحمن : هذا هو بعينه ...

ورد الحجي باللامبالاة ذاتها :

بسيطة شيخي ، لكل انسان ثمن .. وعندي موعد مع البيك في هذه المساء .. بسيطة وعلى كل حال من لا يحبنا لا نحبه ، ومن لا يشتري من عنـدنا ، لا نبيعـه ...

دعنا من هذا الشيـخ ، وخبرني كيف حال زنوبه ، وحال شقيقتها ؟

وقال الشيـخ : الحقيقة انها بحالة يرثى لها ، فقد ماتت بغلتـها وحالتها بضيـق ويمكن انها ستحضر اليـك خلال الايام القليلة المقبلة ، لتساعدها على شراء دابة ، ليستطيع زوجها متابعة العمل بالفلاحة .

قال الحجي :

ـ لقد ازعجنا هذا النبأ ، وأتمنى الا يتضرر اي فلاح ، فكيف والحال مع صديقتنا . بلغها اني سأساعدها . واشكرك لانك اخبرتني بحديث الشيـخ عبد الجبار . اما فيما يختص بالفلاحين ، فاعلم ان الاسـعار سترتفـع خلال الايام القادمة ، لان ارباح التجار الحالية لا تقوم بأودهـم وعيالهـم ، فضلا عن النفقات والمصاريف والاجور والمخاطر ...

امرنا للـه ، العالم مقبـل على الـغلاء سـلم علـى الجميـع . السايس سيرافقـك لعند الخياط . لا تعطه شيئا سوى قامتك ... مع السلامة يا شيخي .

وصل المختار . ودخل قبل مغادرة السايس فبادره الحجي بالتأهيل

والترحيب ثم اخذ المختار يعبر باستطراد عن شوقه وشوق المنطقة اليه بعد هذا الغياب . لكن الحجي وضح له ان التجارة اعمالها صعبة ، وحساباتها جارية ، ومن مرفأ الى مرفأ ، ومن بنك الى بنك ، ومن مشكلة الى مشكلة .. وانه التقى البيك في بيروت وساعده في انجاز بعض الاعمال وحل بعض المشاكل ، وانهما عادا سوية .

قال المختار :

ـ الحقيقة يا حجي انك تعمل كثيرا ، والذين اموالهم حلال ... اعمالهم متعبة . البارحة وصل السايس لعندي ، فخيرا ان شاء الله ؟.

قال الحجي :

ـ والله مشتاق لك ومضى زمان لم ارك .. وقد جلبت لك من بيروت قطعة جوخ لتخيطها قنبازا لهذا الشتاء .. كيف اخبار الفلاحين بالمنطقة الغربية ؟

قال المختار :

ـ عفوا يا حجي ، وهل احد اعرف منك بأخبار الفلاحين . انهم بحاجة الى البذار ، ولا اعرف سببا لمسك يدك عنهم في هذه الايام ، غيابك عنهم اقلق بالهم ، وعقد امورهم ، والطقس بدأ يميل للبرودة والشتاء قرب .. والبذار كما تعلم ، على العفير (١) وعندما عرفت البارحة بتشريفك حكيت في المضافة ليأتوا اليك ، وتعطيهم حاجاتهم .

قال الحجي :

ـ ارى ان ينتظر الفلاحون ثلاثة ايام اخرى .. حيث يملأ السوق بالبضائع الجديدة على الموسم ، فأنا لا اقبل ان يتسوقوا بضائعهم من سوق الخميس ، فالثياب العتيقة مليئة بالامراض وتنشر العدوى ، صحيح البضائع الجديدة غالية . ولكن الغالي ثمنه فيه .

قال المختار وهو يرشف المره (٢) الممتازة :

ـ انا اعرف ان الاشياء دوما في غلاء وقبل ان امر عليك اخبرني السمان بذلك . ولسوف اثير هذا الموضوع الليلة بالمضافة .

لكن هناك قضية لا بد ان اخبرك عنها : بقريه تل احمر ، المختار دوما يغتابني ويقول اني متواطىء معك .. في حين انا صديق لك ومحب ،

---

(١) ـ العفير : كل شيء جاف ، وهنا الارض قبل ان يضربها المطر ، فان ضربها فالبذار هناك له مساوىء كثيرة .

(٢) ـ القهوة بدون سكر .. وقد طهيت باعتناء ، وطول بال ، وطيبت بالهال .

ومساعد ومخلص ، وهو لا يفتأ يحرض الناس ضدي ، وانا باستطاعتي ان اضـــع له حدا ، ولكن فضلت ان اطلعك حتى يكون تصرفي بعلمك .

فرد عليـــه الحجي :

لا داعي لان ترد عليه انت .. سأجعل البيك يلقنه درسا في الادب ، غير الذي رباه عليـــه اهله .. خذ هذه القطعة للخياط ابو جميل ، فصلها كما يحلو لك .. وقل له ان يقيدها على حسابي . ولا تنسى ان الاسعار .. سترتفـــع ! .

ثم حضر الوكيل ، وكانت هديته عباءة وبر ، صنع العراق ، تخطـــر بها الوكيـــل فصار مثل الملك ، وافاض الحجي كيف قلب بيروت حتى حظي بهذه الفيصلية التحفة . وافاض الوكيل جاسم بأخبار الفلاحين . واعماله الباهرة في الدعاية .. ونصـــح الحجي الوكيل ، ان يمر على السمان ، ويشتري جميع ما يحتاج اليه ، فالدنيا مقبلة على غلاء ، والاسعار سترتفـــع حتمـــا .. ونهض الوكيل بعباءته شاكرا ... ومقدرا نصيحه الحجي لـــه بالشراء قبل ارتفاع الاسعار .

اعلن السائس عن وجود فلاحين ، يريدون مواجهة الحجي ، فأمره ان ينتظروا ليؤدي صلاة الظهر ، كانوا من القرى الشرقية ، قـــرى سامي بـــك ، ولم يشأ الحجي ان يسلفـــهم ، الا اذا كفلهم سامي بـــك ، ولـــم يضيعوا الوقت سدى ، وهتف له سامي بك موافقا ودعـــاه الى تيسيـــر الامور بنفس الشروط ونفس الطريقة .

كان جلال صاحب المقهى المجاور لخان الحجي وفي المقهى يلتقي كل اولئك الذين يقصدون حماه من البادية لقضاء بعض الوقت حتى تتيسيـــر اعمالهم في عمليات البيـــع والشراء ومراجعة دوائر الحكومة ويعتمـــده الحجي للدعاية له لانه عرف فيه انه محترم بين اهالي حيه وزبائنه لانه كان متنفذا فيهم وفي احد الايام طلب اليـــه عدد غير قليل منهم التوسط لدى الحجي لتسليفهم على الموسم فما كان منه الا ان زار الحجي في اليـــوم التالـــي :

عندما دخل على الحجي وبعد عملية الاستقبال والترحيب مباشـــرة قال جـــلال :

انـــت تعلم ان نزلائي اغلبهم من الفقراء ، ويشتغلون بتربية الغنـــم وتجارتها ، ورأس مال الواحد منهـــم لا يزيد على مئتي ليرة ، واكبـــر رأس مال عند اكبرهـــم لا يصل الى خمسمائـــة . يشتـــرون ويبيعـــون والمحظوظ بينهم لا يزيد ربحه اليومي ، على قوت عياله . والبارحة حضر قســـم منهم للمقهى ورجوني ان اتحدث معك بأمر تسليفهم ، وانا اكفلهـــم

٣

ان كان قد نسي تاريخ ذلك اليوم بالذات .. فانه لن ينسى احداثه الى الابد ... وقد زاد في هموم ذلك الليل الطويل ، ظنه ان احدا لن يوصل خبر مرضه الى اهله .. حاول ان ينزل من سريره ، فسقط مغشيا عليه ورأى في منامه أباه ابراهيم وهو يحمل الاغمار المكدسة ، الى العربة وبجانبه أمه فاطمة التي صرخت فجأة حية .. حية ! ورآها ابراهيم حية مرقطة حمراء ، وقد زحفت الى غمر آخر .. ورمى الغمر ، وقفز بعيدا .. ضحك العم يوسف ، الذي حضر للتو من خوف ابراهيم ، ورفس برجله الغمر الذي تمركزت تحته الحية الهاربة من حرارة الشمس ، فبان ذنبها ، فأهوى عليها بقوس التحميل فأنهاها .. وقالت فاطمة ، وهي تقيس طولها بخطاها الاربع : العمى تقتل الثور .. البارحة لسعت واحدة أصغر منها بدويا ، فما عطس ..

وشوهد البدوي ، محمولا الى رملة ، في صندوق ، وحوله كلب وامرأة سوداء .. وصراخ وقفز أرنب من تحت غمر آخر ، فقال وهو يدل أباه على الارنب الفار ، لم تسمع نصيحتي ، فتجلب معك الجفت . كنت قوسته ، سمين وشبعان كفى عيلة .. وصرخ به والده :

كنا بعناه بحماه ، بليرتين .. ورأى نفسه على البيادر يدرس ، وسقط من يد أمه سطل الشنين ، فأكل رغيفه بلا ايدام ..

ورأى البيضة تتدحرج الى صحن الضيوف ، ونظره يركض وراءها كثعلب خلف دجاجة . ولحق به البيك على فرس فهرب أمامه ولم يخلص منه حتى دخل في حلقة شوك، فأحجمت الفرس .. وتوعده البيك .

خفت حرارة الحمى في الصباح ، عندما جاءه السايس أحمد ، وقد خبر من أحد التلاميذ بالتهاب لوزتيه ، ومعه عشر حبات كينا ، أرسلها له صديق أبيه السمان علي ..

لكن السايس وقد رأى ضعفه أصر على أخذه الى الدكتور أو بنت أبي ربيعة ، الدكتورة فاطمة .

وبعد تداول متعب حول الكلفة ، وسعر الدواء .. ساعده ، على لبس ثيابه وأوصله الى غرفته ، وفحصه وكتب له وصفة على ورقة ، ما لبث أن مزقها . ونهض الى خزانة فأخرج منها قوارير ، أعطاه بعض حبوبها ، ليستعملها على مراحل .

وأمره براحة خمسة أيام ، بعد أن سأله عن قريته ، ودون أن يسأله عن اسم أبيه أعفاه من أجور الفحص .

ومرا ، خلال العودة بالخان فاستأذن السائس محمدا لحظة ، ثم

عـــاد اليه ، وهو يتنهـــد :

آه !. لو لهـــذا الخان ، آه لو له لسان .. وسمعه محمد يردد : كان أبي قبلي ســـايسا فيه . وعملت معه ، وأنـــا في الثامنة .. ويامـــا دخله من الفرنسيين والاجانب .. عشر سنوات ، ولـــم يتعب خط التلفون بينه ، وبين بـــيروت .

وأوصله الى المدرسة .. ليعود الى الخان . وانهمر المطـــر .. الطقس شديد البرودة ، وكانون الاول بداية الشتاء ، ويسميه الفلاحون هنا بكانـــون الاصم .. فالمطر ينهمر طوال اليوم مصحوبـــا برذاذ الثلج وتنخفض الحركة في الشارع مع انخفاض درجـــة الحرارة في الطقس . والبرد يحتجز الناس في البيوت أو الحوانيت وعند الغروب تقفل المخازن والدكاكين ولا تبقى سوى قهـــوة جلال التي يحتشد فيها الفـــلاحون ، يجلسون على كراسي قش صغـــيرة حول مواقـــد النار ، من مدافىء الحطب .. ويحتسون الشاي ، وتدور أحاديث عن القرى ، وعن هذا اليوم المثلج وهم ينظرون الى المطر من وراء الزجاج بعيون أرانب تشتهي رائحة العشب فيقول وأحدهم ، وهو يفرك يديه مـــا أجمل هذا اليوم ! ويريهم خيوط المطر الغزيـــر كالحبال المفتولة .. يـــا الله كم هي سنة خير ، هذه السنة ..

ويقول فـــلاح آخر :

ان هذه المطرة لا شك عظيمة ! ولكن لو ربك كملها بآذار ، يـــا سلام .. ومطـــرة مثلها بنيسان ولا يبقى للحجي فلس . وتسلم لنـــا المؤونة والبذار .

ويشتد المطر ويومض برق خـــاطف ، يتبعه صوت رعـــد عظيم . فقـــد زلزلت السماء واهتزت الارض .. ويدخل فـــلاح مبتل الى المقهى مسرعـــا وهو يقـــول :

يا جـــلال خبر الحجـــي ان الترين سيتعب هـــذه السنة ، مـــن ثقل العـــدس .

ويدلي فلاح آخر برأيه ويشير الى الشارع المحتاج اثناء قطعه الى شختوره .. ومن وراء الزجـــاج وقف فلاح يتأمل قطرات المطـــر وهي تثقب البرك ، فتتراءى له طنجرة كشك في الغليان ! . وتثير الصورة شهية رفيقه ، فيرى في الفقاعات حبوب شيش برك (١) ويقطع عاشر الحديث

---

(١) ــ اللحـــم المفروم ، وقد وضع في رقاقات من العجين ، ولفت بشكل يشـــبه الجمل البارك وتطبـــخ باللبن . ولعل اصل الاكلة : شيخ برك ! .

بقوله : بكرا التلجه للزنـــار ، لو كان الحجي صرفنا اليوم ، كنا في بيوتنا نمنا . يـــا جلال . هات شـــاي بكرا فرج ورحمة .

وهذا فـــلاح ينادي جـــلال ، ليوقد فثيابه مبلولة .. وهذا آخر ينادي يـــا قهوجي هات منقله .. ويضيف : من يلعب ؟. ويرد آخر : على شـــاي ، والحساب على البيدر ويستمر حديث الفـــلاحين طوال السهرة حتى يناموا بفرواتهم وعباءاتهم بالمقهى .

في ذلـــك المساء المـــاطر وعند الغروب ، وصل الخان ، الشيخ عبدالرحمن ومعه زنوبة وزوجها وثيابها تقطر مـــاء وهم يرتجفون مـــن البرد ، ومعهم بغلة يركبها الشيخ وأحيانا زنوبة فصرخ السايس .

يـــا الهي من جـــاء بكم في هذا اليوم العابس ؟. الميتة ابنها ، مـــا بتطلع وراءه !.

ورد الشيخ عبدالرحمن :

ـــ خرجنا من القرية والطقس بألف خير ، وأدركنا المطر في الطريق ، ان زنوبة بحـــاجة الى ثمن بغلة لان بغلتها ماتت ، وأصرت على المجيء اليوم بعـــد أن انتهى البذار وذاقت مـــا ذاقت من تعب وشقاء .

أرجو أن تقوي نـــارك لنا حتى تنشف ثيابنا .

قـــال الياس :

ـــ اهلا زنوبة قربوا على النار ، قربوا .. وشكرته زنوبـــة على معروفه قـــائلة :

ـــ لولا ضيقتنا لما أتينا اليوم ، ولكن الشيخ أصر علينا ، أن عظامي ترجف من البرد يـــا شيخي أرجو أن تقوي لنا النار حتى تجف ثيابنا .

قـــال السايس :

ـــاشربوا الشاي حتى ترتـــاحوا وتدفأوا .. اشربوا وســـأخبر الحجي حـــالا .

وطلب اليه الشيخ أن يتريث قليـــلا ، ليتدبروا أمرهم .

لكن السايس أفهمه أن الحجي ، يعرف كل شؤون الفلاحين ، ثـــم دخل على مولاه ، معلنا قـــدوم الوفـــد ..

ونظـــر الحجي ، الى السايس متعجبا ، وهو ينظر الى نـــافذة الطقس المثلج ... وقـــال له :

ـــ دع الشيخ يدخل ، ودع عندك زنوبة وزوجها . قـــوي هناك النار ، وقوي هنا المدفـــأة حتى يجلس الشيخ بجانبها .

وأهل الحجي بالشيخ عبدالرحمن الذي اعتذر عن هذا المجيء وقال:

ـ كانت الدنيا صحوا .. ولكن علمها عند ربك . لكننا رأينا وجهك بخير ، وطاب مساؤنا .. وسيطيب صباحنا ، باذن الله . وكنت حدثتك قبلا ، عن أوضاع زنوبة السيئة ، وقد ماتت بغلتها وهي تحتاج الى مساعدة ، وبعض الاغراض من المدينة لاولادها .

عندما كان الشيخ شاردا في زنوبة وبغلتها كان الحجي شاردا في أم جيسكار ، وعطورها وخمورها .. وقال :

ـ أهلا وسهلا شيخي ، كيف حال الفلاحين ، وهل انتهى البذار تماما ؟.

ورد الشيخ بالايجاب ، شاكرا فضله ، نيابة عن الفلاحين وشاكرا جدا فضيل سعادة البيك .

قال الحجي :

ـ لما تخلفت أخت زنوبة عن المجيء معها ؟.

ـ وأجابه الشيخ :

ـ كنا تكلمنا حول هذا الموضوع سابقا سوية ، ولم يتركها زوجها تحضر . وعلى كل حال ، فمجيئها بدون زنوبة ، ذات يوم يكون أفضل !.

وأمر الحجي السايس أحمد باحضار عشاء الحمص والشاي والخبز والزيتون ، لزنوبة وزوجها . والتفت الى الشيخ عارضا عليه المبيت مع زوج زنوبة بمقهى جلال ، بينما زنوبة تبيت في بيت السايس ، فذلك خير لها من الخان .

ووافق الشيخ ، حين كان البيك يطلب الحجي على الهاتف لامر ضروري ومستعجل ، فقد كان بحاجة الى عشرين ألف ليرة ، لا تحتمل تأخيرا الى الصباح ..

وعندما قال له الحجي بأن المبلغ متوفر وسيأخذه اليه حالا ، أفهمه البيك أنه لا يتحدث اليه لا من القناق ، ولا من المضافة ، وسيوفد شخصا من عنده لهذا الغرض ، وأنهى المخابرة .

وأدخل السايس زنوبة وزوجها ، فرحب بهما الحجي ، وأبدى حزنه على موت البغلة ، وكاد من أسفه وتعاطفه ، يدخل بقراءة الفاتحة !.

وشكرته زنوبة على عواطفه وضيافته .. حينما كان يخالس وجهها النظر بجماله الريفي القاسي . ويقارنه بوجه أم جيسكار الكثير الاناقة والنعومة والتطرية .

قال الحجي مخاطبا الشيخ :

— مـــا رأيك يا شيخي لو نامت زنوبة عند زوجة السايس ، وانت وزوجها عند جـــلال .

قـــال الشيخ :

— معقول جـــدا .. ونـــأتي باكرا والصباح ربـــاح . ونحن قـــد تعبنا من السفر والبرد ، وتصبحون على خير ..

ونهـــض الشيخ ، ونهض صاحب زنوبة .. حين استوقفه الحجي ، عـــارضا عليه هدية صغيرة ، هي عبارة عـــن فروة تقتل البرد ، وأبى الا أن يجربها أمـــامه ، وسر بها زوج زنوبة كثيرا « فكأن الحجي يقـــرأ حاجات الفلاحين ، قبل أن يعرضوها عليه » .

ذهب الرجلان ، وصاحب الخان منصرف الى تدقيق حسابـــاته ، ودخل عليه ســـائسه فقال له الحجي : هل ذهب الشيخ ؟

ورد السائس :

— نعم ، وزوج زنوبة . وهي لا تزال تنتظر بالغرفة وحـــدها ، قالت ، ان لها حديثا معك على انفراد ، فهل ادخلها ؟ .

وقـــال الحجي :

لا .. أنـــا ذاهب اليهـــا بنفسي ، وابق أنت هنا الى ســـماعة التلفون .. ودخل الى الغرفة حيث توجد زنوبة ، ذات الشعر الخرنوبي الطويل ، والانـــامل المقشبة والعينين العامرتين بضوء أسود اشتقـــا لونهما من الليل يحمل لها سوارين من الفضة كهدية لا تحلم بها فلاحة ، وبعـــد أن مساها بالخير ، حكى لها عن حزنه عليها ، وشـــرح لها بعض أشواقه .. فعاتبته على حبه للنوريـــات ، لكنه أخرس فمها بقبلة ، قطع طولها ، صوت السائس بالباب :

« الست على الخط !. »

وسب أخت الست ، وأم الست ، وهو يقول للسائس : مساك ديب .. وأخبرته زوجه أن العشاء جاهز ، والاولاد ينتظرون ، وأخبرها ان الاعمال كثيرة وليأكلوا ، وينـاموا .. ولا ينتظروا حضوره .

وعاد الى ملاعبة صدر زنوبة من جديد ، واطفأ النور ، وقادها الى مقعد قرب منقل الفحم ، لكن جرس الهاتف قطع هـــذه المغازلة وطـــرق السائس الباب ، كان هذه المرة الياس ، من بيروت .

وبسمل الحجي ، وحوقل ، وتعوذ ... ولم ينس ان يلعن ...

وقـــال الياس بعـــد لازمة الشحن ، وضرورة مضاعفة الجهود .. ان أم جيسكار بحاجة لمكالمة البيك ، الذي لم تجـــده لا في القناق ، ولا

في القصر .. ووعـــده الحجي بالخير ..
عاد الى غرفـــة زنوبة وأشعل النـــور، وعمد الـــى نـــزع ثيابهـــا عنها ، على الضوء .. فقـــالت :
لمـــاذا أنت مستعجل هكذا ؟. وليل الشتاء طويل ..
واعرب لها عن هواجسه من حضور أحـــد ، أو رنين جرس ..
وقـــالت له بخبرة :
قل للسائس انك لست موجـــودا ..
وبينما كان يسكتها بقبلة صرخ على الباب صاحبه ، أن البيك قادم .. ونهض الحجي مذعورا ، ومسرعـــا لاعادة اعتباره ، وهو يقول :
زنوبتي ، البسي ثيابك واطفئي النـــور ، واجلسي بدون همس حتى أعـــود ..
وردت زنوبة : لا تدع البيك يعلم بوجودي هنا .. وطمأنهـــا وهو خارج لاستقبال البيك عند بـــاب الخان .
وقال البيـــك : شرف اطلع معي ..
الى أين يا سيدي .. الى أين ؟. قالها الحجي ، وهو يكاد يدمع ..
فقال البيـــك الى بيت مدير المحطة .. التلفـــون من حماه مقطـــوع بسبب الامطار ، وانا محتاج لمكالمـــة بيروت ومن هناك .. ميسور .
واستـــدرك الحجي :
جاءت مخابرة من الياس .. وهم بحاجة اليك ..
ـــ أرأيت اذن ؟. تفضل ، قلت لـــك تفضل .
ورد الحجي مؤكـــدا :
دع ذلـــك للغد ، الدنيا لـــم تخلق بيوم واحـــد .
وقـــال البيك :
ـــ شرف يـــا حجي شرف !
مـــاذا تصنع بالخان في هذا الليل البارد .. زوجتك نـــامت وليس في الخان فلاحات ، ولا نوريات .. في بيت المدير نسهر ونسكر ، ونتحدث .. وعلى فكرة ، أين المبلغ كي لا أنساه ..
وناوله الحجي العشرين الفا وصعد الى السيارة راغما .. وبعدما سمع السائق الحوار ، دخل على زنوبة معلنا أن البيك والحجي قـــد غادرا ، وربما لا يعود الحجي قبل يومين ، عندمـــا يكون بصحبة البيك .. وسوف يصنع لها الشاي .. ويشربـــانه معا . وقـــال :
لا تخافي ، كل شيء مرتب ، ولكن يـــا زنوبة لماذا تحبين الحجي ،

وهو بعمر أبيك أنـــا من عمرك .. صحيح ليس عندي هدايا ، ولكن اية قيمة لهدايـــا الحجي ؟. كلها من التافه والسخيف . وتنهـدت زنوبة وهي ترشف :

ـــ صحيح أنت أحلى من الحجي والبيك ، ولكن الحجي يقرضني عند الحاجة ، وبلا فوائد .. في حين أخـــاف البيك ، وأخشى أن يرحلني من القريـــة ..

وعـــاد السائس الى تطمينها ، ودعاها الى طرح الخوف وسألها هل تحب أن تنام في بيته عند زوجته واستدرك :

ولكن زوجتي مـــاذا ستقول لي ؟. ومـــاذا عساني أرد اذا سألتني من هذه المـــرأة ؟. وفي هذا الليل المـــاطر ؟.

وردت زنوبـــة :

أين سانـــام اذن ؟.

قال السائس :

هنا في الخان .. أغلقه وتنامين على هذا السرير .

وأنت ؟ قالتها زنوبة وهي ترفع حاجبا ، وتنزل الاخر .

ـــ انام بفروتي وعباءتي على الحصير ، واترك المدفأة شاعلة .

قالت زنوبة والحاجبان قـــد غيرا الوضع السابق :

وان علم الحجي ، أو خبر انني نمت بالخان .. وانك نمت أيضا ؟

قـــال السائس بثقة :

ـــ لا يوجـــد سوانا بهـــذا الخان . زوجك والشيخ ، والحجي ، يعلمون أنك تبيتين عند زوجتي وفي الفجر أشعل مدفـــأة الحجي .. وأحضر الشيخ وزوجك ، من المقهى .. وان ســـأل الحجي أقول لـــه عند زوجتي .

وأغلق أحمد الباب الكبير ، واطفأ النور .. وزاد في لهيب الموقدة ..

كان البيك والحجي قـــد وصلا بيت مدير المحطة اليوناني الاصل .. ورحب بهما وبخطوتهما الكريمة ورجاهما البقاء عنده .. والسهر في بيته ، وسيكون سرور زوجته عظيما أيضا .

وقدمت الزوجة فورا ، وهي ترحب ، نبيذا معتقا يتلاءم وهذا المناخ المثلج كانت أحضرته معها آخر مرة زارت به أهلها في رومانيا ، وقالت :

هذا معد للضيوف العظام .. وهل أغلى من البيك .. والحجي ؟..

فقـــال الحجي :

ـــ يـــا سعادة البيك ، ليس لوجودي هنا ضرورة ، وانـــا أعتـــذر

لدى أعمال كثيرة في الخان ، لم أنجزها بعد ، وسأذهب بعد ذلك الى بيتي ، لأرى أولادي ..

فأجابه البيك :

ـ أقعد حجي أقعد .. والله لو أنك مرتبط بموعد مع نورية ، لما تضايقت أكثر مما يظهر عليك .. الليلة ممطرة يا رجل .. والبرد شديد . وهنا دفء وخمر ، وأنا معك ، والسيدة كما ترى .. فاهدأ .. وسوف أنقلك بعد قليل الى الخان .. اهدأ .. وأردفت زوجة المدير وهي تقدم له قدحا من المعتق :

ـ أهلا حجي ، شرف .. فبعض الخمر يفرح قلب الانسان ، من أجل خاطري ، والله ستشرب ، ورن جرس التلفون ..

وبعد أن سأل الياس عن صحة الجميع ، قال أن زوجته ترغب بمحادثة البيك الذي فهم منها أنها مسافرة وغلادس الى باريس بعد غد .

لكن البيك ، رغب اليها تأجيل السفرة ، لانه سيحضر الى بيروت بعد ايام ، وهناك برنامج لعيد رأس السنة يعده ولا بد من تنفيذه ، ولو فيما أبعد من باريس .. وبعدما تبادل الجميع السماعة انتهت الى الياس والحجي ، وضرورة مضاعفة الشحن !. واستمر عشاء هذا الليل العاصف الى آذان الفجر .

لقد ثمل المدير ونام ، ونام الحجي على مقعده بعدما ثمل هو الاخر .. وفي الصباح عاد الحجي ، بسيارة البيك الى خانه وودعه الى لقاء في المساء ..

وقدم السايس لمعلمه القهوة المرة ، والوقائع كأنه يتلوها من كتاب .

نامت زنوبة عند زوجتي ، ونمت أنا في الخان ، وفي الصباح الباكر أحضرتها كما أحضرت زوجها والشيخ وأكلوا شعيبيات وأخبرتهم بانشغالك مع البيك ، واعطيت زوجها مبلغ الخمسماية ليرة ، وهدايا ... البن والسكر ، ووقع على هذا السند بالالف ليرة وقالت زنوبة أن المبلغ لا يكفي وستعود مرة أخرى .. ثم ذهب الجميع حامدين شاكرين .

أثنى المعلم على عمل خادمه وأوصاه أن عادت زنوبة في ذلك اليوم فليأمرها بالعودة في أواخر شباط . وكل الامور ستكون جاهزة .

وانصرف الحجي ، الى حمام السوق ، ومنه غادر الى المحطة ، للاشراف على أعمال الشحن حيث قابل مصطفى شيخ العتالة ، واستفسر عن سير العمل ، قال مصطفى :

العمل ، يا حجي على ما يرام ، والحمال الواحد يعبي مقطورة

كاملة بمعدل ٢٠٠ شوال في اليوم الواحد ، ببدل فرنك واحد ، عن كل شوال واحد .

اعترض الحجي :

ـ ولماذا لا يعبي الواحد ثلاثمائة ، بسعر اربعة قروش ، فيربح اكثر ؟.

ورد مصطفى :

الحمال يا حجي انسان يتعب ويحتاج الى غذاء ومع ذلك سأعرض عليهم مبدأ تخفيض القرش الواحد ..

في هذه الاثناء مرت زوجة مدير المحطة ، في طريقها الى منزلها ، وهي تتخطر بقامتها ودلالها وجمالها ، فأطلق حمال اخر اسمه خالد ، صفرة استحسان ، وقال لرفيقه سطوف :

اشرب مرقة . أما اللحم فهو من حصة الحجي والبيك !

والتفتت زوجة المدير اليه :

مع من تتحدث ، وماذا تصنع هنا قرب المنزل ؟.

ورد خالد الحمال العرمرمي :

ـ صباح الخير مدموزيل ! أنا حمال عند الحجي ، وعطشت ، وماسورة المياه هناك معطلة والنافورة هنا ما شاء الله ، اشرب واذهب ..

وردت زوجة المدير بسرعة :

ـ اذهب من هنا بسرعة ، والا طردتك من كل هذه المحطة .

فأجاب خالد وقد بدا عليه أثر الارتباك ، والانهماك معا :

تحت أمرك ستي ، أنا ماشي ، شربة ماء ، ما خربت الدنيا .. ان شئت حملت لك مقطورة ، صحيح فقير .. ولكنني أستطيع رفع البيك والحجي معا .. ولما رأى الحجي مقبلا اردف :

ـ نحن فقراء ، الله مع الفقير ، نحن نأكل خبزنا بعرق الجبين ، والحلال .. وبادر الحجي المدام بصباح الخير . لكنها لم ترد وقالت

ـ أرجو يا حجي الا يقرب أي عتال من بيتي .. ما هذه الاشكال المقرفة ؟.

وبسط الحجي الامور ، كعادته واعتذر اليها ، والتفت الى مصطفى شيخ العتالة قائلا :

ـ من هو هذا الثقيل الذي يتغالظ على المدام ؟. اسمع مصطفى ، كل عتال لا يلتزم بالادب يمشي من هنا فورا .. تكفينا متاعبنا .

وقـــال مصطفى ، وهو يهم وراء خـــالد :

ـــ اترك لي الامر يـــا حجي ، انني سأحل هذه المواضيع بنفسي ، وعندمـــا صار وراء خالد صرخ به :

ـــ لماذا تتغالظ على زوجة المـــدير ، مرة ثانية لن ارى وجهك قرب هذا البيت اتفهـــم والا لن ارى وجهك في كل هذه المحطة تفضل حمل المقطورة العـــاشرة .

فقال خالـــد :

ـــ اي غـــلاظة تتحدث عنها انت .. والله اطيب من بلوريـــة .. اقسم بالله ، مـــا نظرت اليها مرة الا وانحل ظهـــري .. هذه مرة ولا نمورة (١) ؟. يقصف عمر الحجي والبيك دائما أكل عسل ، ونحـــن على البصل يـــا حسرة !.

فقـــال مصطفى :

ـــ اخفض صوتك خالد ، والا يسمع الحجي هذا الكـــلام .. وعليك ان تسرع الى العمل ..

وهنا رفع خـــالد صوته :

ـــ حجي ! لا بد من زيـــادة الاجور ، وان لـــم تفعل ، فعلى الاقل ديك مشوي لكل حمـــال .. قسما برب العباد ، انكسر ظهري ، مـــن طلوع الفجر : احمل حط ، ارفع ، شيل هات ظهـــرك .. خـــذ عني .. شوال وراء شوال .. مئتان باليـــوم ..

والاكل خبز حـــاف ؟. لا بد من جعل اجرة الشوال ستة قروش .. لا بد .. بلا حفلة مع الست ويصير كل الحمالين اولاد نـــاس ..

ولم يرد الحجي بل قـــال لمصطفى :

ـــ لا ارغب بوجود هذا هنا ، لانه ثرثار ، وكل ثرثار لا يعمـــل ... مـــاذا يحمل باليوم الواحـــد ؟.

فأجـــاب مصطفى :

ـــ يحمل مقطورة كاملة ثلاثمائة شوال لو أراد ..

ورد الحجي :

خمس عشرة ليرة باليوم ، معاش نائب .

وقال مصطفى : طبعا خمس عشرة ليرة .. هذه هي التسعيرة .

ورد الحجي :

---

(١) ـــ أكلة حلوى من السميد والسكر والسمن .

لا بد من تخفيض الاسعـــار ، ولا أحب أن أسمع ثرثرة بالمحطة ، ولا أحـــد يمر من قرب منزل المـــدير ..

قـــال مصطفى :

ـــ أرجو يـــا حجي أن تـــأخذ الامـــور ببساطة ، وخـــالد طيب القلب .. والى خـــالد :

يـــالله .. كما قلت لـــك خلص المقطورة ..

فرد خـــالد :

ولكن لا بـــد من زيـــادة الاجور ، وبعد هذا مـــاذا عملت حتى خربت الدنيا .. شربت ماء من الحنفية أنا لم أشرب لا عرقا ولا نبيذا .. نحن مثلك بشر يـــا حجي ، وكما خلق الله المدموزيل خلقنا أيضا .

فقـــال مصطفى :

ـــ اسمع خـــالد .. افرط هذا الموضوع ، وكفى ثرثرة ، وكلامـــا فارغـــا ..

وتـــابع خالـــد :

ـــ أنا سكت ، ولكن المدموزيل استمرت بشتمي واهانتي ، وهددتني بالبيك والحجي وانا احترم سعادة البيك واقدره ، ولكن طفـــح الكيل ... فـــان كانت المدموزيل جميلة فهل من الضروري أن يشتم خـــالد ويهان ؟. قل للحجي .. قل لـــه يرفع الاســـعار !.

وقال الحجي :

ـــ اسمع مصطفى .. اصرف خالد فورا ، انا لا ارغب ، ولا اريـــد ان اسمع كلمة زيادة الاسعار ، انا سأخفض الاسعار ، وكلمة زيادة تعني تحريض العمال ، وانت تفهم ماذا يعني التحريض ...

فقال مصطفى :

ـــ لن تسمع كلمة زيادة بعد اليوم ... وامثال خالد قلائل .. تصور ثلاثماية شوال باليوم يستطيع ان يكنس المحطة بساعات ...

وقال الحجي : ارجو الا يسمع البيك بشيء مما حصل اليوم ، والـــى المـــدام :

ـــ بسيطة مدام ازرعيها بذقني .

والى مصطفى :

ـــ اسمع مصطفى قل للسايس عندما تعود اليوم للبلد كي يجلـــب للمدام علبـــة لبن وجاط قشطه .. وجاط زبده .

واخذ مصطفى خالدا بطريقه ومشى به وهو يقول لـــه :

ـ لقد زادت الامور كثيرا عن حدها ...

ورد خالـد :

ـ آه يا مصطفى ، من اجل شربة ماء خربوا الدنيا .. اقسم بالله لـولا الثمانية بدون غذاء وكساء ولولا الختيار ، والختيارة ، ولوما خفت ان تقول خالد جن ، لضربتها بهذا الشنكل وعقدت بها الحجي ، وسطحتها في الفركون ، وفوقهما شوال .. وارسلتهما الى الياس الكبير ، ليشحنهم الى جهنـم ، ولعنـة السماء والارض على هذا الحجي الذي يحمل كل ليلـة المنشفة ... للبيك ؟ ونحن لا نستطيع ان نحمل لزوجاتنا ثوبا من سوق الخيـش .

لا تواخذني مصطفى ، سأشرب من غير جهة . ولو شربت من عرقي فلن اقرب بيتها . العمى .. ريحة عرق البيك تجعـلها مـثل الحـمارة الهائجة .. ونحن لا نستطيـع ان نغسل عرقنا بحنفية الماء السائبة امام بيتهـا .. يا ظالم لك يوم ..

انهى الحجي الشحن بأسبوع واحد ، وخابر الياس انه والبيك غدا في بيروت مع عقارب الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر ...

وفعلا انزل الحجي وخادمه الهدايا من سيارة البيك وفيها غزالتـان وعباءات مقصبة من المخمل الاحمر ... ونارجيلة عليها صور ملونـة ، للمـلوك من فارس .

ورحبت ام جيسكار ونقلت للبيـك اعجاب بنتها غلادس المستمر بذوقه العظيـم ، فهي على ما تعرف من رجال في الشرق والغرب ، فان البيك أميرهـم ...

وسأل الحجي عن الياس فقيل له انه سيكون بينهم بعد دقائق .. وحضر الياس فعانق وقبل وقال :

ـ ينبغي الا نضيـع وقتا سدى .. فقد اقترحت غلادس ان نمضي عطلة رأس السنة في باريس ، وكما علمت فان ذلك رغبة البيك ايضا .. فما رأيكـم ؟ .

ودخلت غلادس ، وهي تقول : وهل الراي الحميد يحتاج لمشورة .. وسلمت على البيك والحجي ، وهي تطري ذوقه الكبير ، وجـمال هداياه القيمـة .

بهـت الحجي ، من تلاحـق الاحداث والاخبار فقال البيـك :

ـ انا موافق على رحلة باريس ، والمتردد بينكم اجعل مشواره على حسابي . طبعا الحجي موافق ! .

وقال الرجل الحبـوب :

ـ لا بأس ، ولكن يجب ان نعرف شيئا عن التكاليف ..

ورد البيـــك :

بكره الموت .. فدعنا الان من المال . رحلة باريس معنا جميعـــا لا تفوت ، وعلى الياس ان يتحرك بسرعة ...

وطلب الياس واحدا من عملاء النقل البحري ، يسأله عـــن موعد انطلاق الباخرة ماري انطوانيت الى مرسيليا ، ويطلب منه الحجز لخمسة اشخاص ، واستفسر المخاطب عن رقم هاتفه واستمهل ربع ساعـــة ، ليقول لـــه :

خواجه الباخرة تقلع بعد غد ، وعليها غرفتان فقط جاهزتان ..

وقال الياس : غرفتان فقـــط ؟ .

وسمعت غلادس فقالت :

موافقون .. انا والبيك والحجي بغرفة ، وبابا وماما في الثانية ، وكلها اربعة ايام ... وطلب الياس من مخاطبه ان يحجز له لخمســـة اشخاص في الغرفتين . وانه سيرسل سائقه ومعه المال ، ليستلم البطاقات والتعليمات والموعد . وابرق الياس الى فندق السان جورج في الشانزليزيه، يحجز خمس غرف ، والى ملهى الشهرزاد يحجز طاولة ، لعشرة اشخاص علـــى الاقـــل ..

ونزلت ام جيسكار وغلادس والبيك الى اسواق بيـــروت ، لشراء بعض الهدايا لاصحاب لهم في باريس وانتقت غلادس فستانا بيروتيـــا ، يتناسب ورأس السنة الباريسية ، كما اشترى البيك فستانا لامها وعادوا الى البيـــت ، وعاد الحجي الى سؤال البيك عن تكاليف الرحلة التي تحير في ارتجالها ، وان كانت في ذهن البيك وغلادس غير مرتجلة ، قـــال البيـــك :

ـ لقد انتهت الجوازات ، وتقررت الرحلة ، انه مشوار من العمر . انا اعرف باريس ، اما انت فهذه فرصتك الوحيدة ، وخصوصا لانك معي .. خلصنا يا رجل من الحسابات .

سكت الحجي ، وهو يهدس ، فقد تعود ان يقضي رأس السنة فـــي بيروت ، فبيروت حدوده التجارية ، وبيروت سقف معرفته وطموحه .. اما باريس فليست في احلامه ... ترى كم تكلف الرحلة .. وهل الدعوة فعلا على حساب البيـــك ، ووجه سؤاله هذه المرة الى الياس :

ـ كـــم تكلف هذه الرحلة لنا جميعا ؟

فأجاب الياس :

ـ والله يا حجي بالضبط ، لا ادري ... اجرة الفندق ، والطعـــام

وسهرة راس السنة ؟ امور معقولة وخمسة عشر يوما في باريس ، لا تقطع الظهر .. الا اذا لعبتم ، وعلى كل حال سأحاول ان اجنبكم مناطق القمار ، وخصوصا كازينو نوجان ، اما مناطق دوفيل والكوت دازور ، فالبيك محمي منها بحكم البعد .

ـ فقال الحجي :

ـ ولكن ليس معنا نقود تكفي هذه الرحلة الان .

فقال الياس :

ـ ماذا تقول يا رجل ؟ انت شريكنا واخونا ، وتستطيع ان تسحب من هنا المبلغ الذي تريده ، كما ان البنك هناك في باريس تحت امرك هذا الامر لا تفكر به ابدا ، وعلينا ان نراجع بهذا الوقت المقتول جزءا من حساباتنا ، ونتحدث بعيدين عن الامور العائلية .

ونهضا الى غرفة المكتب في البيت ، وهناك نشر الحجي دفاتر حساباته والفواتير وقال مدققا :

ـ ارسلت لي مبلغ خمسة ملايين سلفتها جميعا لنهاية الموسم ، وتركت بالسوق سيولة مستمرة قرابة مليون ، والقيمة النقدية المحتملة العودة عشرة ملايين الى اثني عشر مليونا .. وذلك بعد حذف راس المال . لسعادة البيك ١٨ ٪ وباقي الارباح مثالثة : للبنك الثلث ولكل منا الثلث .

وقال الياس :

انا ادرك جيدا ، ان كل الحسابات دقيقة ، سواء عندك او عندي .

فأردف الحجي :

ـ لكن مسألة هامة يا خواجه الياس ، لا بد من ذكرها :

سوف استبدل بأموالي المجمدة سبائك ذهبية ، ولن ادع في البنك سوى القليل فان فوائد ٣ او ٤ بالمئة لا تعني لي شيئا فالقرش يجب ان يجر اخاه ، واثنين في السنة .

ووافق الياس ، وعاد الى الحديث معه عن فوائد الرحلة وهناك سوف يعرفه على شركائه ، وخصوصا علي سايكس ، ويزورون مطاحن الحبوب ومحطات الابقار وكل معالم الزراعة الحديثة ..

قال الحجي : انا موافق ، ولكن البيك ..

ـ ورد الياس : دعها علي ...

ومال عليه فقال له شيئا رجاه ان يبقى سرا ، ويكون بمثابة مفاجأة للبيك فهناك رحلة دبرها له برفقة ام جيسكار وغلادس خارج فرنسا .. وهم يستطيعون خلال غياب البيك ان يدخلوا بأعماق

الحسابات والاتفاقات ، والعقود ..

كان على الباخرة المسافرة كثيرون منهم من سينزل في اليونان ، واخرون في ايطاليا ، واكثرهم لقضاء عطلة رأس السنة في فرنسا ..

وكان البيك قد سافر قبلها بالبحر اما الحجي فكانت أول مرة . وسرعان ما اصابه دوار البحر فأعطي منوما ونام بعمق ، وصعد البيك وغلادس الى سطح السفينة وما تحدثا عن جمال البحر ، ولا عن طيور السماء الحزينة وانما عن نوم الحجي فقد اكدت غلادس لصاحبها ان نومه قد يطول ، فلا يفيق الا في مرسيليا كما اكدت له مرة جديدة انها رحلة العمر .

وفي صباح اليوم التالي نهض البيك مبكرا وصعد الى ظهر السفينة حيث كانت ام جيسكار تلعب الشطرنج مع زوجها الياس ، وبعد ان استفسروا عن صحة الحجي النائم ... قال الياس :

بعد رأس السنة نظمت رحلة لسعادتك الى الشمال .. حيث اجمل بلاد العالم ، انت وام جيسكار ، وغلادس ، ويكون بين يديك مرافق من البنك .. واثناء غيابكم نصفي مع الحجي والسيد سايكس اغلب الحسابات .

وارتاحت ام جيسكار للفكرة ، لكنها خافت مغبة البرد الشديد ، ورد الياس ضاحكا : وهل انتم ستقفون في البرد . ستتفرجون عليه من خلف الزجاج فقط ، والى البيك :

ما رأي سعادتك ؟

وافق البيك على المبدأ ، بعد اخذ رأي غلادس ، واثنى على برامج الياس ، الذي رد عليه شكره العظيم ، لانه لولا جهوده لما سارت اعمالهم ، وفق المرام ...

ونهضت ام جيسكار لتوقظ بنتها ، وقد عادتا وغلادس تشكو وجعا في الرأس ، وداواها البيك بالبيرة وعرض عليها فكرة الرحلة ، فوافقت مع لكن ...

وقال البيك حاسما :

لكن ماذا ؟ الرحلة على نفقتي ، وابوك هو الذي وضع البرنامج ، وسيبقى مع الحجي في باريس لتصفية الحسابات .

وافقت الانسة .

وفي اليوم الثالث تغير الطقس قليلا ، ثم تغير كثيرا وصعدت شفاه الموج العالي تقبل سطوح الباخرة الخافقة كقلوب راكبيها .

وأمر القبطان الركاب بملازمة الغرف ، واقفل البار ، وتوقفت اعمال

الراقصين ، اما الحجي فقد كان كالمخدر ، واخبرته غلادس ، فذعر ذعرا شديدا ، وبدا بتلاوة اية الكرسي وايات اخرى من القرآن ، وخاف البيك . وشجعته غلادس ، معلنة أن مثل هذا الطقس يحدث في اكثر السنين وانها ساعات ويخرجون من هذه المنطقة المحنة ... وقضوا الليلة الثالثة ساهرين وفي صباح اليوم الرابع تحسنت الحال .. ووصلوا مرسيليا ، واستقلوا القطار الى باريس ، حيث كان مدير بنك فرنسا السيد سايكس ، وابنته غولدا ، من زوجته الاولى المتوفاة بالانتظار . في بهو المحطة تعارف القوم ، وتأهل سايكس بأم جيسكار تأهيلا حارا والى ابنتها غلادس ... اهلا بجميلة حسناوات الشرق .

وقدم الياس البيك :

صديقنا سعادة صبحي بك ، الذي يملك المزارع والقرى ، هو واهله واقرباؤه وانسباؤه واصدقاؤه ، وهم الذين يحكمون سورية .

وقدم الحجي بقوله :

ـ اقدم لكم ادهى دهاة التجار والربح السريع في كل العالم العربي . وعاد سايكس الى الترحيب وقدم لهم ابنته غولدا ، والياس يترجم :

ابنة عمري ، وحاملة تراث امها ... وكيلة اعمالي ، ويدي وعيني ، ويسرني انها تتقن العربية .

وقالت غولدا بعربية عريقة :

ـ لقد شرفتونا ـ سعادتكم ، وستتاح لنا بوجودكم فرص جميلة . واهلا بصبيتنا الحلوة ووالديها الشابين ...

وقال الحجي :

ـ شكرا لك يا انسة ، شكرا لك انت ، واين تعلمت العربية ؟

وردت غولدا :

ـ في الرباط عند خالتي درستها هناك ثلاث سنوات . وعند عمتي في تونس امضيت في مدارسها سنتين ايضا .. وعلى كل حال ، فأهلي من شرق اوروبا، وقد هاجرنا الى فرنسا في اواخر القرن التاسع عشر .

ـ غولدا ستبقى معكم طوال مدة نزولكم علينا ، ستنزلون في فندق

قال سايكس :

السان جورج ، « والريفيون » في الشهرزاد .. وان لم تكن راحتكم كما تأملون ، فلدينا فيلات جميلات في ضواحي باريس ، تنتظر منكم اشارة.

وعلى كل حال ، فخبرة ام جيسكار ، والياس في باريس ، وخصوصا الحسناء غلادس كافية .

قال صبحي بك ، وغلادس تترجم :

اشكركم على كل ما تفضلتم به وارجو ان تثمر زيارتنا مزيدا من التعاون بيننا في كل المجالات التي تعملون بها ، والياس والحجي ادرى مني بهذه الاعمال . .

واخذت الحقائب مواضعها من سيارتين ، امتطى احداهما الحجي وغولدا والياس ، وفي الثانية الاربعة الباقون .

وعلى طاولة في احدى قاعات الفندق الكبير ، تناولوا طعاما خفيفا ، وقالت غولدا ان وجه الحجي ، يوحي بسن صغيرة ، فهل قطعت يا حجي الاربعين ؟ .

قال الحجي :

ـ وهل تعيشين معي في حماه حتى عرفت عمري بهذه الدقة . . قولي لي هل انت عازبة .

طبعا عازبة لانه لم يعجبني احد في اوروبا ، وسأزور الشرق فما رأيك برجل شرقي ؟ .

قال الياس :

ـ انا اعرف مقدرتك وحسن التصرف ويزيد في اعجابي سعة الاطلاع .

هنا ودعهم سايكس قائلا :

ـ سوف نلتقي عند انتهاء الزيارة لتقييم بعض الاعمال ، وستبقى غولدا بالفندق وقد حجزت لها غرفة بجانب غرفة الحجي واالى اللقاء .

وقبل ان تنصرف غولدا الى غرفتها رجاها الياس الاعتناء بالحجي العظيم . .

وفي صباح ٣١ كانون الاول ، استفاق الجميع على احسن حال ، وقالت غولدا لا بد ايها الاصدقاء ان اعرض عليكم برنامج الزيارة وانا كصديقة لكم سأرافقكم بكاملها وسوف اكون رفيقة الحجي الذي لا يعرف الفرنسية ، والبرنامج هو التالي :

اليوم من الساعة ١ ـ ١٤ ، جولة في المدينة وحدائقها بالسيارة ومشي على الاقدام ، ونستريح بعد الغداء ، استعدادا « لريفيون » العام الجديد .

اما غدا فتنامون الى الظهر ، وبعد الغداء جولة في المدينة والعشاء في مطعم فلمنكو . وبعد غد نزور الشانزليزيه ، وقوس النصر وبرج ايفل ونتغدى في البرج نفسه على السين وفي المساء نحضر ستريبتيزات ، في البيغال .

وفي اليوم الرابع الحجي والياس يبقيان هنا ، من اجل بعض الاعمال التجارية والزراعية وزيارة المطاحن ، والمداجن ومحطات تربية الابقار ، وسأكون انا معهما . اما البيك وغلادس وام جيسكار وشخص اخر فسيذهبون الى السويد .. فان وافقتم على هذا البرنامج فقولوا .

وهتفت غلادس :

ـ برنامج هائل ، انا موافقة .

ووافق الجميع باستثناء الياس الذي اعتذر عن بعض اجزاء البرنامج بسبب بعض الزيارات التي سيقوم بها ، وبعض اشغاله مع السيد سايكس ..

اما الحجي فكان لا يزال يهدس ، ما معنى ستربتيزات البيغال ، ولم يكتمها فسأل البيك عن معناها ؟ واجابه هذا :

ـ ستعرف ذلك في حينه ! .

قالت ام جيسكار :

ـ برنامجكم متعب .. ولم تفسحوا لي به لمحة ، لاعرج على صائغ صديق فنان ، كنت اوصيته على عقد لي بمناسبة العيد .. ولا بد من المرور عليه !.

وهتف البيك :

اثناء الجولة نمر به ، وتأخذين عقدك .

ـ قالت غلادس :

وانا كنت اوصيته على سوار وخاتم وعقد .

وقالت غولدا :

ـ كما قال البيك ، نمر به ونتفرج على بضاعته .. والمفروض ان يقدم كل شخص الى من يهواه هدية رأس السنة .. هذا تقليد ، لا يخرج عنه ..

واثنى البيك على كلامها ..

ـ غولدا ، كلها ذوق ، وخبرة .. وتابع مازحا :

ويبدو لي انها عشقت الحجي .

وردت غولدا :

ـ والحجي ايضا كله ذوق ، وخبرة . وانا احب هذا النوع من الرجال المتزنين بأعمالهم وتصرفاتهم ... وخصوصا الهادئين ، البعيدين عن الانفعال ، والذين لا يسقطون في الهوى الا في الوقت اللازم .

كانت السيارة الفخمة المعدة لاكثر من ستة اشخاص ، بالانتظار وانسابت بهم وغولدا تجلس بجانب الحجي ، والياس بجانب السائق وام جيسكار وغلادس ، والبيك ، في المقعد الاخير .. وبدأت غولدا تشرح ... كانت دليلا ... لا يجارى ..

في هذه الساحة استعرض نابوليون جنوده الى الالب ، مترسما خطي هانيبال ومتحديا له .

ومن تحت هذا القوس مرت جيوشه الى الشرق.

هذه المسلة اتى بها من مصر ...

في هذه الساحة اعدم روبسبير ، ودانتون ..

هذا هو سجن الباستيل .

هذا هو السين .

هذا متحف اللوفر .. الذي يضم روائع العصور .

هذا هو التويليري الذي كان به كذا ...

اما الحجي فقد كان مذهولا ومندهشا كالصبي الغربي وقد فوجيء بمنظر الجمل .. وكانت دهشته تزداد من حين الى آخر ، كلما لمح شابا يعانق فتاة ... او يده في صدرها على مقعد او اخر يحضن اخرى ، على سن الرمح ..

ومر بذهنه شريط زنوبه ، ونوفه ، والفلاحات ، والنوريات وتمتم :

ـ سترك يا رب الارباب . ما هذا سعادة البيك ... باريس دوختني ، والتفت الى غولدا فمالت بصدرها عليه فاحمر ، وابتسمت له ابتسامة اعادته الى سن العشرين وفي احد شوارع باريس توقف السائق مشيرا الى حانوت الصائغ المطلوب ...

قالت غولدا :

ـ شرفوا ، وشاهدوا ما يعجبكم ..

ونزلوا جميعهم ، ودار حديث بين « الجواهرجي » وام جيسكار ، وخرج الياس الى الرصيف يتمشى رغم البرد الشديد وتابع الاخرون النظر في الحلي والمجوهرات .. وكانت أم جيسكار تناقش صاحبها بعصبية حول الاسعار ، ولكن التاجر اصر على سعر محدد :

ـ عقدك يا مدام باربعين الف فرنك وكرمالتشريفك من لبنان ، ولانك زبونه دائمة سأخفض السعر الى سبعة وثلاثين الفا .. قولا واحدا ...

ودخلت غولدا على الحديث :

ـ بسبعة وثلاثين مدام ، انتم بصحبة البيك ، ويدور الحديث على الف او الفين فرنك ؟ .

ودخل البيك فورا في الخط :

يا ستي عقدك هدية مني .. وكل ما اوصت به غلادس ايضا .. ونادى على الياس الذي كان يتمشى على الرصيف ، رغم الرذاذ الخفيف ، فطلب منه شكا بالمبلغ على ان يدفعه له بالعملة السورية عندما يعودون الى لبنان ، وان يسجل هدايا ام جيسكار ، وغلادس على حسابه الشخصي .

وهجس الحجي في سره ، وتحرك :

ـ يا ساتر يا رب .. مئة الف ليرة سورية يعقل هذا .

وتحركت عقيرة الحجي البخيل وحرصه الشديد متابعا تمتمته مئة فلاح لا يقدر على تسديدها ، البيك كريم ومتسلاف ، لا بد من لفت انتباهه ، حتى لا يستغل .. استفاق الحجي من هواجسه على صوت البيك يقول :

ـ على الحجي ان يقدم هدية لغولدا ، فاليوم راس السنة ، وهي ترافقه وتترجم له في النهار وفي الليل ايضا . ثم اردف :

ـ عيب عليك يا حجي ، بل عار .. ترافقنا ، وتترجم لنا وتسهر معنا ، ولا تقدم لها هدية لائقة ؟ . ونادى على الياس ، وبلهجة الامر :

ـ سجل على حساب الحجي ثمن اية هدية تختارها غولدا ، من هذا الحانوت ، حيث لا نملك نقودا فرنسية ، وسجل جميع الفواتير ، ونحن نحاسب البنك والبنك يحاسبنا في بيروت عند العودة .

والتفت الياس الى غولدا قائلا :

ـ سمعت ما قاله البيك ؟

وردت غولدا :

ـ سمعت ، وشكر له على اريحيته ، وقد قدم هدايا لغلادس لانه يحبها ، ومن اجلها قدم ايضا لامها ... وانا حسب خبرتي فالحجي رجل كريم ، ولكن ليلة واحدة لا تكفي لاعرفه ، ويعرفني اكثر ...

وكان الحجي يسمع ما يدور ، ويحاول ان يحلل ، والفى نفسه يقول :

ـ لا يا انسة غولدا ، لا ... برغم انها ليلة فكأنك تعرفينني من دهر .. تفضلي وانتقي هدية ، سعادة البيك يرغب هكذا .. وشكرته غولدا ، والى الصائغ بلغة فرنسية دقيقة جدا :

ـ اغلى ما عندك ... وارسل الفاتورة على بنك فرنسا والشرق

في باريس . وبعد ان عرض عليها الصائغ مجموعة اختارت من بينهـا عقدا .. وحرر فاتورة عليها جميع التفاصيل ، وانها هدية الحجي الى غولدا ، بعيد رأس السنة . وقبلت غولدا الحجي ، وشكرته ، وقالت لـه :

أنت رجل كريم :

وصفرت كلادس لجمال العقد ، ـ ولا سيما بعد ان لمحت رقـم المئتين وخمسين وقاطعتها غولدا بالعربية :

ـ انه عقد من الدرجة الثانية ، ويوجد احسن منه في هذا الحانوت نفسه . وبقيت غلادس تتابع بنفس اللهجة :

ـ مبروك عليك ، انت تعيشين الحجي بحلم ، انما نرجو الا تقولي له عن السعر حتى نعود الى بيروت ويعلم هو ذلك بنفسه من البنك .

وردت غولدا :

ـ ولكن يـا عزيزتي ليس هو الاول وليس هـو الاخير ، بعض الباشوات من مصر يدفعون المليـون ... تفضلوا الـى السيارة .. تفضـلوا ! .

عادت السيارة الـى انطلاقها في الشوارع الباردة وثلج خفيف جدا يغطي رؤوس الاشجار والناس لحظة الغروب تسرع في الحركة يزيد في حيويتهم واهتمامهم ليلة العيد ، واقتراب ساعة الصفر ..

تابعت غولدا متابـعة الشرح ، هـنا القصـر الملكي الفلانـي ، وهذه تخريبات الحرب الاولى لم تصلح بعد ، وهذه كذا ، وهذه كيت .. والتفت الحجي الى البيك ، ليقول :

ـ كم هي جميلة هذه المدينة الا ترى الناس كيف يقبلـون بعضهـم علنا ويحتضنون .. ولا تتدخل الشرطة .

قال البيك :

ـ هذه عاداتهم وتقاليدهم ، ولا دخل لنا نحن بها ، وغدا نعود وتعود حضرتك الى نوفه وخلود وزنوبه .. والبقية !.

قال الحجي :

ـ سعادة البيك ، كم ثمن هدية الانسة غولدا ؟.

أجاب البيك :

ـ لم اقرأ الفاتورة ، وهي ليست مشكلة ، ونحن لن نزور باريس كل يوم انها رحلة قصيرة ، واسمها مع ذلك رحلة العمر ، وكما اعتقد لن تعيدها بعمرك ...

وبقي الحجي على اصراره :

ـــ ولكن يا سعادة البيك علينا ان نعرف كم ثمن الهدايا ...

وبقي البيك على وضوحه :

ـــ يا حجي الذي رغبته اخذته ! فجهز نفسك اليوم لسهرة رأس السنة . ودخل الجميع الى غرفهم في الفندق . ودخلت غولدا الى غرفة الحجي ، وطلبت اليه ان يخلد فورا للراحة ، ويستعد للسهر ، وانه يجب ان يكون بحالة جيدة .. وشكرته على هديته وضمته الى صدرها وقبلته .

فقال لها :

آنسة غولدا : هل لي ان اعرف ثمن العقد الذي ارجو ان يكون قد اعجب حلاوتك وذكاءك ، والذي تستأهلين ، اكثر منه بكثير ..

وردت غولدا :

ـــ ارجوك ان تصدق بأنني لا اعرف الثمن فالصائغ صاحبنا من زمان ؟ وقد اعتاد ان يحرر الفواتير بالاشياء التي اشتريها او تأتيني من الكبار ، ويرسلها الى البنك .. وعندما ارى والدي ... او اذهب الى البنك بعد عطلة رأس السنة سأعرف .. لكن يا حجي علينا الان ان نهتم باستقبال العام الجديد ، ونسهر الليل الذي لا غيره في العمر ومالت عليه بقبلة جديدة ... ثم عادت الى القول :

ـــ هذه الليلة يؤم باريس اغلب اغنياء العالم ، وكباره ، وقادته ليقضوها مع عشيقاتهم ويدخلوا العام الجديد ببهجة الفرح الحقيقي . وقد أصر والدي والياس ان ابقى معك ، لانك رجل محترم وخصوصا في عيون عائلة الياس .. انا ذاهبة الى من يصفف لي شعري ، استعدادا للسهرة ولك ، وعليك ان ترتاح حتى اعود ، وهذه سلفة حتى اعود ... قالتها وهي تطبع على وجهه المذهول قبلة جديدة .

وودعته وكر شريط حماه بذهنه : الفلاحات والنوريات ، والخان ، والغرف المظلمة والتحسب ، ووضع الخطط ، ولاقاه شريط باريس : الشباب والفتيات والقبل في الشوارع وتحت الثلج والشجر ... وحلاق النساء يا رب ، يا باريس يا ستار .. يا حماه .. حماك الله . واغمض عينيه وهو يتصور ويصور ، ويكبر ويصغر ، وحاول ان يغمض عينيه ولكن من اين له النوم وحبل العقد ، كحبل المشنقة .. ودارت به الاسداس بالاخماس ، واخيرا غلبه النوم .. فشخر ..

كانت غلادس ، قد دخلت هي الاخرى الى غرفة البيك ، لتعتذر له ايضا عن غيابها لحظات عند الحلاق استعدادا للسهرة ، ولسعادة

البيك ...

وفي الطريق سألت ام جيسكار ، غولدا ..

هل اعجبك الحجي يا آنسة غولدا ...

وقالت غـــولدا :

ارجو الا يعرف شيئا عن الفاتورة ، قبل عودته الى بيروت .. هناك يلقاها ، ويلقى غيرها .

وقالت غلادس :

وهل هناك غيرها ؟ .

وردت غولـــدا :

كل هدية جديدة لك نصفها يا حلوة .. فما رأيك يا أم جيسكار ؟ .

وردت الام :

غلادس تحبك ، وانت تحبينها ، وعليها ان تدعوك لزيارة الشرق في الصيف ، وانا شخصيا ادعوك لتمضية شهر كامل عندنا ، وتشاهدين هناك الشباب الشرقي ، واللبنانيين والسوريين .

وقالت غولـــدا :

أنا لا احب العرب ابدا ، ولكن يجب ان يقدموا لنا هدايا ، فلديهم مزارع كثيرة ، وبيارات جميلة .. وهذا الحجي يتكلم دوما عن مضاعفة الارباح ، ويذكر النور ، ونوفه وزنوبه وسـاره ، وفي المغـرب وتونس نور .. ترى لماذا يتحدث كثيرا عن النور ؟ .

وقالت غلادس :

هذا محيطه ، لا يرى من النساء سوى النور ، ومن الفلاحين سوى جمع الفلوس ! .

وردت غولـــدا :

علينا أن نشعره باهميته كتاجر ، وعلى أم جيسكار ان تحدثه عـن اعجابي به .

وقالت غلادس :

سنجعل الحجي يذوب بك .

وقالت غولدا :

وعليكم اقناعه بتغيير هذا القمطان الطويل ، ان جسمه كجسم والدي وسأحضر له طقم سهرة ملائما ، والا ستأخذنا انظار الناس اثناء السهرة.

واجابت غلادس :

فكرتك لا شك مدهشة ، وسوف اعمل مع البيك حتى يقتنع بوجهة نظرك .. آنسة غولدا تعرفين علاقتي ، ببيكو ، وقد دعوته لقضاء السهرة

معنا ، ويجب ان ابقى معه مهما كلف الامر ... وانا مرتبكة جدا ، ولا اعرف كيف اتصرف ، فماذا تنصحين ؟ .

وسكتت غولدا لحظة ، قبل ان تجيب :

دعي هذا الامر لي .. سأدعو رائعة باريس للسهر معنا الليلة ... وبعدها سيكون لكل حادث حديث ..

وبقيت غلادس على ذهولها فأضافت غولدا موضحة :

الا تعرفين رابينا ؟ ستسهر رابينا معنا الليلة ، فصديقها مسافر في واشنطن ... ورابينا من جميلات فرنسا المعدودات .. اطمئني ..

ومن صالون الحلاقة الفخم هتفت غولدا لرابينا ، تدعوها لقضاء سهرة رأس السنة معها ، ومع عرب من الشرق ، اياديهم سخية ، ومشهورين بحب النساء ، والا تتأخر عن الحضور الى الفندق في تمام تلك الساعة ، وهتفت للبيك تطلب مساعدته لاقناع الحجي بتغيير قنبازه اذ كانت قد امرت سائقها بأن يحضر لها بذلة للسهرة من خزانة ابيها فأخذت موافقة البيك ، كما اخذت موافقته ايضا على ان يشترك معهما في طاولة السهرة صديق لها ، وصديقته .

وانهى النسوة الزينة ، وعدن الى الفندق .

ولم تجد غولدا ، ولا البيك كبير عناء في اقناع الحجي بتغيير الزي الحموي وعندما ارتداه خرج بشكل آخر ، تماما بشكل اخر .

وفي السابعة التقى ببهو الفندق بيكو ورابينا ، فعرفتهما غولدا ببعضهما ... وصعد الجميع ومعهم غلادس الى الصالون ، حيث جلسوا وارتشفوا بعض اقداح الكونياك .

جاء الحجي بلباسه الجديد ، يتهادى في مشيته تيها .. وتلاه البيك بخطاه الثابتة وكأنه من احفاد ارطغرل بك .

وتولت غولدا التعريف ..

واسترعى جمال رابينا ، انتباه البيك فصار شخصا اخر ..

كما لفتتها رجولته ، فكادت تنسى صديقها بيكو ! .

ولم تكتم غلادس غيرتها فقالت :

اراك مهتما بها كثيرا ، فهل اعجبتك لهذا الحد ؟ .

وضحك البيك ، وهو يقول :

وانت هل تغارين الى هذا الحد ..

وردت غلادس :

ومن منا لا تغار ؟ . ولا سيما اذا كان الفارس انت ..

ورد البيك :

ولكنها امرأة عابرة .. وانت العمر ! . الليلة تنتهي باريس .. وتبقين أنت والشرق . واقتنعت غلادس ، وهو تقول :

افعل ما يحلو لك يا حبيبي ، فما اتيت بك الى باريس لاقيد انملة من حريتك .

— كانت الساعة قد قاربت الثامنة عندما نهضوا الى مطعم شهرزاد الكبير .. درجة الحرارة خمسة تحت الصفر ومع هذا فباريس تتحرك تحت الثلج ، كأنها في حر آب . دخلوا المطعم حيث يرى الرواد حديقتها المضاءة الزهور .

كم كان المشهد رائعا ، ذلك ان جمال الطبيعة في الشرق كان يثير في البيك ومن ورائه الحجي اعتزازا ما الا ان هذه الهندسة التي اضافت جمال الطبيعة الى جمال الصنعة جعلت من الرجلين ينشدهان فكيف بهما وقد اضيف لهذا المشهد الرائع ثلة من النسوة الجميلات اللواتي يأخذن بالالباب تتداخل فيه الاضواء بشكل رومانسي اخاذ .

وقد زاد في سعادة البيك انه عندما دعا رابينا للجلوس بجانبه لبث دون تردد وقد اختارت غولدا مكانها الى جانب الحجي ، بينما جلس الياس الى جانب زوجته ، ولم يبق امام بيكو الا ان يجلس الى جانب غلادس .. فجلس !.

وفي اجواء الطيوب التي تأخذ الالباب ، وبين مساحب الذيول الطاووسية وحول الزجاجات الرافعة اعناقها عطشا الى الثغور ، رحبت غولدا :

بسبب وجودكم بيننا ، نشعر بأن لهذا العام نكهة جديدة ، لن تذهب من اجسادنا ، ما دامت بها عروق تنبض . لذلك فنحن نشرب نخب وجودنا معا ...

وسرت من كلامها نشوة في النفوس، فمشت الايدي الى الكؤوس ... وقالت رابينا بفرنسية ذات رنين :

سنرفع الرسميات الليلة ... اذا اذنت غلادس ! .

وردت هذه ضاحكة :

خذي راحتك مع البيك ... بيروت تستوفي الديون مع الفوائد ... وتمحي كافة الفروقات .

والى غولدا :

في الحقيقة .. انا همي الحجي ، ولكنه ما دام في حماك .. فنحن

جميعـــا بخير .

واليهم جميعا قالـــت :

نحن في باريس ، وفي رأس السنة ، فعلينا ان نكون بحجم باريس، وحجـــم رأس السنة .. وعلى صحتكـــم ...

ها قد بدأت فقرات الحفـــل فاعتلت منصة المسرح راقصة اخذت ترقـــص بعنـــف على دق طبول قادمة من اعماق غابات افريقيـــا ، كان جسدها يتلوى وينفعل وكأنها أفعى تتلوى ، زاد من الاثارة فـــي المشهد فانفغرت الافواه بالانشداه عندما بدأت تتعرى علـــى فواصـــل موسيقيـــة حالمـــة ، هاقد نزعـــت قميصها العلـــوي والقت به الى احد الجالسين في الصفوف الاماميـــة وتبـــع ذلك خلـــع تنورتها وتوالـــت قطع الثياب الداخليـــة حتى اصبحـــت ربي كما خلقتني ومع نـــزول كل قطعـــة كانت شهقات الاستغراب عند الحجي تبعـــث علـــى الضحك عند النسوة فيتغامزون ويتلامزون ... وزاد ذلك فـــي الحجي التصاقـــه بغولدا حتى تسمـــر الساق على الساق ولولا ان المطعم يغص بالساهرين لفعـــل بجلستـــه ما فعـــل وهكذا توالت فقرات السهرة وفي نهايتها قاموا الى الرقـــص وكـــم كان منظر الحجي مضحكا وهو يراقص غولدا الى ان انتهت السهرة في تمام الرابعة . كانوا قد ثملوا .. رمى البيـــك برأســـه على صدر رابينا فمصها غير مرتاحة في جلستها ووقعت غلادس بين يدي بيكو .. بوضع كله راحة . وغولدا لم تشرب كثيرا لان ذلك ليس من طبعها والحجي برغـــم عدم الاعتياد ، فقـــد بدا وكأنـــه « يتعتعه السكـــر »

وقد نشطت غولدا ، فأخرجتهم الى السيارة ، واوصلتهم الفندق ، وادخلتهـــم الغـــرف ، وبعـــد ان اطمأنت الى كل زوجين ، ارتاحت الى جانب الحجي ..

دقت الساعة الواحدة عندما بدأ رنين الاجراس في الغرف .

لقد كانت غولـــدا المسؤولة عن رعيتها ، او كقائدة فرقة الجراميز ، ودعتـــهم الى الغداء في الفندق .

لقد الهبت احاسيسهم بالمحبـــة والحركة والنشاط ... ودعتهم الى جولـــة في المدينـــة .

وامر صبحي بك ان ترافقـــهم رابينـــا وصديقها بيكـــو بهـــذه الجولـــة ، فلا بد من تكريـــم الضيوف ، وتقديـــم هديـــة لرابينـــا التي عرفتـــه على افاق المراة الفرنسية ، واصر قبل كل عمل ان تجعل غولـــدا طريقـــهم الى بائع المجوهرات ..

واستقبلهم الجوهري ذو النظارتين المائيتين وتفحصت غولدا النفائس لحظة ، وانتخبت عقدا وسوارا سرعان ما صارا على عنق ومعصم رابينا ...

وقال البيك :

مبروك ... ودفع الياس للبائع شكا بخمسة عشر الفا ...

ووضعت غلادس قرطين في اذنيها . وتأملت وجهها في المرآة على سبيل التجربة . وقبل ان تحاول خلعهما سبقتها كلمة البيك مبروك ..

وقاموا بجولة في المدينة لمدة قصيرة عادوا بعدها الى الفندق واستراحوا قليلا وآووا الى غرفهم متعبين من سهرة البارحة ، ودخلت رابينا غرفة صبحى بك وقبلته وشكرته على هديته .

وقالت :

سأودعكم الان .

وبهت البيك :

ماذا ؟ لن تذهبي ابدا . اخبري اهلك وابقي معنا طوال الرحلة اذا لم يكن لديهم مانع .

وردت رابينا :

ـ ان صديقي بيكو قال ، انني ضايقتك بهذه الهدية ، وعلينا ان لا نكون ثقلاء وسنذهب .

ورد البيك حاسما كعادته :

ـ اسمعي ، انا شخصيا مسرور جدا بوجودكم معنا ، وان بقيت سأقدم لك كل يوم هدية . انا هنا جئت لاشم طيوب باريس ، وانت اجمل ما في باريس .

وردت رابينا بدلال :

ـ لا يا سعادة البيك ، انت شاهدت كثيرا ، وانا احداهن .

وعاد البيك الى الاستعطاف :

ـ ارجو ان تبقي معنا ، واذا اردت ان احدث بيكو بذلك فلا مانع لدي .

وردت رابينا :

لا سوف اخبره انا واقنعه وسنبقى تحت رغبتك .. كان الحديث بينهما طويلا لان البيك كان يتمتع بفرنسية غير صحيحة مما يضطره لاعادة الجملة اكثر من مرة ليفهمها لرابينا . في هذه اللحظة قرعت غولدا باب غرفة البيك ودخلت .

قال البيك :

اهلا غولدا ، لقد اقنعت رابينا ان تبقى معنا وسأقنعها ان تسافر معنا غدا الى السويد ويسافر ايضا صديقها بيكو .. فماذا ترين ؟ .

قالت غولدا :

ـ هذا رأيك ورأي اصدقائك ... العشاء الليلة السابعة ، وليس الثامنة .. وفي غير الفندق .. فالرجاء اخذ العلم .

وخرجت ، ومعها رابينا ، لتجلسا في بهو الصالون ، وقالت رابينا : هذا هو العقد والسوار ...

وردت غولدا :

ـ دعيهما معك الى اخر الرحلة ، وهذا شك بنصف ثمنها ... والحساب جار ...

عودي الان الى غرفته ووافقي على الرحلة .. واحفظي الفواتير ... وانني اعتمد على ذكائك .

وفي اليوم التالي اصر البيك ، على ضرورة مرافقة رابينا وصاحبها لهم في رحلة السويد ...

واعتذرت ام جيسكار عن الرحلة وذهبت غلادس .

ـ كان الياس مشغولا بالعمل مع ادارة البنك ومع مديره ، سايكس ، اما زوجته فتقوم بزيارات الاصدقاء ولبعض العائلات التي يعملون معها .

اما الحجي فقد وضعت غولدا له برنامج جولة في مطاحن الحبوب ، وبعض مزارع تربية الابقار والدواجن .. وتربية الخنازير ! وكان يعود معها الى الفندق . واستمرا في اليوم التالي بجولات في المدينة ، كان الحجي خلالها يشعر بسعادة لا توصف لبعده عن الانظار ، وخصوصا انظار البيك وعائلة الياس ويعيش الان ومعه غولدا تشجعه وتنام معه في غرفته تأخذه الى النوادي الليلية ولا تنسى ان تمر مياومة على سوق الصاغة !

قال الحجي بعد احدى زياراته للصائغ :

لماذا تحبون الصائغ كثيرا ؟

فأجابت غولدا :

كل الفرنسيات يحببن المجوهرات ، وكل نساء العالم ايضا ! .

وقال الحجي في ساعة غفلة :

اختاري ما تريدينه من عند الصائغ ، لتكون ذكرى مني لك ، بدون ان يعرف احد ولا حتى عائلة الياس .

وقالت غولدا :

يجب ان تدرك يا صديقي العزيز انني قد عرفت كل طباعك وكأني معك طول عمـــري .

وعاد الحجي للتأكيـــد :

اختاري هديـــة على ذوقـــك .

وقالت غولدا للصائغ بالفرنسية :

ـــ اعطني اغلى عقد عندك واربعة قروط واربع سوارات وضـــع المجميـــع في فاتورة عاديـــة ، وحولها على بنك سوريا ولبـــنان فـــي بيروت ، عن طريق البنـــك عندنا ، باسم « حج احمد » وعليك ان لا تذكر امامه الثمـــن اطلاقا ...

قال الصائـــغ :

ـــ هذه العقود غالية جدا يا انسة غولدا .

ثم اردفـــت قائلـــة :

انـــت تعرف الاتفاقية ، وعليـــك ان ترحب بالضيف الذي معي .

فعقـــب الصائغ :

كما تأمرين يا انسة غولدا ، اهلا وسهلا بالعرب .

وترجمت غولدا للحجي :

يرجو لك حظا سعيدا وسرورا في باريس ، ويقول ايضا ان محله تبرك بـــك وان طلباتـــك اوامـــر ...

وقال الحجي :

اخبريـــه بشكري لـــه ، وعليه ان يقدم لك هدية جميلة .

وقالت غولـــدا :

يقول الصائغ هذه بطاقة عنوانه ، فان قدمت باريس ثانية ، فهـــو يرحـــب بـــك في كـــل مـــرة .

وقال الحجي :

ـــ اشكريـــه انـــت .

كان ثمن مجموع ما قدم لغولدا من هدايا مبلغ مئة الـــف فرنـــك فرنسي مسجلة على الحجي وعادت غولدا والحجي الى الفندق وانضـــم اليهمـــا الياس وزوجتـــه وتناولـــوا طعام العشاء سوية ، ثم ذهبـــوا جميعا الى دار سايكس ، وهناك اعادوا تدقيق بعـــض الحسابـــات ، وتحدثوا طويلا عن التجارة في سوريةَ ولبنان .

واتفقوا على تحويل مبلغ عشرة ملايين دولار الى بنك سوريـــا ولبنان للعمل في المنطقة في فصل الربيع القادم ، ثم عادوا الى الفندق ..

وفي اليوم الخامس عاد البيك وغلادس ، ورابينا وبيكو ، من السويد .. وبعده بيوم واحد غادروا باريس الى مارسيليا ، وكان في وداعهم في المرفأ غولدا ، ورابينا .. وقد دعيتا لزيارة الشرق في الصيف .

وبعد أيام اربعة وصلوا بيروت ، وارتاحوا بها ثلاثة أيام ، من عناء السفر ، والسهر ودوار البحر .. اثناء ذلك وصلت الفواتير والسندات والشيكات .. وكان فيها ان الحجي قدم لاصحابه من الهدايا ما قيمته مئتا الف ليرة والبيك نصف مليون وفي الصالون الكبير ، اخبرهم الياس بالتفاصيل . وصعق الحجي لدى سماعه بالمبلغ ورددد . مئتا الف ليرة .

ماذا ؟ مئتا الف ليرة هدايا ؟ . ماذا ؟ . ماذا ؟ .

ـ هل تسمع يا سعادة البيك ، مئتا الف ، وانت نصف مليون .

وبادره البيك :

ليست مشكلة : ربحنا في العام الماضي عشرة ملايين ، وقد دفعنا ثلاثة ارباع المليون بالنسبة لي ليست مشكلة ...

قال الياس :

ـ يا صديقي هذه هي المستندات ، ولا ادري ماذا قدمت لغولدا ، ونحن غياب .. وعاد الحجي ليقول :

ـ مئتا الف ليرة سورية يدفعها الحجي بعشرة ايام ، هذا عمل مريع .. هذا مقلب رتب لي بذهابي الى فرنسا .

ـ لا ملقب ، ولا أحد رتب !. لو لم تملك الملايين ، لما صرفت ما صرفت .. وهذه ليست مصيبة ايها الرجل .. وبلا ربح قريتين هذه السنة .

وتدخل الياس :

ـ ان صداقة الحجي ، لا تباع بالملايين . وانا اتصرف كما يرغب سعادة البيك ، وان وافق على عودة غلادس لباريس ، لبحث هذه الامور فهي حاضرة .

ورد سعادته :

ـ بلا فضائح يا الياس ! وتابع : ولو دفعنا ربح سنة كاملة ، فلا تراجع ... ولا معاتبة . نحن سافرنا وسررنا والحجي عاش يومين على الهوى والمشتهى ، وكان يجب ان يدفع اكثر .. والى الحجي قال :

وبعد فماذا تظن .. هل غولدا من جماعة نورياتـــك ، ذوات العشرين ليرة .. فقطعت الحوار ام جيسكار ، بدعوتهم على الغذاء ، فقد رتبت اكلات للحجي يحبها .. كثيرا .. ولكن وجهه بقي مكفهرا ، وغير طبيعي ، ودخلت غلادس ، فرأته في وضعه القلق فقالت :

ـــ هل حزنت لفراق غولدا .. لا تقلق يا حجي ، في الصيف ستكون هنا ، وان أمرت فببرقية أجعلها غدا بين يديك ...

تفضلوا .. تفضلوا .. الى الغذاء ...

فمغمغم الحجي بكلام غير واضح ، وخشي احراج البيك ، فذكـر أن أحواله الصحية سيئة .. وأنه يجب ان يعود الى بلده بسرعة .

والى أم جيسكـــار :

بسيطـــة يا أم جيسكار .. علينا ان نستقبل فصـــل الربيع ، بنشاط ، ونستعـد لمطاليبـه الكثيرة ، والتفت الى الياس :

ـــ ما رأيك يا الياس : وكم ستحول لنا على فرع حماه في الربيع ؟.

وقـال اليـاس :

ـــ توكل على الله يا حجي ، من لا يملك القرش ، لا يصرف القـرش .. وفي أواخر اذار تكون كل طلباتك جاهزة .

وقال البيـك مخاطبا الياس :

ـــ الحجي لم يزعل لدفع المبلـغ ، بل لانـه لـم يعـرف كيف دفـع .. وعلى كل حال فهو لم يقصد شيئا يا الياس .. وأنتـم مدعوون لعندنـا ، في الربيع ، وان شئتم دعوتم غولدا ورابينا ايضا .. ولهدايا جديدة .. والحجي يكون دليلنا في سوريـة .. وسع نظرك يـا الياس ، وســع !..

غادر البيك وبرفقته الحجي بيروت في اليوم الرابع فوصلا حماه بعد الظهر ، دخل الحجي بيتـه ، واستقبلتـه زوجته حامدة الله على سلامة عودته من لبنان وعاتبته بعض الشيء على غيبته التي طالت، وذكرت انشغال بالها عليـه ، من رداءة الطقس يوم سافر ومن انحـراف صحته الغاليـة ، وطمأنته ان الحمام يغلي .

قـال الحجي :

ـــ أنت تعرفين ظروف العمل ، وربحنا القليل ، وقد احضرت لك فسطانا ، وقطعة حرير سوداء ، كملاءة ، واحضرت لك وللاولاد احذية وقمصانا ، وعندما مررت بطرابلس اشتريت لكم برتقالا ، وقصب سكر . لقد تعبـت كثيرا ، بأمور الشحن ، وساعدني البيك ، ودققـت

الحسابات مع شريكنا الياس ، الخبيث ، وابن الحرام الذي لا يشبع .. كيف الاولاد . ودروسهم ... قولي لي للكبير . ينادي لـي علـى السايس . ثم دخل الحمام . وعندما خرج ، وجد السايس منتظراً ، فأمره بعد السلام .. ان يدعو له الازلام والمخاتير والوكلاء ، والمشايـخ ... وان يكونوا بعد غد عنده .. وفي اليوم التالي ، ذهب الحجي مع الفجر الى المسجد ، لتأدية الفريضة ومن هناك الى الخان ، فتفقد فرسه واشياءه ... وجلس داخل غرفته ، وهو يمشي ويقول :

مئتا الف ليرة . هل يعقل .. غلـطة لا غفـران لهـا ! زنوبـة بعشرين ليرة ... الف ليلة ... وهناك ليلة بمئتي الـف ليـرة ... او هكذا تكون الخوازيق .. او لا تكون ابدا ... زنوبة بفسطان .. نوفة بجزمة .. خازوق بمئتي الف ليرة .

قطع السايس تفكيره ، بصباح الخير ، ثم بعد ذلك بتنفيذ للاوامر وبتجهيز المطور ... وباعداد الهدايا لتقديمها .

عاد الحجي الى دفاتره ، وحيال نصف المليون لا يفارق مخيلته، الى أن وصل في النهايه الى القول : ماء وانهرقت .. ان عاتبت تبهدلت بلا طائل .. وان سكت اختفت ... الربيع آت .. والخير كثير .. وعلي مضاعفة الجهود .. ثم انه ذهب الى بيته ، فنام كاهل الكهـف .. على حلـم أن الربيع آت ..

٣

فصل الربيع هو فصل الخير والبركة وفيه يبيع البدو منتجاتهم من المواشي ، والسمن والصوف والخرفان والجلود والجبن ... والبدو الاف من العائلات المنتشرة في البادية . وانتاجها في فصل الربيع لا بد من تسويقه ، ومخطط الحجي في هذا الاتجاه ، هو توفير سيولة دائمة ليبقى الازدهار عامرا في السوق ..

فمخازن القماش مكتظة ، ودكاكين الاحذية ، والسمانة مستعدة لتلبية سائر الحاجات ، وتجار الصوف الصغار ، كتجار الاغنام ، كتجار السمن ، كصانعي الجبن ، كلهم مستعدون لاستقبال البدو ، وكل ما تنتجه البادية . والممول الرئيسي لهؤلاء جميعا انما هو الحجي ، وان وجد ممول اخر ، فبيروت من ورائه ، واذا وجد غير الياس في بيروت فلا يوجد سوى سايكس واحد في باريس . وقد تتوافر اكثر من كلادس في بيروت ، ولكن لا توجد الا كولدا واحدة في الدنيا .. وسايكس مدير بنك فرنسا والشرق وهو يمول تجار الشرق ، بشبكة متماسكة بحيث لا تفلت من قبضته فريسة الا ويستغلها ولو في اقصى البادية ، ويربح قرش الشبكة خمسة أو ستة ، ويدور القرش من عام لعام ، ومع ذلك فالربا ممنوع ، والحديث عن حرمته اطول من شهر الصوم نفسه .

وعلى التجار ان يرتبوا امورهم بتوفير الاموال بالحلال وبالحرام ، ويزداد الفقر ويزداد الغنى ويكبر التفاوت ... وتكبر الفوضى .

اما الحالة العلمية في هذا النظام البدوي القروي ، فوحدتها المثالية شيخ الكتاب ، ومؤسسته عبارة عن غرفة بلا اثاث يقتعد فيها الطلاب الارض ، والاستاذ شيخ يقرأ القرآن ، وله اساليب في التعليم عجيبة ، اجرته رغيف من كل تلميذ في كل صباح . وبيضة كل ثلاثة ايام ، وخمسة قروش كل يوم خميس .. اثنان في القرية لا تخبز زوجتاهما شيخ الكتاب ، والراعي ..

وشيخ الكتاب كالخوري في اطلاعه على اسرار الناس ، فالناس مع الخوري احرار في الاعتراف اما مع شيخ الكتاب ، فحرية الناس معدومة فهو وحده الذي يعرف قراءة الرسائل .. ..

ومن هنا فلا خيار ، وشيخ الكتاب هو الذي يفسر القرآن ، وبالطبع فهو حر !. وهو الذي يدبر امور الزواج والطلاق ، وهو الذي يحلل عودة المطلقات الى الازواج بطريقة « التجحيش » (١) يساعده بذلك احيانا وكيل البيك في القرية او المختار .

واخيرا فشيخ الكتاب هو مخبر البيك السري ويقدم له التقارير الشفوية عن كل صغيرة وكبيرة . وقد صار معلوما ان الحجي هو الممول الاقتصادي لهذا النظام ، والبيك شريك للحجي ومن هنا فكلمة الحجي هي النافذة لدى الفلاحين فهو من جهة يسلفهم ما يحتاجون اليه، وهو القادر على استرداد حقوقه مضاعفة بواسطة البيك ، اوليس البيك هو شريك الحجي ، في كل صفقاته ؟ . وكثيرا ما يرى الحجي في القرى يستطلع احوال المواسم ويقدم النصائح للاستغلال السريع ، ويدرس قدرة الفلاحين على تسديد الديون . على ان نفوذ الحجي مع شيوخ البدو ووجهائهم ، لا يقل عن نفوذه في قرى الفلاحين . اليس بواسطته يقبل البيك ان يرعى البدو مواشيهم ، بعد الحصاد في اراضي البيك .

والبدو يطيعون شيخ العشيرة لا يخالفه في ذلك احد ، فالكل منضبطون مع الشيخ ، والحجي صديق الشيوخ ويؤمن هذه الصداقات بسهولة وبهدايا بسيطة من القهوة والشاي . والالبسة

(١) ــ وسيلة تحليل عودة المطلقات ألى الازواج . والاصل ان المطلقة ثلاثا تحرم على زوجها ، الا اذا عقد عليها آخر ، وتزوجها وشاء ان يطلقها .. وقد لعبت الاهواء بهذه القاعدة فاصبحت وسيلة للارتزاق ، والاشتهاء ، والفوضى .

المزركشة ... والخسارة هذه يعوضها ربح عادي من اي بيت عادي لبدوي يستلف من الحجي ، فالعمل التجاري مع البدو سهل جدا ، ومربح كثيرا ....

ومع هذا فكان على الحجي ان يستدرجهم الى التهه الساحقة فأرسل الى عدد من مشايخهم برسل وهدايا وطلب الى الرسل من المشايخ ان يزوروا الحجي في خانه عندما يقصدون المدينة وهكذا توافد اليه عدد من المشايخ اكرمهم ايما اكرام بعد ترحيبه بهم وكان اولهم الشيخ جاسر ... هاقد دخل الى الخان وبادر الحجي بقوله :

— اتمنى ان تكون بصحة جيدة يا حجي .

وحمد الحجي الله وشكره على نعمه وقال :

— يا شيخ جاسر . لقد سمعت عن البادية انها خصبة جدا في هذه السنة ، فماذا عندك عنها؟ وكيف الاحوال ، واين مضاربكم منها ؟

ورد الشيخ جاسر : كلها خير ، والخير بوجهك يا حجي .. نحن نضرب في جبل البلعاس غرب تدمر والحلال زين ... (١) هذه السنة ، ولدت الاغنام مبكرة لكثرة الخصب ، ومضارب الحديدين شمالينا وفي الغرب الموالي ، ومن الشرق عرب عنزه ، ومن القبلة بني خالد .

وهذا العام كان اجود من كل الاعوام ..

ودخل السايس مقدما القهوة العربية المرة ، في يسراه فناجين القيشاني المنقوشة بالفيروزي اللامع ، وفي اليمنى الابريق النحاسي ، ومن لسانه انسكب على الفنجان خيط اسود كصيحة ديك مبحوح في السحر .. ونقر فم الابريق الفنجان نقرة خفيفة ، كنقرة طائر مستعجل ، وقدمه للشيخ ، ومثله فعل للحجي ثم كرر .. وقال الحجي :

اسمع يا سايس الخيل ، فرس الشيخ متعبة قدم لها علفتين : التبن بالشعير والفصه ... وانزل عنها السرج وقدم اليها الماء ..

قال الشيخ ، وهو يهز الفنجان علامة اكتفائه من الرشفات : الله يعلم انني عندما ازور هذا الخان ارتاح ..

وقاطعه الحجي : سنتغدى سوية اليوم ، ونطلب الطعام الى المكتب هنا . وشكره الشيخ معتذرا ببعض اعمال في السوق وشراء

(١) — الحلال الاصل الغنم ، وقد يشمل سائر المواشي .

حاجيات العيال ، لكن الحجي حلف بالطلاق الا ان يتغدى بضيافته ، ثم الـى السايس من جـديد :

ـ سامع يا سايس كافة لوازم الشيـخ تحضرها الى الخان .

واوضـح الشيـخ جاسر :

سأشتري للعيال درابيـع (١) وللشيخة ام غطفان بعض حاجيات .

قال الحجـي :

ـ المسألة بسيطة ولا تكلف نفسك عناء الذهاب الى السوق مـن اجلها ، فالسايس سيحضر الى هنا صاحب دكـان القماش والسمـان والاحذيـة ، وجميـع حوائجـك تقضى وانت عندي بهذه الغرفة هنا .

ورد الشيـخ جاسر بلطـف :

ولكن لا بد من الذهاب الى السوق حيث سأختار اللون من اجل طقم لـي ، وهذه ورقـة فيها ما اوصتني عليـه الشيخة وفيها مقاسـات ارجـل العيال ، ولكن معـك حق يا حجي .. افضل ان يحضروا الى هنا لانـه عيـب على الشيـخ جاسر ، أن يرى متنقلا من حانوت الى حانـوت ...

وقال الحجي :

هذا ما قصدت اليـه وانـت تعرف قيمتك عندي ، اهلا بالشيـخ جاسر اهلا .. وبعد ان سحب من النارجيلة نفسا طويلا ، ونفثه قال:

ـ الشهر الماضي كنـت في بيروت وذكرتك كثيرا ، واحضرت لك معي عديـة ، ارجو ان تعجبـك هي عباءة وبر شغـل العراق ملبوس الملوك ... واذكر انني قلت لسعادة البيـك :

هـذه للشيـخ جاسر ...

وقام فخرج ، وعاد يحمل رزمتين صغيرتين ، فض خاتم الاولـى ، ونشر عباءة وبر جمال ناعمة ... واصر ان يلبسـه اياها بنفسـه ، وقال الشيـخ جاسر :

ـ فعلا فيها سلية .. وكم ثمنها يا حجي ؟

ورد الحجي بتواضـع :

ـ العباءة على اكتاف الشيـخ جاسر لا تقدر بثمن .. وفي هـذه الصرة واحدة للشيـخة ام غطفان ! .

وعاد الشيـخ جاسر الى الشكر الذي بـه تدوم النعم ، وتزيد .. ذهب السايس الى السوق وعاد ... وعادت معـه طلـبات

---

(٢) الدارعة لبعض يعلو الثياب ، سميك في المعتاد .

الشيـــخ المحملة على جملين .. وتغدى في الخان ودار الحديث عن البدو ، وكميـــة المساعدات التي يقدمها الحجي لهم ، واخذ الشيخ على عاتقـــه حميـــع عشائره التي تتعامل مع الحجي فقط ، وعلى الحجي ، ان يرسل عشرين بيتا نقالا لصنـــع الجبن وعلى كل بيـــت ان يكون ذا قدرة وموهبـــة غريبتين في سرعة الحركة ، والانتقال مـــع مضارب البدو في الحل والترحال .. والابل تنقل الجبن الى محطـــة القطار ، ليصار الى نقله فورا الى طرابلس .

واضاف الشيـــخ :

ـــ هذا راي وانت تعرف عملك اكثر مني ، يا حجي ! .

قال الحجـــي :

ـــ كلامك در .. واذا وجهت عشائرك لصالحي ، فهذا فضل مـــن اللـــه غمرتني انـــت بـــه .

واكد الشيـــخ :

من قديـــم ونحن اهـــل .. وكان المرحوم والدي الشيخ صفوح ، يتعامل مع والدك وانا معك ويأتي وقـــت اولادي مـــع اولادك والعلـــم عنـــد اللـــه .

واكد الحجي :

ـــ نحن على طول الزمن نثـــق بكـــم ابا عن جد .. وان شاء اللـــه ستدوم هـــذه الثقة ما دام العمـــر ، وتعرف يا طويل العمر معزتك عند سعـــادة البيـــك .

لقد سمعـــته مرة يقول :

ـــ يجب ان يكون الشيـــخ جاسر نائبا عن عشيرته ، وانا واللـــه سأعمل ما بوسعي حتى تصبـــح نائبا وسأعمل لهذا الامـــر مع سعادة البيـــك والمستشار والشيوخ وسائر الاخوان ، حتى تصل ان شاء الله.

وقال الشيـــخ بثقـــة :

ـــ هذا الامـــر مرهون بوقتـــه ، والصديـــق للضيق ، وبامكانك منذ غد ان ترســـل جباناتك من شرق السلمية حتى البلعاس الى وادي العزيـــب .

وقال الحجـــي :

سنسهر الليلـــة معا عند سعادة البيك بالمضافة فما رأيـــك ؟

ـــ كما تحب ، قال الشيـــخ ، لكن لا بد من نزولي الى فندق ابي الفداء ، وهناك بعـــض شيوخ العشائر وعدتهـــم بالملقاء في مقهـــى العاصـــي .

ومشى الحجي بصحبته ، فمن واجبه ان يدعوهم للعشاء . وقبل ان يغادر الخان استأذن الحجي ، ودخل غرفة ثانية فهتف للبيك معلنا عن وجود بعض شيوخ العشائر ، ويجب ان يوجه باسمه دعوة لهم للعشاء ليلتها في مضافته ، ورأى البيك ان الدعوة معقولة جدا ووافق عليها ، وامره ان يخبر الوكيل ليجهز العشاء اللائق ، كبضعة خواريف ، وفريكه وحلويات .. والموعد السادسة ، في القناق .

وعاد الحجي الى الشيخ جاسر ينبئه بان سعادة البيك ، عندما علم بوجوده اصر على دعوته واخوانه للعشاء .. واضاف الحجي :

ـ لقد كان البيك واضحا جدا فقال لي : عندما نذهب للبادية فلا يقبلون الا بذبيحة لكل واحد منا . لذلك فقل للشيخ انني لا اقبل عذره وقد ذبحت على اسمهم .. فهيا بنا للمقهى حتى نرى الاخوان ! ..

وانصرفا . الى حيث شاهد الحجي ، خمسا او ستا من العباءات التي يعرف اسماء بعض اصحابها وجرى تعارف لائق وغمز الحجي صاحب المقهى ليقدم لهم المرة . فجاء صاحب المقهى بنفسه يحمل الفناجين والابريق وبعد ان شرب كل فنجانه . تحطمت الفناجين بين اقدامهم .. تكريما لهم .. فالفنجان الذي شرب منه الشيخ ، لا يشرب منه احد بعده !.

وبعدما عاد للترحيب من جديد بالضيوف اعلمهم بدعوة البيك الذي دعا على شرفهم بعض البكاوات . وتحدث الشيخ جاسر عن البيك بانه رجل كريم وتجب زيارته ولكن الرأي للشيوخ فبادر اكبرهم قائلا : الرأي رأي الجماعة ..

وقال الحجي :

ـ بعد صلاة المغرب نذهب الى قناق البيك .

ولكن الشيخ جاسر كان يفضل ان تقام الصلاة في القناق نفسه وفي الغروب رحب البيك بهم كثيرا . واطمأن الى صحتهم واحوالهم وقد حضرت احدهم كلمة . فقال :

عندما يجتمع الرجال تهون المصاعب ! ..

ثم قدمت القهوة المرة . بينما كان الطعام يحضر بالصالون الثاني وكان على المائدة ستة خرفان بنفس الاسلوب البدوي الاصيل . واحد على شرف كل شيخ . وعلى المائدة ايضا قائد الدرك وقائد الهجانة والمستشار الفرنسي .. .وشيوخ العشائر يقل كلامهم بوجود الاجانب

فاقتصر الحديث من جانبهم على تمنياتهم بأن يسرع الحجي بارسال مصانع الجبنة الى مناطقهم ، واستغل الحجي المناسبة فطلب من المستشار بعض الشاحنات لنقل الجبن من البادية الى المدينة ، واجيب الى طلبه . ووافق جميع الشيوخ على مساعدة رجال الحجي في تصدير السمن والصوف والخراف وتسهيل اعمال التجبين عند سائر عشائرهم .

كان الحجي ساعتها يهجس بالاف العائلات .. ان اصغر عائلة لا يقل منتوجها عن خمسة الاف ليرة ، وقد يصل لدى عائلات اخرى الى حدود خمسين الف ليرة فلا بد اذن من تأمين سيولة ، لا تقل عن ثلاثة ملايين ليرة تسلف الى البدو ، في أول الموسم ..

وقرر الحجي زيادة عدد المراكز ، وشدد بينه وبين نفسه على الشحن بكل السبل الممكنة : ظهور الرجال ، ظهور الجمال ، الحمير ، ظهره .. الشاحنات العسكرية .. مكنات القطار الحديدية ولو امكن أجنحة الطائرات .. الشحن ، الشحن ، الشحن ، يجب ان ينزل مرفأ طرابلس يوميا ما لا يقل عن عشرة الاف ، عشرين الف خمسين الف .. كل شيء ، تتلقفه البواخر الى فرنسا ..وانتهى العشاء فقسم نام عند البيك وقسم اخر عند بيك آخر ، وذهب الحجي الى خانه ، ليرتب أعماله ومراكز استقبال الحليب :

أحمد بموقع وضحه ! خالد وعادل ، بوادي العزيب . عبد الرزاق ومحمد بالأندرين فلان وفلان هنا وهنا . وهناك وهنالك .. وفي كل الاماكن التي تتواجد فيها مواشي ويدو والقى على عمال التجبين دروسا تفصيلية واجوبة لكل اسئلة يمكن ان تطرح أو يطالها خيال بدوي أو نوري ، أو حضري . وعلم العمال الطرق الكفيلة بتسهيل أعمالهم مع البدو ، وطريقة التسجيل ، ثم صرفهم ليستعدو، ، واكد لهم انه سيجتمع اليهم قبل رحيلهم ليزودهم بلوازم اخرى وتعاليم اخرى .. واختلى الحجي بنفسه ليرتب أموره بهدوء . وقدر تقريبا المراكز المستجدة ، وقدر ايضا الكمية ، وطلب من المقسم بيروت ، فاذا الياس بين يديه .

وبعد الترحيب المعتاد .. والسؤال الروتيني عن الصحة ..

طلب الحجي ، من الياس سيولة لا تقل عن عشرة ملايين ليرة .. فقد زاد عدد مراكز الجبن الى خمسين ، و البيك مستعد لتأمين شحن خمسة الاف صفيحة يوميا ..

وقال الحجـــي :
واضـــح كلامي ؟.
ورد الياس :
ـــ كـــل الوضوح يا حجي ، فالمبلغ بين يديـــك غدا على بنـــك سوريا ولبنان فرع حماه ، وبعد غد تصرفـــه كيفما تشاء .. وسأخبر باريس ، بالشحن الاسبوعي .
وحضر الحجي خمسين سجلا ، فلكـــل مركز سجل ، وبكـــل صفحة اسم العائلة ، وكمية الحليـــب الواردة والثمن ، وعدد الايام والمنتوج ، وافرز صفحات للخرفان والصوف ، والسمن والجلود وبعـــد ان رتب كل الدفاتر التي سيحملها معهم رؤساء المراكز ذهب لبيتـــه ونام مرتاحا ، لمستقبل الصفقات .. وهو يحلم باسترداد مبلغ النصـــف مليـــون في الربيـــع بـــل اضعاف مضاعفة .
في اليوم التالـــي نهض مبكرا لصلاة الفجر في المسجد ، حيـــث الصلاة هناك ابرك وأوجه .. ثم حضر الـــى خانـــه حيث سبقـــه السايس الـــى تحضير القهوة ، والنارجيلة والفطور ، وفي الساعـــة السابعة كان قد اجتمع اليـــه جميـــع رؤساء المراكز لتلقي التعليمات النهائيـــة واستقبل كـــلا منهم على حدة ، ليتأكد مـــن فهـــم الجميـــع لكـــل التفاصيـــل .. وفهموا ايضا انـــه لا داعي للقبان قطعا ، فعلبـــة الخشـــب هي الوحدة الوزنية ، والتنكة لا بأس بها ، والبرميل هو سيد المقاييس .. والشحن مستعجل ، خوفا من الحموضة ، وعلى كـــل فالبدو هـــم المستعجلون ايضا على القبض . وكان رأي الحجي ، ان تحصـــل المحاسبة كـــل اسبوع ، ليضطر البدوي الى البقـــاء أكثـــر في الموطن الواحـــد .
قال عادل أحد المتخصصين في صناعة الجبن : على كل حال، نحن رحل ، اكثر مـــن الرحـــل .
وقال خالد مختص اخـــر :
هذه ليست مشكلة ؟. لكن السيولة يجـــب ان تصل اسبوعيا ودون تأخـــير ، لانني لا احـــب ان اسمع المطالبة ، ولا احـــب ان ارى الناس يطالبـــون .
قـــال الحجـــي :
يجب ان تدركوا أن كافة الاموال ستصل في الوقـــت المحـــدد ، وبالسيارة .. وهذه لا تحتاج الـــى نقاش ، لكن بعد غد عليكـــم فتـــح أغلب المراكز ، وان بعض البدو بحاجة ماسة للمـــال فيمكن أن يسلفوا

على الحليـــب وعلى كفالة شيـخ العشيره لاسبوع او اكثـــر ..
وبعد أن قدم لكـل رئيس مركز مبلغا موقتا كافيا للبدء بالعمل قال :
أنا نايـم بالخان وباقي فيـه ليلا نهارا لاتابـع اخباركم . وبقدر نشاطكـم تربحون اكثر والربـح عند الله ، فعلى بركة اللـه ولا ينسى أحد شيئا من عدتـــه أو حاجاتـه . بقي أمر هام ، فقد اتفقت مـــع الشيوخ على تسعيرة الحليـب عشرة قروش للرطل الواحد ، فحاولوا من جانبكـم تخفيضها الـى ثمانية .. وان تذمر البدو ، فيمكـن التثبيـت على عشرة أو تسعـة .

وتسابقوا الـى البادية ، كما تتسابـق شرايين الى قلب ، وكلهم من العمال المتمرسين بهذه الصناعة ، والتي قضوا بها شهورا بـــل سنينـــا . وعلاقتهـــم بالحجي علاقة شراكة وليست علاقة اجرة . وذلك حتى يكون النشاط أوفر والربـح أكثر ، ونصبـت الخيام فـي مراكز التجمـــع القطعاني ، وقرب المضارب ، والاماكن المناسبة . ونصب خالد وعادل الخيمة مع بقية العمال ، على رأس رابية في أول وادي العزيـــب .

البادية في الربيع كتلك التي وعد الله بها المتقين : بساط سندسي موشى بالاقحوان والنرجس والبنفسج ، حتى الزنبـق الذي لا تحلـم بـــه حدائق الزهر في أوروبا ، فلـــه في البادية تاج وصولجان . ويهب النسيم فتسكر الانوف بكوكتيل أين منه الطيوب الباريسية ..

ويصرخ احد العمال : لماذا لا نقيم العمر في هذه الارض ؟.

لقد كانـــت الطبيعة كلوحة اشتركـت في تلوينها الف ريشـــة بخبـــرة وذوق واعتنـــاء ..

وعلى مسافة من هذا المضرب بالذات نشاهد اثار دارسة لدارة الاندرين ، وتتلاحق المناظر فهذا جبـل البلعاس المغطى بالبطم والدفل، وتتغلغل فيه الايائل والغزلان ، وهناك تدمـر الاقواس .

والحنايا والعمدان ، الجالسة تتحدى الزمـان ، وفي الشمـال قصر الرصافة بسوره المرمري الابيض الضاحك دوما للشمس . واكثر ما يروعـك في البادية الشروق اذ ينتصـب قوس سحاب ، اجمل من اي قوس قزح وقد اختلطت فيه الالوان كمسحوق الذهب ، والفيـروز واللؤلؤ ، فيكاد يخطـف البصائر قبل الابصار ..

على قمة هـذه الرابية في رأس وادي العزيب وقف عادل مخاطبا البدو الذين شاهدوه وتجمعوا فورا من حوله وساعدوه بنصب الخيمـة الكبيـرة ، او المصنـع المتحرك :

اهلا بالرجال ، عندما ننتهي من نصب الخيمة سنزور في المساء الشيخ ! .

لقد نصب خيمته ، او مصنعه قريبا من بيت حمد الخميس ، القائم على خمسة اعمدة والخمس شقق من الشعر شبتاء والقطن الابيض صيفا ، وحمد هذا من افراد القبيلة وله زوجتان الاولى نوفه والثانية شعيلة ، وقد تجمهر بعض الرجال والصبيان من النزول المجاورة حول مصنع الجبن الصغير ، هاتفين : وصل الجبان ! ... وصل الجبان !...

وانتشر الخبر بين افراد القبيلة كنار في هشيم . وفي المساء زار خالد بيت شيخ العشيرة ليسلم على الشيخ والرجال ، وردوا عليه التحية : يا هلا بالجبان . تفضل اجلس يا ضيفنا ..

قال الشيخ :

ـ سمعت انكم نزلتم بمرمى فارس ، هذا المكان زين انه يتوسط المضارب وكل الناس لديهم القدرة لايصال الحليب في الوقت المحدد ، واضاف الشيخ : بكم سعرتم الحليب هذه السنة ؟ وكيف ستشحنون الجبن على الجمال ؟ او بالسيارة الشاحنة ؟

ورد خالد :

ـ لقد اتيت لمنزلكم للسلام ، وانوب عن معلمنا الحجي بتقديمه لكم . وقد نزلت كما تعلم بمرمى فارس ولدي الامكانيات ان استلم الحليب وقت الظهر والعصر ، مهما كان حجم الانتاج اليومي للناس ، وانني جاهز لاية رغبة ترغبونها بخدمة العشيرة وما يأمر به الشيخ فأنا حاضر له .

قال الشيخ :

ـ هذا العمل زين يا خالد ولكن افراد العشيرة يرغبون معرفة الاسعار ، والثمن هل يدفع هنا او في المدينة بخان الحجي ؟

رد خالد قائلا : بشصفك

ـ انت تعلمنا يا شيخ ، وكما ترغب ننفذ ، والناس تفرح بزيادة الخير ، والسعر كما تريدون .

انت تفصل ونحن نلبس .. ان رغبت بسعر الرطل سبعة ، فسبعة ، وان شئته ثمانية فموافق . وهذه اسعار كل الناس . وكان الرجال يزدادون تجمعا وكلهم يسمع حديث خالد وسرى لغط بينهم عن رخص الاسعار .

فقال الشيخ :

ـ اسمع يا خالد . كلامك مسموع من اغلب الرجال ، والحلال حلالهم .. وهم الذين يبيعون الحليب ، فما رأيكم ايها الرجال ؟ .

ـ تكلم جاسر من الحاضرين فبين ان ما يراه الشيخ ، يوافقون عليه ، لكنه لفت نظره الى ان الناس ، في النزل الشمالي يقبضون تسعة ونصف ثمن الرطل ، وعلى كل حال ، كما يقول الشيخ يكون ، قالها جاسر ، ووافق الحاضرون .

قال الشيخ :

سنة ايضا ويأتي ، لقد اعتدنا على معاملته ، وهو صاحب وجدان ، والحق حق ، والناس ستأخذ حقها . وبعد الذي سمعته من جاسر وموافقة الحاضرين ، فنحن اسوة بغيرنا : تسعة ونصف ، ما رأيك يا ولدي خالد ؟

ورد :

ـ نحن بمضاربكم ، والذي يتكلم به الشيخ لا يمكن مخالفته ولا يوجد خلاف كبير حتى يبيع الانسان صديقه ، ومن يرغب بسلفه فأنا جاهز لاقدمها له على الحساب ..

قال الشيخ :

بارك الله فيك يا خالد . انت رجل طيب . وقالت اصوات : خالد طيب ، ولا بد من سلف ، ونحن خارجون من فصل الشتاء .

قال رئيس مركز الجبن :

ـ انا عائد للمركز ، فمن يرغب سلفة فأنا جاهز بأي وقت ، وحسب الحلال الذي يملكه نسلفه ونحن نشكر الشيخ وليست هذه اخر سنة ولا اول سنة ، فأنا عمري من عمر المضارب لقد عرفت الشباب الذين تزوجوا وانجبوا ، لقد اصبح اولادهم رعيانا ، وانا جبان هذه العشيرة ...

وقبل ان يستأذن ويمشي ، قال الشيخ :

ـ اسمع خالد ، في كل يوم يجب ان اراكم ، وغدا العشاء عندي ، فأول يوم انتم ضيوفي مع السلامة .

عاد خالد الى رفاقه ، وقد هيأوا البراميل والقدور والاحطاب ، والمواقد بمساعدة بعض الرعيان المتواجدين بجانبهم .

وتحدث خالد مع عادل عن نجاح الاعمال ، وعن فرح الحجي ، عندما يخبر ، بالكميات التي ستصدر ، والمواشي التي ستدر ، في ظل الخصب والمراعي الجيدة .

ـ عاد حمد ، واحد من القبيلة ، الى بيته فتحدث مع عياله عن

السعر ، تسعة قروش ونصف للرطل واستمع له النسوة والرجال والاولاد لانهم جميعا يشتركون بحلب الماشية ، وتوريدها الى مركز الجبن ، الجميع انصتوا للرجل صاحب البيت ولم يعترض احد ، لكن نوفه زوجته الثانية قالت :

ـ السعر رخيص ، كان يجب ان يكون عشرة لكن ما دام رأي الشيخ هكذا فالسترة على الله ...

كان حمد في سياق تزويج ولدين من اولاده : واحد مقايضة ببنته الكبرى ، والثاني بمهر ، والمهر غال جدا عند البدو ، وخاصة اذا كانت العروس من بنات الشيوخ او الوجهاء فهي اصيلة ومهرها غال ، سواء كانت جميلة ام غير جميلة .. وحمد بحاجة الى مبلغ من المال حتى يستطيع ان يعد الجهاز ، والرجل هو المسؤول عن الجهاز ، والفتاة تجيء بفرشة ولحاف ومخدة فقط ، واتفق حمد مع زوجته على ان يستلف مبلغا من المال من مركز الجبن ويسافر الى المدينة مع الاولاد والزوجة الاولى ..

ليلتها كان القمر بدرا ، والطقس نديانا ، ونسيم الصبا يفعل في النفوس ، كما يفعل في الازهار والعشب ، والناظر الى قطعان الغنم المنتشرة في الساعات الاولى من الليل يظنها ، قطعانا من الغيم تجثم على سفوح وادي العزيب ، ومنعطفات الوديان الملتفة .. وتنطلق سمفونية عجيبة من ثغاء حملان الغنم الفاقدة اهلها ، ـ المزروبة في المضارب ، الى نباح الكلاب ، اصدقاء الرعاة الخلص ، وقد تشممت رائحة ذئب ، او رجلا غريبة اقتربت من القطيع ، الى شبابه راع ينفخ على هواه ، او الى هواه !.

في هذا الليل الرائع وقف خالد وعادل ، امام مركز الجبن يتأملان في السحر الحلال ، وفجأة لمحا في البعيد القريب ، شبحين يتهامسان ، وعرف خالد احدهما ، كان ابن حمد بقامته المشوقة ، اما الشبح الاخر ففتاة .. كان همسهما مسموعا ، وتكاد تتصاعد منه الزفرات ... وافترقا بسرعة ، فالفتاة دخلت في الليل .. ومشى الشاب باتجاه المركز ، وفجأة شاهد خالدا وصاحبه ، فلم يضطرب ، بل حياهما وسأل عن والده ، ففنى خالد ان يكون قد حضر .. ودعاه الى الجلوس، وسأله قضاء اي حاجة ، ورد الفتى بالشكر ، موضحا انه كان بزيارة اخيه في القطيع ، وظن والده عندهم وانه سوف يزورهم كل يوم ، وابدى استعداده لتلبية جميع طلباتهم ، وحيا وانصرف ... قال خالد لعادل :

ـ صحيح قد كبرت ولكنني لا ازال احس .. وكم اعطف على

هؤلاء الشباب ! ..

فأجاب عادل :

ـ لا شـك انها فتاتـه . وغدا يأتي والده ويستلف له .

وسمع عواء ذئب من بعيد ، وسمعت أصوات كلاب ، ومر رجل على فرس مسرعة وامامه بندقيـة فسلم عليهما وانعطف الى حيث مصادر الاصوات ، ودخل خالد وعادل خيمتهما وناما .. واطل صباحهما مـع حمـد اذ كانا قد اشعلا النار ووضعا عليها ابريـق الشاي . وحياهما حمـد مؤهلا بجيرتهما ومذكرا بمعرفتهما القديمة وخصوصا بخالـد ، والتفـت اليـه قائـلا :

اتذكر يا خالـد ، اعرفـك من العزوبية والسنة سأزوج ولديـن وبنتا ، كـم لك من الاولاد يا خالـد ؟ .

ـ خمسة اولاد واربع بنات من زوجة واحدة والحبل على الجرار ، زوجتي ليسـت كبيرة ، والبركة بالاولاد والرزق على رب العباد .

قال خالـد دون ان يزفـر :

ـ الاولاد خير وبركة ، والله قال المال والبنون زينة الحياة الدنيا . وانـت تعلم يا خالـد انني سأزوج ولدين وابنتي هذه السنة ، وانتـم تعرفـون اني املك اربعمائة رأس حلوب من الغنـم وارغب بسلفـة عشرة الاف ليرة على الموسـم .

رد خالـد :

ـ ارجو ان تهنأ بأولادك وتفرح بهم ليذجبوا رعاة اشداء يربـون الغنـم ويذكرون جدهـم حمد الرجل الكريم .. وما دام الامر سلفـة وعلى الحساب فأنا لا ارد لك طلبا ، ولكنـك تعرف يا حمد انني هنـا لا املـك هذا المبلغ بكامله ، سأكتب لك رسالة للحجي وتذهب الـى المدينـة وتقدمها له وانـت تعرف الخان جيدا ، فقد زرته ايام عرسـك وجهازك واتى اليوم دور الاولاد ، والحجي دائـما بالخـان وما ترغبـه وما تحتاج اليـه سيكون بتصرفـك ، وتحـت خدمتك .

وطلب منـه حمـد ، ان يكتب له كتابا يسير بـه الى خان الحجي بالمدينـة . ولا خشية على توريد الحليـب ، فالبيت يمور بالشباب ، وعمد خالد إلى ورقة فكتـب فيها :

ـ حجي ... السلام عليكـم ،

من خالد بوادي العزيـب بمرمى فارس ، قادم لكـم حمد يريـد زواج اولاده . الجهاز والمهر كما تعلم غال ، عند البدو ، وهو يملـك اربعمائة رأس غنـم حلوب وعشرين جملا والبقية لا داعي لذكرها .

والسلام عليكم .

خالد

وحمل حمد الرسالة وفي اليوم التالي شد رحاله ، وركب فرسه ومعه زوجته وولداها والابنة قاصدين المدينة وبعد مسيرة يوم متواصل ، اناخ رواحله بالخان وربط فرسه فيه .. واستراح وعياله بالغرفة المعدة لاستقبال مثل هؤلاء الناس ، ورحب بهم السايس كثيرا ، وطلب منه حمد ان يخبر الحجي ان لديه رسالة من خالد بمرمى فارس . فدخل السايس الى غرفة الحجي واخبره ان احد البدو يحمل له رسالة من خالد .

فأدخله عليه وسأله :

ـ من اي العشائر قادم ، وفي اي مكان مضاربكم ؟

ورد حمد :

ـ انا من عرب الغطفان ، نازل براس وادي العزيب جانب مرمى فارس تفضل اجلس ، ، قالها الحجي ، وهو يبتسم له ، ويقول وهو يفض مكتوب خالد :

آه !. بوادي العزيب ، بمرمى فارس مضاربكم ، خير امر ... فارس .

قال حمد :

ـ فضلكم على العربان خير وبركة ، مركز الجبن يحل كل مشاكل البدو .

ورد الحجي بتواضع :

نحن نريد أن نخدم الناس ، وشيخ عشيرتكم عزيز علي ...

ونادى السايس ليقدم له القهوة المرة . وطلب اليه أن يحضر تاجر القماش ، وتاجر الاحذية ، والسمان .

ـ اسمع حمد ، اذهب انت وعيالك ، مع هؤلاء وما ترغبون به خذوه .

والى الاخرين :

ـ ارسلوا الي الفواتير المستحقة على حمد ، مع السايس .

ـ فضلك يا حجي زاد علينا ، وانا ادعوك لحضور العرس في الشهر القادم . قال حمد وشكره الحجي متمنيا ذلك ، اذا سمحت له اشغاله ، خصوصا ليتشرف بزيارة صديقه الشيخ ، لانه مشتاق اليه كثيرا ويكاد يقتله الحنين ! .

ونهض حمد وعياله مع اصحاب المتاجر حيث اشتروا ما يحتاجون اليه من لوازم وحاجيات وجاءت الفواتير الى الحجي ، وقد اضيف اليها ٢٥ ٪ على الاسعار .. وكانت الفواتير بقيمة خمسة الاف ليرة ونقل حمد وعياله البضاعة الى الخان وما لزم من بن وشاي وسكر وانتظروا عدة ايام لاجراء بعض الخياطات الرجالية . ثم اجتمع حمد بالحجي وسأله عن المبلغ المتوجب بذمته .

فقال الحجي :

تعلم يا حمد بأنك عزيز علي . وقد قدمت لك ارطال بن ، ورطل شاي ، وشوال رز ، ونصف شوال سكر ، كهدية ، من عندي للفرح ... اما الحساب فهو مبلغ عشرة الاف ليرة .

وقال حمد :

ـ كما هو مكتوب في فواتير التجار ! انت اعلم منا في السوق وتعرف اصحاب المخازن والمتاجر ، ويمكن ان تراعينا اكثر من الاخرين .

وقال الحجي :

ـ طبعا .. انا اعمل معكم منذ سنين ، وعادل وخالد بمرمى فارس ، كل سنة يكونان عندكم ومن عندي لكل عريس شبرية (١) ولكل عروس حبرية (٢) .

واضاف :

ـ انشاء الله بالعز !

وحمله رسالة لخالد فيها انه قيد لحساب حمد عشرة الاف . أما بنات حمد وخطيبة ابنه ، فكن في المدينة كالمهارى المذعورات ، يقفن كالمشدوهات امام المخازن والمتاجر وقد اخذ منهن العجب كل مأخذ ، ولم يفت جروه ان تشبه الدكاكين المتجاورة بصف الغنم المربوط بانتظار الحليب .. اما غزالة فقد اكلت عينيها الاسواق المسقوفة وحجم الابنية وضخامة النواعير .. وانصب تعجبها على كيف تم كل هذا ؟ .

على ان وجودهما في المدينة قد أمن لهما انتقاء الاقمشة ذات الالوان الزاهية ، وقد عادتا الى البادية بالبقج المعصفرة والمطرزة ، واكياس البن والسكر والشاي وحب الهال . ولا يكاد حمد يفضي بالرسالة الى خالد ، حتى نرى صاحبنا مشغولا بقضية اخرى بعد يومين

ـ مفضي رجل من هناك ، ارتكب منذ سنتين جرم قتل واجتمع

---

(١) ـ اي خنجر للرجل ، ومنديل للمرأة .

وجهاء العشيرة عند الشيخ وغرم بمبلغ خمسة الاف ليرة ، كان عليه ان يدفعها لاهل القتيل ، ولكن مفضي لا يملك هذا المبلغ فذهب لخالد في مركز الجبن وسأله الاستلاف ، لدية قتيل وعد الشيخ بأن يدفعها خلال اسبوع ... ويملك مئتي رأس غنم حلوب .

وكان جواب خالد ان كل شيء يتم بالخان في حماه ، وزوده بالرسالة التالية :

من خالد بمرمى فارس بوادي العزيب الى الحجي ، السلام عليكم .. .واصل مفضي لديه مئتا رأس غنم حلوب ، مطلوب منه دفع دم قتيل .. اعلمنا .:

وطار مفضي على فرس برق ، الى حماه .. ومن جديد : الخان والسائس ومربط الفرس والحجي ، ودعه يدخل .. واهلا مفضي ، والقهوة المرة .

قال مفضي يا رب :

ـ ارجو أن تكون بصحة جيدة وان تكون قد قرات الرسالة وفهمت ما اطلبه ، وانت رجل كريم وتحل لي هذه المصيبة .:

قال الحجي :

ـ الخمسة الاف ليرة تريدها سلفة على الحليب ، ومن الكفيل ؟

قال مفضي :

ـ الشيخ يكفلني ، وعلي ان اعود بسرعة حتى اقدم هذا المبلغ في الوقت المناسب .

قال الحجي :

ـ ولكن مبلغ خمسة الاف ليرة كيف يسجل عليك ؟ الافضل ان تأخذ المبلغ من البن والشاي والسكر .. ونسجل قرضة ، وثمن بضاعة عشرة الاف ليرة ، فهل توافق على ذلك ؟ .

قال مفضي :

ـ كما ترغب ، انت ادرى مني بالحسابات ، فقط لا بد من مبلغ خمسة الاف ليرة ، وكما تسجل نحن نسدد . ونحن من زمان بعيد نتعامل مع الحجي ، دون ان نراه ..

قال الحجي :

ـ تفضل ابصم على هذا السند ، مبلغ عشرة الاف ليرة على مفضي ، وخذ هذه الرسالة بطريقك الى خالد .

قال مفضي :

سوف اوصلها غدا انشاء الله .

وعاد مفضي الى المضارب بخمسة الاف ليرة ثمن الدم ، ورسالة الى خالد فيها قرضة الله حسنة عشرة الاف ليرة ـ الحجي .

وكثرت الحاجات ، وتتالت الرسائل :

فلاحة ، رجل اخر من العشيرة ، يرغب بشراء بندقية حربية تكون في بيته وذهب فلاحة الى خالد ، وخالد ارسله الى الخان ، والرسالة مكتوب فيها :

حاملها فلاحة ، يحتاج الى بندقية ، والحياة بدون امان .. والسلاح مثل الاخ ، وهو يملك خمسين حلوبة والسلام ..

وشد فلاحة على جمله ، وام المدينة الى الخان وسلم الرسالة للسايس ، فسأله :

هل انت قادم من عند خالد ؟ من اي عرب انت ؟

قال فلاحة :

ـ وما دخلك انت بقبيلتي هذه رسالة للحجي ، والسلام .

قال السايس مغتاظا :

ولماذا انت هائج كالجمل ؟.

قال فلاحة :

ـ لاني راعي جمال ...

وحسمها السايس ، بدخوله على الحجي وبيده الرسالة وهو يتمتم .

ودخل فلاحة فبادره الحجي بقوله :

ـ وجهك ليس غريبا عني فأين شاهدتك قبل اليوم ؟

رد فلاحة :

ـ عند ظنك ، فقد كنت بركب الشيخ عندما تعشى في قناق البيك .

قال الحجي :

ـ خيرا يا فلاحة ، ماذا تريد ؟

خالد شرح لك كل شيء .

قال الحجي :

ـ صحيح الامن قليل ، والحرام كثير ، والسلاح أخ ، ولكن لا بد من بن وتمر على الحساب .

وقال فلاحة :

ـ كما ترغب وسجل على الحساب بن وتمر وشاى وسكر ، ايضا ، ولكن الالف قبل الجميع ويصبح مدانا لسنه ، بالفين ومئة ليرة سورية قرضة الله حسنة !.

وهكذا هو فصل الربيع لدى البدو فيه تحل المشاكل ، لانه

فصل الانتاج .. وهكذا كل مركز من مراكز الجبن ، يحمل نفس التعليمات ، ويستقبل نفس الاستقبال ، والمسلسل يعاد ، والاموال تصب في الدهليز ...

وفائدة البيك من البادية قليلة ، تقتصر على وجاهة اجتماعية ودعم سياسي لمركزه اكثر من الفائدة المادية ، ومن هنا فربح الحجي مع البدو في السقف واكثر المنتوج تؤول ارباحه اليه ، كساء وحذاء وبعض اغذية وخصوصا البنادق والخناجر والذخائر ، وكل ما يثير الخلافات ويسبب العداوات !.

والذي لا يستطيع تسديد ديونه في الموسم ، يدورها الى ربيع اخر ، وغني عن البيان ان المبلغ مكفول من الشيخ ، ولا بد من ترويج دعاية عن تساهل الحجي ، وطول باله ومساعدته للمحتاجين .

ذات مساء وصل بيت شيخ العشيرة ثلاثة من رجال الدين طار صيتهم على انهم من رجال الله وخصوصا الشيخ عبد القادر ، الذي لا توجد في رقبته عظام ، ولا فقرات ، ولذلك فلا يرى الا ملوحا برأسه يمنة ويسوة ، واحيانا الى امام وخلف ، كان يمتطي فرسا بيضاء ، والاخران صهوتي حمارين قويين . ولرجال الدين حضارة زاهرة في اقامة حفلات الذكر ، كما انهم يعقدون لراغبي الزواج ، او المتخلصين منه بالطلاق ، هذا الى حجب يكتبونها فتحمل عاقر ، او تعود امرأة ناشز الى زوجها . او يعود معد الى غرام بها ، كأقوى ما يكون الحب ! والحجاب الذي يكتبه الشيخ عبد القادر مسحة رسول ، او قضاء من الله وقدر .. علىْ ان حجاب الشيخ بخروف سواء انتج او لم ينتج ! لكن اذا صدق فلا بد من خروف اخر ورطل سمن وجزة صوف . اما زكاة عقد الزواج فحمل من الزوج ونعجة من الزوجة .

وما اسعد البيت الذي يسهر به الشيخ انيس الله ، وجلس الثلاثة في صدر المضافة وذبحت لهم خرفان ثلاثة ، وتحلقوا في الليل على مدفأة هي حفرة تتوهج ببعر الجمال الذي يغير بصيصه لون الوجوه ... ومن حول النقرة هذه اباريق القهوة مشرئبة الرؤوس ورحب الشيخ بضيوفه الكرام ، اهل الله .. والتفت الى حمد من بين رجال القبيلة وشبابها المتحلقين ، فقال له :

يا حمد ، عندك فرح ، والشيخ عبد القادر هو الذي يعقد القران .

وقال حمـــد :

ان قدوم الشيـــخ خير وبركة على العرسان ، وغدا نكتب الكتاب ، ونعقد القران ، والشيخ واخوانه هـــم اهل الفضل ولهم الزكاة ، وعندي على الطعام .

وعاد الشيخ يرحب من جديد وتمنى لـــو اقـــام الســـادة الرجال الثلاثة حلقة ذكر ، بضوء القمـــر ...

واستجاب الشيـــخ الذي ليس في رقبتـــه عظام ، واقام الحفلـــة على لهـــب الحطـــب بضوء القمـــر ، واخذ دفه فصار ينـــقر عليـــه ولعلع صوت اخر بموشـــح ، وكان الثالث يرد : صلوا على محمد خيـــر البريـــة ، ومن يخالفنا تصيبـــه بليـــة ...

ويتطور نقر الدف فيبدأ الافراد المتواجدون بالوقوف ، وامالـــة الرقاب على وتيرة واحدة يمنـــة ويسرة وهم يقولون :

الله ــ اللـــه ــ اللـــه ــ اللـــه ... ثم تسير العدوى الى كل الحاضرين ، فاذا الجميـــع بحالة من الهيـــجان العـــام ، والدوخـــة الجماعية . وفجأة يحاول الشيـــخ عبد القادر الهـــجوم علـــى النار والوقوع فيها ، فيدب الرعـــب بين افراد المبدو ويتصورون انه مر بها ، ويهرب الناس ويشهر الشيـــخ الخنجر ، ويتصاعد هـــرج ومـــرج ، ويستفحل ذعر .. ثم يعود الشيـــخ الى نقر الدف ويقف وحده صارخا : الفاتحـــة ... لقد انهى الحفلة والسهرة معا ...

ولا يفوت خالد وعادل وقد كانا حاضرين .. ان يؤكدا لشيـــوخ الدين استعدادهما لشراء كل ما سيصيبهما من واجبات القبيلة ، فباركه الشيـــخ عبد القادر واثنى على الحجي ثناء حسنا شديدا وخصوصا على حبه للخير والاحسان ، وعن دينه وعن حجه كل عام .. وخصوصـــا سهره الليـــل والنهار لخدمة الناس . وافاض في امانته وعدم اكلـــه المال الحـــرام ...

في يوم اخر انتصـــب قرب معمل الجبن اكثر من اثني عشر مضربا لـــم تكن بالامس .. والنور اقوى من كلاب الصيد شما ويمتهنون مهنا كثيرة ويضربون لقمة العيش من اكثر من باب : فأسرة تختص بالخواتم والاساور ، وصناعة المحارم والزنانير ، والقروط والخلاخيل ، وحـــزه الانوف ووشم السواعد والاكف ، وربما حلا لاحدهـــم ان ينقش اســـم حبيبتـــه على صدره فمناخس النور وابرهم تنفذ الى حيث لا تصـــل اشعـــة « اكس » وهذه اسرة تعتني بتلبيس اسنان الذهب حتى تحلو

افواه العشاق والمصبايا والمراهقين . وهذه عائلة تضرب بالودع .
واذا كانت العقول المثقفة لم تتحرر بعد من شوق لمعرفة الغيب ، فلك ان تتصور عقول البدو وسائر البدائيين مع ضرب الفال ...
وهذه عائلات الفت بينها جوقة متكاملة فيها الطبال الزمار ، والعواد ، ومن يجر على الرباب .. والحجيات هن الراقصات ذوات القدود المشوقة الملتوية كحيات بلا سم ، وكانت نوفة وسارة اروعهن رقصا وغناء .
وللنور مع الفرح موعد ، واكثر من كتاب حضارة على الطبيعة وحضارة .. يعيشون كأسراب الطيور لا يهمها سوى النقد والنقر والمراعي النظيفة ومسارب المياه الرقراقة .. يعيشون بمساواة بدائية ويقتسمون لقمة العيش بلا طمع ، لا يدخل البكاء الى عيونهم او بيوتهم ولا ينامون على هم ولا يشغلون بغد ، حتى كأن ليس لهم غد ، ضربوا خيامهم بجانب خالد ورحب صاحبنا بكبيرتهم الحجة نوفة ، واعلن عن خدماته فورا :

سيشتري منهم كل ما ينتجه الرقص والفقش والاسنان والخلاخيل .. وما نسي ان لها تنكة جبن كعربون محبة .
في ذلك اليوم زارت نوفه بيت الشيخ ، وكان حمد حاضرا وبعد ان رحب بها شيخ القبيلة التفت الى حمد مبشرا :
الليلة تعمرها نوفه امام المضرب على وهج الحطب وضوء القمر ، وغدا في بيتك وجه عرسانك خير على القبيلة ، البارحة شرف الشيوخ واليوم الحجة .

واجاب حمد :
ـ يا طويل العمر !. انا اعرف الحجة نوفة من ثلاثين سنة .
ويلتفت اليها :
ـ كيف العيال ، والحوال ، وصفاء البال ؟
وردت نوفه باعتذار :
ـ انت تعرف البنية الاولى ، الليلة تشاهد ساره ...
كانت الليلة عامرة بالفعل ، وعمرتها الحجة بعناصر قليلة : بنتيها والطبال ، وصاحب العود . والناس يتحلقون من حولها كما تتحلق اباريق البن حول النار .
غنت نوفه قصيدة في مدح الشيخ ، وهلل القوم وطربوا ،

ورقصت البنتان فأبدعتا واشتغل الشوباش (١) وسرت عدواه بين البدو وكنار في هشيم ، دخلت الايدي في الجيوب تدفع بحساب ، وبغير حساب . وتحمس احدهم فينزل الى الحلبة ، مع خنجره ، فيرقص امام نوفه معيدا اليها ذكريات شبابها المبكر ، وتنهض هي بدورها ، فترقص مذكرة الجميع بأمجادها القديمة فما زال في الجسد شوق ، وفي الجيب حاجة ، لا تنسى الحجية الدهرية ان تشوبش على شرف الحجي الغائب : صديق العربان وممولهم ومزوج العرسان ومسلح الفرسان .. وبيض الله وجهه .. ولا يفوت خالد القيام بواجباته نيابة عن معلمه ، الموجود بالخان ! فكل شيء بحسبان . وتتالت الليالي الملاح ، وتتالت على النور هدايا الخرفان والاصواف والالبان وكل شيء يصب اخيرا في حوض خالد ! .

في عصر احد الايام وصل الشاعر مع فرسه وبندقيته والرباب ضيفا على سيد القبيلة ، الذي احتفى به وذبح له .. وللرباب حضارة في مضارب البدو لا تجارى ولا يعلو عليها حس .

وبعد ان اصلح من وتر الربابة بالشد والتشميع ومن بعدها بالتسخين فصارت ترن لنسمة ، او لثمة .. بدأ يجر فلم يبق احد لم يهتز .. ومدح الشيخ بشروقي متداول وعرج على الحجي الغائب بقصيدة اخرى ، وروى قصة وضحا الحزينة ، وابن عدوان.. ومر بعزيزة ، بنت سلطان تونس ، وحكايتها مع دياب بن غانم ، من عرب بني هلال . ودخل الى قلوب الجميع من نوافذ وابواب الحنين واللوعة والاشتياق والفرح والبطولة والعذاب والفراق واللقاء .. حتى احتلهم وسكتهم جميعا .

واستبدلت هداياه الثقيلة من خالد بالخفيف الحمل غالي الثمن .

وما يحدث هنا يحدث في كل قبيلة وقوافل الشحن تصب في حماه كما تصب في كل مدينة .. والحجي على سلاحه :

تدقيق السندات والفواتير والاستحقاقات ووضع كل شيء في مكانه ، بأسلوب معقد وبسيط في آن ، يعجز عن فهمه ، أبرع الاقتصاديين واوفرهم معرفة واختصاصا .

ونشاط الحجي ليس مقصورا على البادية والالبان والاجبان والاصواف والخرفان ، بل ان مجاله يطال بعض مناطق الفلاحين ، وخصوصا المنطقة الغربية التي تكاثر فيها الفلاحون المسيحيون اذ انشأ

---

(١) ــ الشوباش : زغردة تطلقها النورية ، وتنوبه علني بقيمة الشخص المحتفى به .

لابي جورج ، وهو واحد من هناك على شاكلته وقدرته ، خانا يقال له الخان الغربي ، لا يختلف عن خانه في حماه في قليل او كثير ... وبين الحجي وابي جورج لقاءات مستمرة وهاتف لا ينقطع له صوت .. وفي المنطقة الغربية هذه عادات وتقاليد ومواسم غير المناطق الاخرى وخصوصا بعيد الربيع حيث تدق الطبول والزمور وتكثر الاعراس والزيجات والخطوبات . وعيد الربيع يشترك فيه الجميع نصارى ومسلمون ... ويستطيع به الجميع ان يشتروا ويبذخوا ، وهكذا يزحفون الى خان ابي جورج يستلفون ، أما السلفة فعلى بيع الجاموس او جلده ، وعلى سمك السلور الاسود ، وعلى الفول والحمص وسواه من المواسم الربيعية . على أن التجارة الاوفر ربحا والاكثر ازدهارا انما هي تجارة الخنازير .

ولو عدنا قليلا الى خلف لشهر او شهرين لعرفنا كيف تسير الاعمال بدقة الساعة المنتظمة وذلك من حوار بسيط سجله هاتف بين حماه وبيروت :

الحجي :

ـ الياس نحن في شباط ، قبل أول اذار يجب ان تصلني عشرة ملايين ليرة ...

الياس :

ـ غدا . لماذا اول اذار ؟ كيف الموسم في البادية ؟ اسمع نحن بحاجة الى صفقة خنازير : خمسة الاف .. عشرة الاف .. ان كان بامكانكم شحنها كلها في سكة الحديد .

الحجي :

كل شيء مؤمن بعد الاسبوع الاول من اذار ، واذا كنت بحاجة الى كمية اكبر فخبرني .

الياس :

الجواميس ، الجواميس ، بحاجة الى الفي راس ، من ذوات السمنة والقدر الكبير .

الحجي :

كل شيء جاهز .. كيف صحتك انت وكيف صحة ام جيسكار ، وغلادس ، البيك يسلم عليكم وعليها .

الياس :

ان رغب سعادته ان يقضي اسبوعا في بيروت فأهلا وسهلا العائلة

اشتاقت له كثيرا ... سلم .

وبعد ان يسحب الحجي نفسا طويلا من نارجيلته ويتبعه بآخر ثالث ... يمد يده الى سماعة التلفون ثم تدور بين خان حماه ، وخان الغربي الكلمتان التاليتان :

الحجي مدلعا : اهلا ! ابو جورج .

ابو جورج : اهلا حجي .

الحجي : تعال فورا .

ابو جورج : بين يديك .. مع السلامة ! .

وبعد ساعة او اقل او اكثر ، يعلن السايس عن قدوم الرجل ، فيدخله الحجي ويجلسه بجانبه ويخيره بين القهوة او الشاي ويؤكد له ابو جورج ان الذي يشرب العرق لا تفرق معه ويسأله الحجي عن صحته بكلمة عابرة ، ويدخل فورا للسؤال عن الاعمال ويقول أبو جورج انه مع دقة الناقوس المبكرة في القداس الاول ينهض ، ومع اذان العشاء يعود الى البيت وكل الشباب الذين معه على شاكلته ومثاله .

وخبره الحجي ان الياسا طلب منه صفقة خنازير وجواميس مستعجلة .

قال ابو جورج :

ـ سلفت كثيرا على الخنازير والجاموس ، وامكانياتي متوفرة لحدود خمسة عشر الف خنزير وثلاثة الاف جاموس .

فكيف همتهم على الشحن ؟

قال الحجي :

ـ علينا أن ندقق الكمية قبل ان نخبره ، والشحن لا عليك ... ولكن اخبرني عن ارباح الجاموس والخنزير ...

ورد ابو جورج مزهوا :

ـ الحقيقة يا حجي ان قرش الجاموس يربح خمسة ، اما قرش الخنزير فيربح عشرين واكثر من ذلك فذمتي لا تطاوعني .

قال الحجي :

ـ هذه تجارة وما دخل الحرام والحلال . ونحن يا ابا جورج لا نجبر احدا على الاستلاف والناس احرار ومن لا يعجبه لا يستلف ، ونحن نقضي حاجات الناس ونخرجهم من الضيق وهذا هو عمل الخير .

واكد ابو جورج :

ـ انا معك وكيف صحة سعادة البيك ، سأدعوكم على عشاء

عندي فلدي جرة خمـــر عمرها عشر سنوات . وتنكة عرق شـــغل الكـــورة ...

هز الحجي راســـه قائـــلا :

ـــ عندما نرتاح سنذهب اليك ، ولكن حدثني عن الخنازير وطـــفق يتحـــدث أبـــو جـــورج :

ـــ الناس بالمنطقـــة الغربية يجادلون كثيرا ولكن بالنتيجة يذعنون لمـــا ارغـــب .. وبالاسبوع الماضي جاءني بطرس حنا ، وابيـــح لنفسي ان انقـــل اليـــك الحوار :

قال لـــي بطـــرس :

خواجه أبو جورج غدا العيد وقاصدك والاولاد كثار .

فقلت له . حير وبركه ، كـــم عندك ما شاء الله ؟

قال : عشرة ..

وقلت : عشرة يحتاجون الـــى فت خبـــز .

وقال لي بطرس : نحن مثل البدو ... الخوري عنده ١٣ ، الاولاد بكرا ، ناس لرعاية الخنازير ، ناس للجواميس ، ناس للفلاحة . وناس لنطر الكروم ، ربـــك ستار .. والحبل على الجرار . كلما نمت مـــع ام حنا تحبـــل .. ولولا التسعة اشهر لحبلت مرتين في السنة .. وانت كـــم عنـــدك ؟

وقلت لـــه : صبي وبنـــت .

فقال : ولو ابو جورج . انـــت غني وبعد عمر طويـــل ، من يرث المال ... انا عندي بيتان واحد للعيال وواحد للمواشي ، الولد رزقة ، يأتي وتأتي رزقتـــه معه ، والقوي يعيش والضعيف يصطفل ... والان كـــم تسلفنـــي انا بحاجة الى الف ليـــرة .

وقلت له : على الخنازير فوافق وسأل عن السعـــر . فقلت لـــه الكيلو بفرنـــك ولما استخف بالمبالغ افهمتـــه ان هـــذا هو كل ما عندي ، وهو حـــر . ووافق فسلفتـــه ، وحملته سلامي للخـــوري وللعائلة ، وهكذا ترى يا حجي اننا نشتري العشرة اطنان بخمسمائة ليـــرة وتبيعها انـــت ببيروت بخمسة الاف ..

قال الحجي :

فعلا اربـــح من الخاروف والجبنة ، ثم ان فترة حمل الخنازيـــر قصيرة جدا : بطنان او ثلاثة بطون في السنة ربـــح محترم فعلا ..

ولـــم يفت ابو جورج ان يحدثه عن عباس ، وعمر ، والاستلاف على

المواسم والسندات والقرش ثلاثة ولا ينسى الحجي في نهاية الحديث ان يؤكد مجددا ان التجارة هي التجارة وان الارباح معتدلة لانه لو اخذت حصة الياس بعين الاعتبار وحصة البيك والهدايا .. فهم قوم بمنتهى القناعة والاعتدال .

ويختم :

ـ بلغ الاخوان ان يرفعوا الاسعار ١٥ ٪ مع السلامة .

اقبل الربيع نثر على الحياة جماله الفتان فازدهرت ازاهيره وبدأت نسماته العليلة تحمل عبق الازهار ورائحتها الزكية ، وبدا المطر يهطل بين الحين والاخر في انحاء متفرقة ، واستمر الامر الى ان اتى قمر نيسان في السابع عشر من هذا الشهر .. يوم الرابع منه هو عيد عند فلاحي المنطقة .

ما اجمل هذه الايام .. كل ما فيها خير في خير ونحن الصبية ليس لنا من مهنة في هذا الفصل سوى رعي الحملان والجدايا في الاراضي المنتشرة جوار القرية ، في هذه الايام كم عمر زهرة يقصف اذ ما تكاد ترفع رأسها حتى ندوسها بأرجلنا او نحطمها بجرابنا الذي نحمل فيه نبات الحيلوان (١)

في تطيعنا كانت احدى السخلات لها ميزة خاصة ، رمادية اللون عمرها حوالي الشهر تحمل تحت جيدها قرطين عندما يهتز شيء ما بقربها تجفل وترفع رأسها عاليا ، فأشبه ما تكون بالمراهقة الجميلة التي تشمخ برأسها حتى تبرز حليها وجمال عنقها مغرية جموع الشباب . أو تشبه ظبية صغيرة تقفز من مكان الى اخر فها هي قد شبعت حليب امها وتابعته بالرعي في المرعى الخصب الذي امتلأ بكافة انواع النبات الغض.

فتحت كتاب يتحدث في اصول اللغة العربية وتجويد القرآن حسب تعاليم ومعارف الشيخ عبدالرحمن واراقب القطيع بين الحينه والاخرى .

في ضحى ذلك اليوم الجميل اقبل علينا شيخان يرتديان لباسهما الابيض وعلى رأسيهما عمامتان بيضاوان كانا يمتطيان حمارين احدهما اسود والاخر اشهب اللون يسير بمحاذاتهما كر صغير حديث الولادة لم يفطم بعد وربطت اذناه بخيط من الشعر . فمرا علي وسألاني عن دار ابراهيم ، اشرت باصبعي آخر دار من جهة الغرب في القرية ، هل هو موجود في الدار ؟ .

اجبت : لست ادري ؟ على كل يوجد في الدار بعض من اهله . وانا ابنه محمد فاذا لم تجده فسيحضر بعد قليل فهو في القرية .

تابع الشيخان طريقهما باتجاه الدار ، عدت بعدها الى الدار فاذا هما قد افترشا حصيرا وفرشة ومخدة غرب الدار وسط العشب الاخضر، جلس قبالتهما كلب ، وبعد شرب اللبن ذبح النذر (الخروف) الذي كانت والدتي قد نذرته ، وعلى عجل سلخ وقدم معلاقه مشويا ومقليا بجزايين كمادة للفطور قبل الغذاء .

رحب والدي بهما كثيرا بينما كنت اراقبهما أحدهما كان يتجاوز الخمسين وهو كبيرهما بينما كان اصغرهما في الاربعين .

اخرج اصغر الشيخين شكة الدخان وجردها من العود واخذ يرمقها فأردف والدي : أرجو أن لا يبقى أي اثر للعيدان ويحضر الدرك وتكون الطامة الكبرى ، طامة الدرك والاتهامات بالتهريب والسجن والوساطات والرشاوى وقص عليهم والدي قصته مع العيدان السابقة قال اصغر الشيخين بعد أن سمع القصة ، لا بأس الثواب على قدر المشقة . وبما أنك انكرت عمل المشايخ خفف الله عنك واكتفيت بشهر سجن واحد .

كان طعام الغداء من لحم الخروف المسلوق الشهي قد جهز فتناول الشيخان الغذاء مع المختار الذي دعاه والدي الى هذه الوليمة .

في العصر مر وكيل القرية فسلم على الشيخين وكأنه يعرفهما منذ زمن بعيد وسأل احد الشيخين عن صحة البيك . وفي المساء اجتمع حول الشيخ الاكبر اغلب رجال القرية والمختار والوكيل والشيخ عبد الرحمن واستمعوا الى شرح ديني عن الفرائض الى ان انتهت السهرة حوالي التاسعة مساء .

كمادة الفلاحين ينامون باكرا اذ يستيقظون عند طلوع الفجر أو عندما تطلع نجمة الصبح هذه النجمة ذات الاثر الكبير في حياتهم والتي دخلت تراثهم فكم من فلاح اعجب بفتاة معبرا لها بقوله ان وجهك يشبه نجمة الصبح الصفاوية .

استيقظ الشيخان وسأل أحدهما عن مادة الكبريت الذي يداوون به الحكة لدى الغنم .

ولما كان متوفرا طلب قدرا فوضع فيه الماء وغلي مع الكبريت وأغلق الباب بعد أن خرجنا من الغرفة واغتسل الشيخ بالماء المكبرت الذي انبعثت منه رائحة قوية وحادة .

غادر الشيخان في الصباح بعد ان حصلا من الزكاة كميات غير قليلة من الخرفان والسمن فالمحمول حمل وما تعذر حمله استودع عند أحد الفلاحين لبيعه وأرسال ثمنه للشيخين الى قريتيهما .

كانت عملية استحمام الشيخ عامل عدوى واسعة النطاق اذ أن هامة الجرب التي أصابته عمت العائلة ومنها انتقلت الى سكان القرية ودوابهـــا .

حـــدث الشيخ عبدالرحمن الحجي في الخان عن مرض الجـــرب المنتشر بين الفلاحين وتابع أنه لا بد من توفير مادة الكبريت بكميات كبيرة.

استدعى الحجي السمان فورا وطلب اليه أن يستورد كميات كبيرة من الكبريت الاصفر وان يرفع سعره أربعة اضعاف . كما أوعـــز عن طريق البيك الى الوكلاء والمخـــاتير في القـــرى ضرورة اغتسال جميع الفلاحين ودهن جلودهم بالكبريت الاصفر وتعريضها للشمس .

أحضر والـــدي صفيحتين من الكبريت الاصفر وحلق لنـــا شعر رؤوسنا ، وقامت والدتي بـــاجراء حمام لنا بالمـــاء الفاتر ثـــم دهنت اجسامنا بالكبريت وهكذا فعل كافة أبناء القرية ورجالها .

وكم كان منظرا لا أدري ان كان رديئا محزنـــا أم مضحكا عنـــد تحلقنا عراة تحت أشعة الشمس وكنا ندور حتى يتم تعريض كافة أنحاء الجسم لاشعة الشمس بعـــدها كان يعـــاد الحمام بالماء الفاتر لازالة الكبريت العالق بالجسم وكان هذا المشهـــد يتكرر لعـــدة أيام حتى يتم الشفاء . أمـــا الكبار ونظرا لعوراتهم التي كانت لا تهم وغير ذات أثر عندنـــا نحن الصغار فكانوا يقومون بنفس العمل مضافـــا الى ذلـــك اقامة ستارة من الشراشف أو من وجوه الملاحف المخلوعة عن لحافاتها.

كان الوباء عاما حتى أن السنة النسوة قـــد انطلقت بنذر النذور حتى يتم شفاء هذا الداء الوبيل وكانت عملية غسل المواشي مترافقة مع عمليات غسل أجسامنا وكان الكبريت من مصدر واحـــد وممونه واحد وهو الحجي وأرباحه العـــالية تعود اليه .

لقد تضاعف سعر الكبريت في أقل من أسبوع عشر مرات وهكذا كوفح المرض وانتهى الوبـــاء خلال فترة قصيرة . لقد مضى على هذه الحادثة احدى وثلاثون سنة ولا يزال منظرنـــا نحن الصبية متحلقين ندور لتعريض كافة أنحاء جسمنا لاشعة الشمس مـــا فوق البنفسجية عـــالقا في ذهني .

انتهى الربيع وأقبل الصيف ومعه موسم الحصاد ولموسم العدس والجلبان هذا ، تقاليد بالغة الاهمية . فالعدس ينضج دفعة واحـــدة ولا بد من حصاده دفعة واحـــدة ، والا تناثر الموسم وتشتت . وقـــد جرت عادة الفـــلاحين على مهاجمة موســـمه بكثرة الحصاديـــن ، أو

« بالعونـــة » .

هذه أمور يعرفها الحجي عن ظهـر قلب ويعرف حاجة الفلاحـين المـاسة الى السلف المستعجلة ، من أجل الحواصيد ، وفي هذا الموسم يزيد نشاطه وتزيد شروطه .. كما يزداد رضوخ الفلاحين .

ولموسـم الحصاد على العموم تقاليد كثيرة ، فعلى الفلاحين أن يصنعوا الفريكة لسعادة البيك ، والفريكة شوي سنـابل القمح الطرية وهي دون البلوغ ليأكلها سعادته مع الخرفـان الطرية . كما عليهـم علف خيوله من الشعير .. أمـا وكيله فيتكفل بالفلقة لكل صبي او عاجز يضبطه متلبسا ببضع سنبـلات تحت « جلال حماره » . أمـا علاقة الحجي بالبيك فهي معروفة .

والفلاحون يسألون بعضهم بتندر أو بغير تندر عن البئر التي كلما سحب منها تزيد مأؤها .. والكل يعرفونها أنها صندوق الحجي . أن كثيرا من الفلاحين يتذمرون في الموسم اثناء تسديد الحساب .

وخصوصا اذا كان الموسم رديئا لكن الحجي لا يتذمر ابدا ، وهو كثير التساهل اذ يدور الحساب مع فوائده المعروفة الى سنة قادمة . على أن سعادة البيك لا يتدخل دومـا .. ولكن بناء على طلب الحجي ، والحجي المعروف بتساهله لا يجعل البيك يتدخل فالفلاحون كما يعرفون ويعرفهم الحجي لا يجب أن يعرضوا انفسهم لغضب البيك وكرابيج الوكـلاء .

ومن الخان العامر طلب صاحبنا بيروت ذات يـوم :

مرحبا الياس كيف الشغل ؟ هنا القرش أربعة !.

ورد اليـاس :

ـــ يجب أن تنشطوا يـا حجي ، انا بحاجـة الـى عشرف آلاف خنزير وخمسة آلاف جامـوس .. والشحن الـى طرابلس فهمان .

ـــ أجاب الحجي :

نعم فاهم ، وابو جورج سلف على أكثر من هذه الكمية ، الاسبوع المقبل كل شيء جـاهز .

يسمع الياس يقـول :

ـــ لحم الخروف مطلوب كثيرا في أوروبـا ، حتى مئة ألف خروف أنـا جاهز .

يقـول الحجي :

ـــ عندي عشرون الفـا والباقي يدبـر .

ويضيف اليـــاس :
أية كمية صوف يمكن تصديرها .. واضح كلامي ؟.
الحجي : واضح يا اخي واضح .. سأنتف صوف البدو والحضر .
يقـــول الياس :
لا تنس الجلـــود يـــا حجي !
ولا ينسى الحجي أن يعـــده بجلود الناس ايضا . ويضيف الياس :
كل المبالغ تكون عندك غـــدا ، وأم جيسكار تهـــديك سلامها ، وســـايكس من باريس .
لا تنس العدس . اجمع كل عدس المنطقة ، الباخرة جـــاهزة .
وكان الحجي يسمع ويعي ، وقلم بيـــده يخط على ورقة أمـــامه لائحة المطاليب التي لـــم يكن بحاجة اليها ، فذهنه آلة حاسبة ، ولكنه ، على سبيل الاحتياط والذكرى .

٤

انتهى الربيـــع وانتهى موسم الحصاد ، من السهل للبيدر ، بمختلف وســـائل النقل المعروفـــة . ونشط البيك شخصيا للمـــراقبة ، بلباس الميدان ، وبسيارته انوليس الاميركية ، أو الدودج الكندية ، ونظـــارته السوداء ، ينتقل من قرية الى قرية او بواسطة وكلائه على ظهور الخيل ، وقـــد يخرج الحجي احيانـــا مع البيك للمراقبة ، أو لتقدير المواسم أو لشحذ الهمم واستنهاضها لسرعة جني المحصول ، وتكون تلك الايـــام مناسبات للسهر مع النور الذين يكونون قـــد انتقلوا بدورهم الى بيـــادر الفلاحين لاحياء الليالي الترفيهية ، وجمع ما تيسر من الحبوب ، وبيع الخواتم والغرابيل ، والشوبـــاش .

وجلس الحجي ذات يوم الى نـــارجيلته في الخان ، وطلب بيروت ســـائلا عن الياس ليتدبر شـــؤون الشحن بالسرعة الممكنة . وعرض الياس حاجته الى الفي طن عـــدس مستعجلة ، قبل أن ترتفع أسعاره ، فتقل أربـــاحه ، كما عرض حـــاجته الى خنازير .. خنازير .. كما أكد له بـــأن مدير المحطة سيكون بخـــدمته ، ويلبي جميع طلباته مـــن أجل الشحن المستعجل ، وخلافه . وانهى المخابرة بقوله :

دع البيك يتكلم معي ليـــلا ..

وغـــادر الحجي خـــانه الى ابي جورج في الخان الغربي ، بعـــد

أن ابلغ سائسه بأمكنة تواجده ان سأل عنه البيك . .

وبعد أن اطمأن الى سلامة العمل وسرعته ، وتوفر المنتوج وكمياته ، انتقل الى المحطة للسلام على مديرها الذي رحب به ، وسأله عن صحة البيك ، وقال الحجي :

هل جاءك تلفون من الياس ؟.

ورد المدير :

الان ، . . ولكن هل تريد مضاعفة الشحن ؟.

ودون أن يلقي جوابه ، قال الحجي :

ـ قل لاحد الحمالين ، ينزل هدية الست ، لا شيء ، من قيمتها . . خاروفان وتنكة سمن . وقد أوصيت لها على خنوص خصوصي ، لانها تحب لحم الخنزير .

سوف تشكر عليه مع صبحي بك ، وأنت تشم فقط !. قالها المدير وهو يبتسم . ورد الحجي بجدية :

أنا لا آكل الخنزير ، وعمري ما أكلت الحرام .

وفي هذه الاثناء ، وصلت الى مدير المحطة برقية مستعجلة من بيروت تتضمن لزوم مضاعفة الشحن .

وودع الحجي شاكرا ، وواعدا بالعودة ليلا للسهر ، والاشراف على التحميل . وفي ساحة المحطة التقى بمصطفى شيخ الحمالين فسأله :

ـ كيف الشغل يا مصطفى ؟. خلال الاسبوع القادم ، سيتضاعف الطلب ، فعليك أن تعد اللازم .

ـ ماشي الحال . . أنت أرسل ، ونحن حاضرون ليلا نهارا .

ـ كيف أخبار انثرثري خالد ؟ وغلاظاته مع زوجة المدير ؟.

ـ حادثة ومرقت يا حجي . . يومها هي تحرشت به ، وافتعلت المشكلة أما اليوم فتمام . البارحة رأيتها بعيني تكرعه اللبن بيدها . . هدايا لها . . كلها تمسي في بيته .

ـ أفهم يا مصطفى ، فأنا لا أرغب بالفضائح في المحطة . . وافهم خالدا هذا الا يعلق مع البيك !.

ـ ماشي الحال يا حجي ، ما دام القاضي راضي . . الست محسنة ونحن نستاهل اللحم واللبن .

ـ المهم الشغل يمشي ، بدون فضائح .

ـ تحت أمرك يا حجي، تحت أمرك . . هات بضاعة . . وما عليك !

في هذه الاثناء ، وصلت سيارة البيك الى المحطة ، وداعب صبحي بك الحجي قائلا :

ـ مرحبا حجي ، أراك بالمحطة ، يمكن وراء الست ؟.
ـ اي والله ناقص ، قالها الحجي ، وهو ينفخ ، ما عندي وقت احك رأسي ..
وعاد البيك الى الجدية :
ـ كنت وراءك من الخان ، الى ابو جورج ، الى المحطة . كل الاعمال حسنة ..
والى مصطفى :
ـ انزل هدايا ، زوجة المدير ، من الجيب ..
وقال الحجي :
يا سيدنا جاءني تلفون من الياس ، وقد أوصى على كل عدس المنطقة .
وقال البيك :
ـ ليست مشكلة .. كل أبناء عمي ، واخوتي وافقوا على الشحن . اخبار اخرى ؟.
وقال الحجي :
ـ يجب أن نتحدث مع كلادس ، ولكن يا سعادة البيك يجب ان تعطي أوامرك للوكلاء من أجل العدس .
وبعد أن بسط البيك الامور ، طلب اليه أن يصعد معه الى بيت المدير وبادر السيدة بقوله :
ـ أتيتك بغزالة، ولكن ليست أحلى منك.. كيف رضاك على الحجي؟
قالت المدام :
ـ سعادة البيك ، ستتغدى عندنا اليوم ، وتتعشى أيضا ، وان كانت أعمالك تضطرك للذهاب فلا أقل من أن تمر علينا بآخر السهرة .
أجاب الحجي :
ـ والحجي موافق أيضا .. سيراقب الشحن الليله . خنازير جواميس ، خرفان ، صوف .. سمن .. حبوب .. عدس جلبان ، الشغل فوق رأس الحجي .. ويتعشى معنا أيضا ..
ونزل البيك والحجي الى مكتب مدير المحطة ، بينما انصرفت الزوجة لاعداد الطعام ورحب المدير بهما ثم أخذ سماعة الهاتف مخاطبا زوجته لتعد طعام الغداء وأنه نن يقبل للبيك عذرا .
فشكره البيك ، وطلب اليه أن يؤمن له مخابرة مع بيروت ، ولم يطل الوقت حتى كانت غلادس على الخط .. وبعد السلام والاشواق

قـــالت غلادس :

ـــ لقد وافقت غولدا على الدعوة ، ولكن هل ستحضر معها رابينا ؟

قـــال البيك :

ـــ طبعا وكما أكرمونا يجب أن نكرمهم ، ويجب تحديـــد الوقت بعد أسبوعين حتى نستطيع استقبالهم في المرفـــأ ..

ولم يكـــد يلقي السماعة حتى وافق الحجي على تصرفـــات البيك ، لانه خـــلال الخمسة عشر يوما ، يكون قـــد شحن كل شيء .

وبعد الغداء ، أثنى على شـــطارة الست بالاكل ، وبعـــده أعلن الخادم ، أن السائق والوكيل في باحة المحطة ، فنزل البيك الى وكيله ، وأفهمه ان العدس يجـــب ان يدرس ويذرى خـــــلال اسبوع ، يجب أن تعبأ الشوالات ، لان الحر شـــديد ، ويمكن لعود ثقاب أن يحرق تعب سنة كاملة .

وفهم الوكيل بل الوكلاء .. والفلاحون . ودارت السواعد وركضت الارجل ، واشتغل النقل والشحن ..

كانت قـــد وصلت برقية من بـــاريس تقول :

ـــ ان غولدا ورابينا على ظهر الباخرة الشرق التي تصل بيروت في ٧/١٥ حوالي السابعة مساء .

وهتفت غلادس الى الحجي تطلب اليه أن يحدثها البيك ليلا من كل بد لانه لـــم يكن للبيك ساعتها مكان معروف ، الى أن عثروا عليه مساء وكان خط الهاتف مع بيروت معطـــلا فذهبا الى المحطة لان الاتصالات من هناك لا تنقطع .. وبـــادرته زوجة المـــدير : خير ان شاء الله على غير عادتك آتيا قبل السهرة ، وعلى كل حـــال لن تذهب قبل أن نتعشى بلا كأس عرق .. قطيعة أسبوع ولا نرى وجهك ؟.

قـــال البيك :

ـــ تأمرين يـــا مدام . نحكي مع بيروت ونشرب كأســـا ونسهر معكم ، قولي للسائق أن ينزل الاغراض من السيارة .

قـــالت المـــدام :

ـــ مستعجل على بيروت يمكن الياس عنده حلوه والحكي معها أحلى .

أردف المـــدير :

ـــ الياس عنده غلادس لكن انت أحلى منها .

وتعجبت المـــدام :

ـــ أراك تعرفها أنت . كيف ؟

فرد المدير :
أنا معلوماتي من الحجي .
فقالت المدام :
ـ والحجي عنده غراميات مع غير الفلاحات والنوريات ، حلو .. حلو كثير ، تعال حجي تعال ، المدير يدس عليك .
قال الحجي :
ـ المدير لا يدس ، المدير آدمي .
وأكملت الست :
ـ يقول أنك عالق بغلادس فقلت الحجي موسع نشاطه ، لم تكفه الفلاحات والنوريات .
قال الحجي :
ـ أعرفها مثل ابنتي ، وأنا لا نوريات ولا فلاحات .. وأنا الحرام لا أعرفه .
قالت المدام :
ـ يا حجي اطلع من هالأبواب .. أنت جني بقنباز ، عيونك كانت على زنوبة يوم سهرنا على النبع .. كنت وراءها مثل النحل على الزهرة ، أنا يا حجي عندي خبرة .. ومررت بالسيارة من اسبوع على الخان كان مثل نفير النحل .. بدويات ، نوريات ، فلاحات .. وسمعتك مرة تقول يجب أن أحج لو كان عندي وقت كل سنة مرتين ، حتى يغفر الله ذنوبي .
الحجي : حرام عليك أنا لا أعرف الحرام يا سعادة المدير ، ولا ادري لماذا استلمتني السيدة اليوم !.
قالت المدام :
ـ بسيطة حجي أنا أمازحك ، قدام البيك !.
وعلق البيك :
ـ أبدا مدام .. الحجي كبير الاستقامة ، من الخان الى المحطة ومن المحطة الى الجامع وفي بيروت مع الياس والحسابات .. أحيانا يبصبص في بيت الياس على الخادمة ماري لا أكثر . ماذا تقول يا حجي ؟.
وبعد أن اشتكى الحجي لله ، على ظلمهم له ، وسامحهم .. رن جرس التلفون وكانت على الخط غلادس التي بثت اشواقها لحبيبها البيك ، واخبرته أن طلباته ستكون مؤمنة على الباخرة التي سترسو في مرفأ بيروت بعد أربعة أيام . واخبرها البيك أن كل طلباتها ستكون مؤمنة وان الحجي يسلم عليها ، وردت غلادس انها تدقق مع أبيها

بحسابات الحجي وأن خطه يـأخذ العقل وقال لها البيك :
تفضلي يـا حلوة احكي معه .
وعندمـا صارت السماعة بيـده :
هالو مرحبا غلادس ، أنـا من بيت المدير أتكلم ، المدام تسلم عليك .
قـالت غلادس :
ـ أنـا فهمانة عليك ، حجي خـذ راحتك . سلم لي على زوجة المـدير ، وقل لها انها حلـوة . لماذا أنت خائف يـا حجي ، اعطني زوجة المدير ، أنـا أحببتها قبل ان أتشرف بمعرفتها أعطني اياها .
وناولها السماعة فقالت المـدام :
أهلا أنـا أحببتك على السـماع ويجب أن تكـوني حلـوة لان البيك مذوق !..
وردت غـلادس :
أهلا مدام هذا لطف منك ، وأنت أحلى والبيك دائما يتحـدث عنك وعن ذوقك لذلـك قلت للحجي انني أحببتك قبل ان أراك .
قالت السيدة زوجة مـدير المحطة :
ـ كم يكـون حظنا سعيدا لو شرفت المنطقة ونزلت ضيفة على بيتك الصغير بالمحطة .
وأكدت غـلادس :
ـ البيت كبير بأصحابه ، هذا شـرف لي .
وعـادت السيدة للتأكيد :
عندما تزرون حماه ستنزلـون عندنا .. لكم مفاجات .. تدمـر ، قلعة المضيق ، كل آثـار المنطقة .
قـالت غلادس :
ـ موافقة سلفا ، سأخبرك ، سلمي على الجميع .. باي باي !.
والقت المدام السماعة وهي تقول : على مـا اعتقد بنت لطيفة ومثقفة وحتمـا جميلة .
وأضاف البيك :
ومذوقة ، جـدا ورغم كل هذا فـأنت غير قليلة ، امـا خبراتك وتجاربك ، فيا رب استر .
قـالت المـدام :
ـ صبحي بك .. أن زارت حماه فأرجوك ان تنزلها عندنا .
وأوضح البيك :
ـ حماه يا ست ضيقة.. والناس تعرف بعضها ولا أحب الفضائح .

وشرحت المدام :

ـ لماذا فضائح ؟ أعزم من تشاء .. هي أو سواها .. الجميع أقاربي .. وحياتي الا جاءت هذه الصبية ومن معها ، ولن نتجول بسيارتك أنا أهتف للمستشار وهو يؤمن لنا كل شيء .. وسأدعوه للعشاء .

قضى الجميع ليلتهم في بيت مدير المحطة ..

رتب الحجي بناء على أوامر البيك هدية قيمة فيها أربع غزالات وكلب صيد اضافة الى أربعة أثواب بدوية من الجوخ الكحلي المقصب .

وفي عصر اليوم الموعود نزلت غولدا ورابينا من السفينة وكان في استقبالها الياس وام جيسكار وغلادس .. وصرخت رابينا :

ما أجمل هذا الشاطىء انها رحلة من العمر .. وبعد أن تبادلوا القبلات سارت بهن السيارة تقطع الجبال الخضراء الى بيت منزل الياس في مصيف صوفر .. وانبهرت رابينا بجمال لبنان ، وكانت لا تملك سوى أن تقول ما أجمل هذا وما الطف ذاك ، ليتني أستطيع أن أقضي العمر هنا ..

وقالت لها غولدا ، الشرق كله جميل وفلسطين أجمل بقاع الدنيا . وهي انظار الامم .. والشرق اجمالا ملتقى الحضارات ولا بد أن نراه على الطبيعة .

وقاطعت غلادس بأدب .. اليوم استراحة بالجبل وغدا ننزل بيروت.

قالت غولدا :

ـ كيف حال البيك والحجي . والاعمال في سورية ؟.

فردت غلادس :

ـ أنا أخبرتهم وسوف يحضرون ، وقد تأخروا لان المواصلات رديئة ولكن البيك لن يرده الا الموت . ولم تكد تنتهي من كلامها حتى أعلنت الخادمة ماري عن وصول سيارة الى المنزل ... وهتفت غلادس هذا ما أتوقعه بين لحظة واخرى .

وخرج الجميع الى البهو حيث اشتمل العناق على الطريقة الاوروبية الحميمة . قالت غلادس :

ـ أهلا صبحي بك هذه رابينا جاءت من الغرب الى هنا .. وهذه غولدا سيريها الحجي ، الشرق كما أرته الغرب .. واحدة بواحدة .. اليس كذلك يا حجي ؟

قال الحجي : نورت الدنيا أهلا أهلا .. مئة اهلا وسهلا ..

وقال البيك : كل الذي قرأته غولدا من عهد آدم عن الشرق الى اليوم ستراه على الطبيعة .. حتى خان الحجي ستزوره ، لن تذهبوا قبل شهر . ان شاء الله . لم تتعبوا من سفر البحر ؟

وردت غولدا وهي تدعو الجميع الى حديقة الدار ، انها قرأت كثيرا عن الكرم والوفاء عند العرب وان ما قرأته ماثلا على الوجوه ، ونقلت للجميع تحيات والدها السيد سايكس ومعاونه بيكو المشتاقين ، أيضا لزيارة الشرق .. وأضافت وهي تدعو الجميع للجلوس حول نافورة ماء مثرثرة :

أيها الصديق العزيز صبحي بك .. أيها الاصدقاء .. ترون أننا صرنا بينكم بناء على دعوتكم .. وسوف تتعرف بواسطتكم على أرض نحن لرؤيتها ، لكن أرجو عدم احراجكم بالوقت والظروف .. وخصوصا ظروف الحجي ، وطبيعة العمل والمواسم والانتاج .. ثم تناولت كأس بيرة ورفعته لتشرب نخبهم ونخب المحبة .. وتوالت الانخاب ، وانشأ البيك يقول :

ـ لقد عبرت غولدا عن كل مشاعرنا ، واحاسيسنا فنشكرها على رقتها وعذوبتها . ان ما يربط بيننا هو أهم من التجارة لذلك فأنني اشرب نخبها ونخب المحبة .. وترجمت غلادس كلمته لرابينا ، التي بدورها شكرتهم ، وخصت بالشكر غولدا التي أتاحت لها فرصة رؤيتهم ورؤية الشرق . ثم أفرغت كأسها ، نخب البيك والحب !.

وعلى طاولة العشاء كان بين غضب البيك ، وغضب جيبه ، وبين نفسه التي لا تشبع ، وبين يده التي لا تدفع ، في أخذ ورد وجذب ، ودفع ، دنيا به تشيل وأخرى تحط . .وقطع خياله صوت غلادس ، وهي تخاطبه :

ـ غدا على البحر ، ما أجملك بالمايوه ، وظهرا بالجبل ، وفي المساء جولة على الاسواق . وبعد غد فطور على البحر ، وغذاء في المصايف وسهرة في الكيت كات . وبعده قلعة بعلبك وغداء على نبع العاصي ، والبابا يتكفل لنا بدعوة السيد الجنرال !.

وقاطعها البيك :

ـ فطور ، بحر ، جولة .. سهرة ، ما هذا البرنامج الفاشل ؟ لا لا .. لست موافقا ولا على يوم ، وتدخلت غولدا بلطفها المشهور :

ـ آنسة غلادس : أنت تحبين لنا ما تحبين لنفسك .. ولكن يجب أن نتعرف الى البر ، فالبحر كما تعلمين لن يفلت من ايادي السباحين .

واستـــدرك البيك :

طبعا أنـــا موافق على زيـــارة الاسواق ، وقلعة بعلبك ، وصحبة المفوض السامي . لكن لا بـــد من السفر بعد غـــد الى سورية ، حيث يتعرف الضيوف الى آثارها التاريخية واسواقها الغنية ، ثم حمص فحماه، فحلب ، وقـــد رتبت بيت مـــدير المحطة في حماه لتنزلوا فيه ، لان ظروفنا الاجتماعية لا تساعدنـــا على استقبالكم بالمدينة أو في بيوتنا ، ويكـــون بيت المـــدير نقطة انطـــلاقنا والعودة ، فنزور قـــلاع الشمال التاريخية ، وأسواق حلب التجارية وننتقي مـــا نشاء من التحف ونسهر مع النـــوز ونعيش على هوانـــا عشرة أيـــام .. بعدها نعود الى بيروت عن طريق طرابلس ، فنرتـــاح غولدا ورابينا في بيتكـــم لبضعة أيام ، قبل ان تسافرا بالسلامة على ظهـــر الباخرة .

وأوضحت غولـــدا :

— برنـــامج البيك وان كانت غلادس توافق عليه بحيث نرتـــاح بالنهاية في بيتها العـــامر ونكون قـــد وفرنا على الحجي قليلا مـــن الوقت أيضا الذي لا يحب أن يذهب سدى .. وبرفع الاصابع ووفق بالاجماع على برنامج البيك ، وانتهى العشاء ، وبعـــد دردشة بسيطة وخلـــوات خفيفات وتساهلات لا بـــد منها في مثل هذه الحالات .. نـــام الضيوف الاربعة في غرفتين .. وجلست الخادمة مـــاري في غرفتها تبتهل الى ربها أن يغفر لها ذنوبها وخطاياـــاها ، وما نسيت أن تعاتب مار جرجس على لقمة العيش التي لا يسوقها لها الا بغسل الشراشف والملاحف وترتيب الاسرة والتخوت على مرأى من الخطيئة وفي تضاعيفها .

أصيل اليـــوم التالي عـــادوا من بعلبك بعـــد جولة مـــذهلة في حضارات التاريخ ، وتراث الاجيال ، وفي اليوم الذي تلا أصر صبحي بيك، منذ الصباح الباكر على النزول الى السوق لتقديم بعض الهدايـــا ، الى رابينا .. وزادت قيمة هداياـــاها عن ثلاثة آلاف .. ووقف الحجي مبهوتا .. لكن البيك كان حاســـما كحد سيف :

— ولك حجي !. ليلتان من العمر ، والحبل على الجرار الا تستحي؟ بلا ربـــح بدوي ، بدويين ، بلا ربح دفعة خنازير ، والتفت الى الصائغ قـــائلا :

— هات يـــا معلم أغلى مـــا عندك للحجي .

وانتهى الحجي رغما عن أنفه ، فزادت هدايا غولدا وغلادس وحتى أم جيسكار عن هدية رابينا كثيرا . وتولى البيك والسيارة في طريقها الى

دمشق بعض الشروح والايضاحات عن القرى والمدن التي كانوا يمرون بها . وعلى مشارف عنجر اراهم آثارها التاريخية ، وحطت الرحال في دمشق ظهرا ، وكانت رابينا قد بهتت بما شاهدته في مشارف دمشق الماء والخضرة والاشجار ، وتحتها انعقدت حلقات التراجيل المقرقرة والثياب المزركشة وكأن دمشق كلها في نزهة ، ولم تخف اعجابها أيضا بالجمال الشامي :

قالت غولدا :

ـ اسمعي رابينا من اجمل مدن الدنيا واقدمها ، وسكانها مشهورون بمقاومة الغزاة والطامعين ، فهم اشداء في مقارعة الفاتحين ، وفيهم الى ذلك كل رقة التجار ومرونتهم . انبهر الحجي وهو يقول:

اي والله غولدا تعرف عن دمشق ما يعرفه الشوام العتق .. وربما معلوماتها عن حماه اكثر مني .. ماذا يا غولدا ، ارشيف معلومات وقاموس كتب وخصوصا بالتجارة افهم من الحجي .. يمكن ان يكون عمرك خمسة آلاف سنة ما شاء الله سبحان العاطي !.

وردت غولدا بتواضع :

ـ الكتاب كما يقول العرب خير انيس وجليس .. وفيه قصص أمم ، وحكايات افراد كلها تجارب عظيمة نأخذها جاهزة من الشعوب .. كل حكايتي يا حجي ، انني اقرا كثيرا واهتم بما اقرأ ..

قال الحجي :

ـ صحيح ، صحيح ، كلامك على راسي ، اطلب العلم ولو في الصين ، امي تقول هكذا ، صحيح اذن هذا المثل !.

وقاطعه البيك مشيرا :

ـ هذا اجمل فندق بالشام ، ستبقون فيه قليلا وسنزور اليوم سوق الحميدية والمسجد الاموي وقصر العظم ، واكملت غولدا : والمكتبة الظاهرية .

ووافق البيك مكملا :

ـ سنتناول طعام العشاء عند ابن عمي صائب بك ، وسنبقى في ضيافته ما دمنا في دمشق لقد حدثته عنكم طويلا .. واصر على ضرورة نزولنا عليه ، فأرجو ان ترتاحوا قليلا ريثما اعود بسرعة ..

وفي الفندق تناول الجميع القهوة المرة ، وتأففت رابينا لمذاقها الشديد .

ـ يا حبيبتي لو سقونا سما ، فسنقول عنه اطيب من العسل

نحن هنا في الشرق ويجب أن نتأقلم ، وبعد عودتنا ستعرفين قيمة هذه الزيارة هكذا قالت غولدا بالفرنسية . واعتذرت رابينا قائلة : لم أقدر عليها هذه القهوة المرة .

لكن غولدا كانت حاسمة : ستتعودين عليها خلال يومين يا حبيبتي!.

عاد صبحي بك ، ومعه صائب بك الذي أصر على أن ينزل الجميع بقصره في غوطة دمشق لافتا نظره الى عدم ضرورة أن يتحدثوا مع السكان والفلاحين هناك . ولم يكن صبحي بك بحاجة الى هذه الملاحظة ، فهو يعلم مثل ابن عمه أن الناس هنا لا يحبون الاجانب كثيرا . وقدمه صبحي بك اليهم قائلا :

ـ أقدم لكم ابن عمي صائب بك وهو يسكن في الغوطة ، عندما منح السلطان الارض لاهلنا ، نزل اهله دمشق ، وسكن أهلنا في حماه .

وردت غولدا :

ـ تشرفنا صائب بك ، أنا أعرف حب السلطان لكم قبل ان تدخل فرنسا البلاد ، وفرنسا تحبكم وتقدركم ايضا .

ورد صائب بك : هذا شرف لي كبير ، وانا أحب فرنسا . ويسعدني أن جناب المفوض سيكون على مائدتكم اليوم بقصركم الصغير .. وأرجو أن تتفضلوا وكل حاجاتكم ستلحق بنا الى المزرعة . وسار الجميع بين أشجار الغوطة التي فيها من كل فاكهة زوجان ، وكانت غولدا لا تفتأ بين الحين والحين من التحدث عن قاسيون ، المتكيء على صدر دمشق كسلطان عثماني ، على صدر غادة جميلة ، كانت رابينا حريصة على ابداء اعجابها بالغوطة جنة الارض التي هي أحلى من جنة السماء .

ووصلوا القصر العامر حيث كان الخدم مشغولين باعداد طعام الغداء .. ووصلت في هذا الوقت سيارتان ترجل منهما المفوض العام ومرافقوه من الحرس ، واستقبله صائب بك على باب المزرعة وقدم له ضيوفه كما يلي :

ـ أقدم لك ابن عمي صبحي بك من رجالات الشمال ، وهو يسكن حماه .

ورد حضرته : فرصة طيبة .

وأشار صائب بك الى غولدا :

ـ ضيفتنا الباريسية الحسناء غولدا .. وصلت منذ ساعات الى دمشق وهي بنت السيد سايكس مدير بنك فرنسا والشرق بباريس .

ورد المفوض : أهلا وسهلا ببنت البلد في أرضنا الجديدة . تشرفنا !
وعن رابينا قـــال صائب بك :
ـــ صديقة غولدا ورفيقتها الانسة رابينا وتسكن باريس !..
أمـــا الانسة غلادس ، قـــال البيك صائب ، فهي لبنانية وأبوها مـــدير بنك سوريا ولبـــنان في بيروت .. ورد المفوض بتهذيبه الفائق : أهلا بكل جميلات لبـــنان لا بد أنك زرت دمشق قبل اليوم .
وقالت غلادس : الشام ، وغير الشام ، وباريس .. والعـــالم ، والان زادت قيمة معارفي بالتشرف بمعرفتك .
أمـــا السيد ، فهو صاحبنا الحجي وهو من كبار تجـــار سورية ، يسكن في حماه وهو من عملاء البنك في بيروت وباريس .
وقـــال المفوض : تشرفنا فالمـــال عصب الحياة وانـــا أشكر صائب بك على تقـــديمه لهذه الباقة النادرة ، كما أشكره على دعـــوته لي لتناول الطعام مع هذه النخبة .
وردت غولـــدا بالفرنسية :
ـــ ان فرنسا لها احترام بكل العالم ، وخصوصا في الشرق وانـــا واثقة بـــأن وجود أمثال السيد المفوض في هذه الارض ، سيعمق حب الناس بفرنسا ، لمـــا له من ثقافة واسعة وخبرة بالامور العسكرية وادارة المستعمرات ، هذا الى مـــا في وجهه من وســـامة وجمال وما في عقله من رجـــاحة وذكاء . ان شكرنـــا لصبحي بك لا يحد ، فقـــد عـــرفنا بصائب بك ، واتـــاح لنا فرصة زيـــارة الشرق ورؤيـــة السيد المفوض ، شـــكرا ..
ورد السيد المفوض : شكـــرا يا غولـــدا .. سنكون عند حسن ظن بلدنـــا فرنسا واصدقائنا .. وعلى الطاولة المستديرة بجانب نافورة ماء.. وأقفاص حساسين ، رفع السيد المفوض كأسه وشـــرب نخب فرنسا وشـــرب الجميع ؟.
وقـــدم السيد المفوض نفسه على الغداء كواحد من خدام فرنسا ، فقد قـــاتل في جنوب شرق آسيا ، وفي أفريقيا ، وخـــدم بقيادة الحلفاء في فلسطين ، واستفاض : شطآنها أجمل من شطآن لبـــنان وسهولها أخصب من سهول سورية ، وآثارها تحمل كل بصمات الالهة من قـــديم الزمـــان وعرج على سورية ، فتحلب فمه وهو يتحدث عن غناها ، في حواضرها وبواديها ، وعن جمال طبيعتها وآثارها .. وســـألته غولدا عن الامـــن فقال :
ـــ يظل العلم الفرنسي ، وبجانب البيك .. المسألة لا تحتـــاج

الى ايضاح .

والى رابيـــنا :

ـــ كم يجب أن تحرقك شمس الشرق ، أيتها الشقراء الفـــاتنة .

وردت الفاتنة : الشمس مفيدة وانـــا أتحرق الى وهجها ، ونحن سنتحرك كما تقول غولـــدا وسعادة البيك !.

بعـــد الغداء وصلت سيارة ثـــالثة ، همس أحـــد ضباطها بـــأذن السيد المفوض ، بـــأن جنودا فرنسيين قـــد قتلوا في القابون ، وأن السكان هناك مـــا زالوا يطلقون النار فنهض وهو يشعل سيجارة معتذرا اليهم بـــأن الحاكم العام لسورية ولبـــنان يريده .. وتمنى لهم اقـــامة طيبة في سورية وشـــكر ومشى .

وفهم الحضور ذلـــك من خلال الانباء التي ترامت اليهم . في اليوم الثاني قـــال صبحي بك .

ـــ يجب أن ننفذ برنـــامج الزيارة بأنهاء دمشق اليوم .

وركبوا جميعا الى سوق الحميديـــة حيث زاروا الجـــامع الاموي وتعرفت غولـــدا عيانا على مـــا كانت قد قرأت . وقالت :

ـــ الجامع الاموي يحمل تاريخ دمشق .. كان كنيسة في الاصل والامويون هم الذين قلبوه الى مسجد ، عبدالملك بن مروان هو الذي استقـــدم له أمهر المهندسين والصناع من أبعـــد الاصقاع حتى كان بدعة ذلـــك العصـــر .. وخصوصا في الارايك ، والموزاييك ، والمينا . ومن الاموي زاروا قصر العظم القريب ، وكان مقرا للحـــاكم التركي ايـــام العثمانيين ، وبعدمـــا شاهدت رابينا الحمامـــات وقاعـــة الرقـــص ، هتفـــت :

كم كان الوالي « دون جوان » .(

ورد البيك :

ـــ كلنا « دون جـــوان » .

وكان الحجي كالاطرش بالزفـــة .

خرج الجميع الى المكتبة الظاهرية ، وثقفت غولـــدا الجميع بمـــا فيهم البيك ، ببعض معلومـــات عن الظاهرية ، التي بناها « بيبرس » وجمع فيها نـــوادر المخطوطات العربية وأمهات الكتب القـــديمة ، وتمنت على البيك لو قـــدم لها فهرست المكتبة فتكون أجمل هدية ، وهز البيك رأسه لبساطة هذا الطلب .

وفي سوق الحميدية تجولوا قليلا واشتروا بعض الهدايا الشرقية

ثم عـــادوا لمزرعة صائب بك .

كان المساء مهيئا فـــي القصر .. والعشاء فـــاخرا .. والحـــان الموسيقى الغربية والشرقية تحمل الناس الى ليالي الف ليلة وليلة .

ودار همس بين البيكين ، حول طريقة النوم لكن المسألة انفرطت بسرعة عندمـــا لوحظ هوى صائب بك برابينا ، وعـــادت غلادس الى حبيبها صبحي بعـــد طول اشتياق .

أما غولدا فالى قديمها الحجي ، فمن ليس له قديم ليس له جديد ..

نهضت غولدا بـــاكرا وانهضت الجميع ، كانت سفرتهم الى حماه وكانت قـــد حصلت على خريطة البلاد من المفوض الفرنسي فالمسافة طويلة والطريق متعبة ولا بد من التحرك الباكر .

كان صائب بك قـــد جهز لهم حاجيات الطريق كما كان قـــد جهز طعام الافطار .. وتمنى لو يرافقهم ، لكن اشغاله لا تسمح له وقـــــدم الهدايـــا على طريقة البكوات الفرسان ، فسرت بها الصبايا الثلاث .

قـــالت غولـــدا :

ـــ مـــا شككت منذ تعرفت اليك بذوقك العظيم هناك مثل مصري فيقول : « من شرب من ماء النيل يعود اليه » لذلك انا واثقة انك ستعود الى رابينا ولو في المريخ .. وغـــداً عندما نشرفنا في فرنسا سأعرفك على أختها ديانـــا .. وعندئذ تعرف كم احبك ايها النبيل ، وثـــانية .. باسمنا جميعا ، أشكرك .

دار محرك السيارة باتجاه حماه . وعلى الهدير ودع صبحي بك ابن عمه قـــائلا :

ـــ شكرا يـــا صائب ، لقـــد بيضت وجهي .. شكـــرا . وكانت رابينا في هذه اللحظة ترسل الى صديقها البيك قبلا في الهواء .. وفي الطريق الى حماه مروا بحمص وتعرفوا الى جـــامع ابن الوليد والقلعة ..

وعند حماه لـــم يدخلوها ، بل الى بيت مـــدير المحطة رأســـا .. ورحبت زوجة المـــدير والمدير بالبيك وضيوفه .

قـــال البيك :

ـــ السيدة مـــدام المـــدير ، السيد المـــدير ، غولـــدا . رابينا . غلادس ، والاستـــاذ الحجي .

وضحك الجميع .

قالت المدام : أنـــا أعرف غلادس من كثرة التلفونات الى صبحي . اهلا .. انـــا من اليونان ، زوجي من اسطنبول . ونحن نعمل في سكة

الحديد منذ زمن طويل . وبيتنا الصغير كبر بكم ، وفضل البيك علينا لا يحـد ، ولا سيما عندمـا عرفنا عليكم . أهلا وسـهلا .. أنتم متعبون والبيرة مبردة .. أهلا وسـهلا ..

وردت غولـدا :

ـ قلبك أكبر مما رأينا .. على عظم مـا رأينا .

واقترحت السيدة المديرة أن يناموا الى التاسعة ثم يقومـون الى العشاء ... لترتيب برنامج الزيارة .

قـال البيك :

ـ أنـا عائد الى المنزل والحجي الى الخان ، وأرجوك يـا ست ان سألك احد ان تقولي له ان الصبايا من اقرباء لك في فرنسا . .

ردت الست :

ـ أهلا بمعلمي أهلا .. لا تتأخر بعـد التاسعة ، وهنا نـاولها صبحي بك هديتها قـائلا :

والله ما رضيت ان يكون هذا العقد بأقل من الفين مـن الليـرات فاسعالي له الغالي . وتسكرته الست على افضاله القـديمه والحديثه .. والتي لا تنتهي لم تمض لحظات الا والحجي في خانه والبيك في قناقه ..

وبعـد ان استطلع الحجي الاخبار من سـائسه وعرف حـاجة المخاتير اليه ونفور الفلاحين وتذمرهم من سفره في هذا الوقت الـذي هجم فيه الموسم .. قـال الحجي :

ـ بسيطه أنـا ذاهب الى البيت .

وصل الحجي الى بيته ورحبت به الزوجة قـائلة :

طوبت يـا حجي وشغلت بـالنا ..

قـال الحجي . يـا مرة .. الشغل كثير وهذا موسم الحركة . شحن المـدس والخراف والجبن ، ذهبت مع البيك الى بيروت ودققت الحسابات مع الياس ، خذي هذه قطعة جوخ .. وطقم فناجين قهوة . وطقم كاسـات شاي ، أين الاولاد .. وردت :

ـ مع خـالهم في الغاب ، وأردفت :

الحمام شاغل .. قم فاغسل يديك وطهر نفسك من مجالسة الكفار . قام الحجي فاستحم وكان متعبا جـدا فنام كثيرا .. وعندمـا استيقظ في الثامنة لبس وذهب الـى الخان فأعطى تعليماته للسائس لتصريف أمور المراجعين باعتبار أنه مشغول لبعض الوقت مع البيك، وأنهمه السائس ان كل الامور ميسرة في غيابه ولكن الناس ، تحب الراس ..

وبعد بسيطة ، التي يقولها بمناسبة وبدون مناسبة ، خرج مارا في طريقه على أبي جورج ومصدرا بعض التعليمات على مراكز التجمع ومعطيا بعض الاوامر والتوجيهات ، ذهب للمحطة للتأكد من سلامة التحميل ودار بينه وبين مصطفى شيخ العتالة حوار بداه مصطفى :

اهلا حجي اربعة ايام ولم نر وجهك ، خير ان شاء الله خير .. سمعت انك كنت في بيروت ..

الحجي : ذهبت الى طرابلس وراء الحمولة ومررت ببيروت والشام .. قل لي كيف التحميل ..

مصطفى : ولو حجي !. والله ان كنت حاضرا وغائبا فالعمل ذمة .. كل عتال على ظهره تحميل ٢٠٠ شوال عدس باليوم ، الشغل ماشي ، والناس تحب السترة .

الحجي : وخالد ؟ ماشي الحال .

مصطفى : احسن من الكل ، لبن اولاده من عند الست واللحم ايضا علبة ورا علبة وفخذ خلف فخذ .. لا تأخذ صاحبا الا بعد خناقة ما رايك يا حجي :

الحجي : انا لا يهمني .. اريد العمل كاملا .. ويهمني أن يكون المدير راضيا ..

مصطفى : يا حجي شفت لك اكثر مما تظن .. خالد لا شك واحد عفريت ، عنده تسعة اولاد وخلفت زوجته عاشرا . وسمعته يقول لن يهدأ قبل الدزينة ، مقصوف العمر ، صارت تتعطر له وتحط كولونيا .. انا شايف المدام صاحبة مزاج بالعتالة ..

الحجي : ولك مصطفى ماذا تقول ؟ قلت لك اصرفه ، ان سلمنا من غضب المدير لن نسلم من غضب البيك .

مصطفى : ومن اين سيخبر البيك ؟ الله وكيلك صرنا نشبع اللحم .. ابن الحرام البارحة خاروف واول البارحة خاروف .

الحجي : ولك مصطفى لماذا لا تحب أن تفهم ؟ اصرفه عني اصرفه ..

مصطفى : وكيف اصرفه يا حجي ؟ الليلة التحميل .. لوحده يحمل قطارا كاملا .. وبكره فرج .. بكره اصرفه ان شاء الله ، الليلة المدير سأل عنك كثيرا وفي الساعة الحادية عشرة سألوا ايضا .

الحجي : بسيطة غدا لا أحب ان ارى وجه خالد ، هل فهمت تحاسبه وتصرفه وان أصر على البقاء فانقله الى محطة كوكب .. انا لا احب الفضائح .

وصعد الحجي الى الطاولة العامرة حيث كان يتصدرها البيك والمستشار الفرنسي . وعاتبته المدام على تأخره واعتذر عنه البيك بأشغاله الكثيرة .. العدس والحمص والخراف والخنازير وأشغال الناس التي لا تنتهي ..

كان الحجي واضحا : من لا يحضر ولادة فرسه لا تلد له مهرا ..

ثم تشعب الحديث .. وقالت غولدا :

يجب الا نحرج صديقنا البيك في منطقته ونحن نعرف حساسيات المنطقة ، ودقة موقفه لذلك يمكن لنا أن نعتمد في رحلتنا القصيرة هذه على توجيهات السيد المستشار ، وعلى امكانياته المادية من سيارة أو سلطة أو خلافه .

لذا فاننا نرجو من السيد المستشار أن يشاركنا بوضع البرنامج، كما نرجو من أختنا العزيزة المدام أن تظل الى جانبنا طوال هذه الرحلة .

قال صبحي بك : برغم كل الظروف يجب أن تتعرفي الى حماه والى عاداتها وتقاليدها غدا في المساء نتعرف الى آثار أفاميا ، ونسهر عند النور ، ونتعشى السمك الاسود من نبع الطاقة ..

تذهبون أنتم بسيارة حضرته ونحن نلحق بكم .. والى المستشار :

ـ ما هو رأي حضرتك ؟.

قال المستشار : من يوم ما جئت حماه وأعرفك لا تخطىء أبدا .. دائما برامجك على القد والزيادة .

وأكمل البيك :

ـ بعد غد النواعير وقاعة بيت العظم انها مثل قاعة دمشق وازود .. وبالليل رحلة صيد أرانب ، على ضوء السيارات والعشاء بالمنطقة الشرقية والعودة بآخر الليل .

واليوم الثالث ، مناطق مصياف والقرى الغربية ، ونأمر الفلاحين بترتيب عرس هناك !. واليوم الرابع استراحة ان شئتم .

وقال المستشار :

من البدء أنا موافق وان كان البرنامج متعبا للانسان .. لكن لا بد من تناول طعام الإفطار غدا عندي في الثكنة ووافق الجميع وارتفعت الكؤوس لتشرب نخب فرنسا ...

وأنتصف الليل والحديث يدور حول حماه وباريس والشحن .. قالت المدام مغيرة وجه الحديث :

ـ مساكين العتاله طول النهار نقل وتحميل شوالات ، من شهرين تشاجرت مع عتال أنا تحرشت به لاعرف نفسيته وكيف يفكر الواحد

منهم ، عنده دزينة أولاد .. الحقيقة لا يفكر .. مثل الوحش يأكـــل خروف ، وبعدها صالحتـــه ، وصرنا اصدقاء .

وقال صبحـــي بـــك :

بودك ان تضعي دراسات عن العتاله وربما غدا تأمرينهم برفـــع الاسعـــــار !..

ومازحتهـــا غولدا :

ـــ ربما بفكرك ان تصنعي لهم نقابة بالمحطة ...

وقالـــت المـــدام .

ـــ انت تمزحين ، واحدهم يشيل شوالين ويطلع الى الفركون كأنه نازل . وتشوقـــت رابينا ، لرؤية العتالة . لكن الوقت كان قصيرا !.

وعند انتهاء العشاء اعتذر الحجي باشغاله ، وانصرف معتذرا عن مرافقتهم طوال مدة الرحلة بداعي العمل ، ولكنه في الحقيقة كان لا لا يحب ان يرى مرافقا اجنبيات امام الفلاحين فهو ذو خبرة فـــي هـــذه المواضيع لا تجارى ولكنه اكد لهم انه سيزورهم بين فترة واخرى ..

وقالت غولـــدا :

ـــ الليلة نفقدك لانك مشتاق للبيـــت .

وودع البيـــك وانصرف .

وتمشت غولدا هي والمستشار قليلا في ظل الليل ثم جاء تلفون من الثكنة يفيد بأنها ستقضي ليلتها هناك . وقالـــت رابينا للمدام : المشوار جميل بالليل .. فما رايك ان نتمشى على حافة السكة مـــع غلادس ، والليلة لا حجي ، ولا بيك ولا غولدا ..

ونهضت الثلاثة الى مشوار في الليل بجوار المحطة ، وعلى ضـــوء قنديـــل كهربائي يتدلى من بين اغصان شجرة كان ثلاثة من العتالـــة يتحلقون على بطيخه اصفر قليلا من سرير طفل .. ووقفت الايـــدي عندما لمح العتالـــة أشباحا في الظلام .

قالـــت المدام :

ـــ لا أحد يا شباب ، أنا زوجة المديـــر .

وقـــال خالد :

ـــ أهـــلا مدام أنا قلت الدنيا مضوية .. نور وجهك أقوى مـــن القمـــر .. والغزلان معك من أين طلعوا . وكانـــت غلادس تترجم لرابينا ما يقولـــه العتال بصوت خفيض .

قالـــت المـــدام :

ـــ بنـــات اختي من فرنســـا .

ورد خالـــد : انا داخل على ديغول .. انا قلت هذا الجمال لا يمكن ان يكون غريبا عن أهل الست شرفوا تفضلوا .. حضرتـــم ولـــم يحضر واجبكـــم .

وأبدت رابينـــا رغبتها بالبطيـــخ .

وعاد خالد للثرثرة : والله يا ست ، بنات اختك ان بقين هنا ، ورآني البيك والحجي معهم ، يمكن انسرح غدا ..

وردت المـــدام بحزم :

ـــ ولـــك خالد الذي يسرحك لم يخلق بعد ، وانت يا مصطفـــى يا شيخ العتاله قل للحجي بالفم المليان المدام تحب خالد وتعزه كثـــيرا ويجب ان يرفع اجور العتاله .. هل تفهم .؟

قال مصطفـــى :

ـــ تحت أمرك .. وقلبك يا مدام حنون على العتاله .. لا حول ولا قوة الا باللـــه .. تحت أمرك .

وأمـــرت المـــدام :

ـــ تعالوا الى البيت فتعشوا فيه ، المدير شرب ونام والبيت ليس فيه أحـــد سواي وبنات اختي . تعالوا لا أحد يعرف .. تعال عبدو .. تعال .. ومشى الجميع باتجاه البيت حيث الطاولة لم تزل عامرة .

وسألت غلادس : ماذا تشربون .

ورد عبده : نحن لا نشرب .

وقال خالـــد : يا جماعة .. انحسبت وانحسبت .. وهذا اليوم من العمر .. فدعونا نشرب .. جماعة دعونا نشرب ..

والتفت الى المدام مشيرا الى رابينا ومضيفا :

اللـــه اشتغل بنت أختك ، وهو فارغ من كل الاعمال .

وقال مصطفى : بلا كفر خالد دعنا مسرورين .. كل واحدة أجمل من الثانيـــة والبنات لخالتهن والسلام .

وقالـــت المدام :

ـــ أرأيت يا خالد كيف يكون الذوق ؟ ولكن يا شباب ليس عندنا سوى غرفتين والصالون . أنا وخالد نتمشى قرب الشوالات وسأطفىء النور .. بخاطركم . وكانت الساعة الثالثة عندما غادر العتـــالان البيت .. وكانت المدام صريحة جدا عندما قالت للفتاتين :

انتما أغلى من عيوني وماذا سيصير ان غضب البيك أو زعـــل الحجي ؟.. كل المحطة وحذائي .. غدا انتقل من حماه ، المدير نفســـه لا يهمني .. الا يكفي الغربة ؟ وأيضا الكربة !..

بذمتي العتالة احسن من البيك والحجي ، الفقر ليس عيبا ، العيب هذا البيك وهذا الحجي . تصبحان على خير غدا نكمل الحديث ..

كان مصطفى وخالد وعبدو في زاوية من باحة المحطة وقد اخرج مصطفى من جيبه قرآنا ليقسموا عليه بكتمان الحادثة الا خالدًالم يقسم :

ـ ان علاقته بالست باتت معزوفة ، والبارحة زارت عائلته باللبن واللحم ، فبنت الكلب لم تصدق ان عنده تسعة حتى رأتهم بأم العين .. وقد تحلقوا على اللبن واللحم المسلوق فلم يبق من الخروف اثر ...

واضاف :

ان بنت الحرام أخذت لهم أكثر من عشرين صورة ، وقالت انها تود نشرها بمجلة سكة الحديد في باريس ، وعاد خالد يستطرد :

أنا بودي ان تحلفا على كتمان هذا السر : البارحة عندما كنت احمل الفركون ، لمحتها من بعيد وزوجها يتوجهان نحوي فاوجست خيفة وكتمت الامر ، وبالفعل خفت من أن يكون قد خبر ، وخشيت الفضيحة .. الخلاصة وصلا فقال لي المدير :

ـ مساء الخير يا خالد :

ورددت التحية بأحسن منها :

ـ أهلا سعادة المدير ، وقلبت الشوال .. وانا اقول ستر يا رب .

وقالت المدام :

ـ مساء الخير يا خالد لماذا تقلب وجهك .. المدير جاءته اليوم آلة تصوير واحب ان يجربها فقلت له نصور خالدا .. وبساعتها يا بو صطيف بان سني .. وقلت للست :

شرط أن تبعثيها للسينما .. وقال لي المدير بعد صورة او صورتين: أرفع المدام مثل عفريت بغداد بالفانوس السحري ، لاخذ صورة وقلت : أمرك سعادة المدير ، امرك على راسي .. وبهذه الكف حملت الساقين ، وبالثانية تحت الاليه وهلاهوب .. واذا هي فوق راسي أخف من بطيخة ، وقلت للمدير ، أنا عفريت بغداد صور يا مدير !..

والتفت خالد ، وهو في أوج حماسه الى عبدو قائلا :

ـ اسمع ابو عبيد ، ورحمة نبيك ساعتها كان عندي قدرة على رفع المحطة . واخيرا ثبت المدير الآلة على حاملها وطلب الي ان اجرب ان ارفعه بيد وزوجته بيد لاخذ صورة جماعية وبلمح البصر كان كل منهما بيدي تماما كطابتين .. وجن المدير من الفرح ، وقال هذه

الصور ستنشر كلها في محطة سكة الحديد وستظهر بالالوان الجميلة وأضاف لي المدير :

— أنت يا خالد عتال ممتاز ، وقلت : انا عارف ولكن بودي لو عرف الحجي الابخل من كلب بهذه الحقيقة وقال لي المدير ، سنسوى كل هذه الامور يا خالد !.

كان البيك ، في ليل العتاله هذا يصطحب الحجي بسيارته وهو في طريقه الى خانه ودارت مناقشة عن برنامج الرحلة واوصى البيك صاحبه لتحضير هدايا تبهت فرنسا . فبالاضافة الى الثياب العربية المزركشة بالقصب ، ينبغي الا يقل عقد الذهب عن رطل من عيار ٢١ صافي ، والليرات العثمانية المرشوشة يجب ان تكون دقيقة من الرشادي الجديد هذا بالاضافة الى الحلق والشناشيل والاساور ، واردف ، لا تنسى هدية زوجة المدير ، فهذه لا يستغنى عنها ولا عن زوجها . كما لا تنسى المستشار ، لا تنسى هديته على البيعة .. وأراد الحجي ان يتذمر قليلا او يستهبط لكن البيك بحسمه المعتاد قال :

— لا تخجلنا حجي أمام الاوروبيين .. أنا قلت ، وكفى .. وختم الحجي ببسيطته المشهورة .

في صباح اليوم التالي ، اقلت سيارة المستشار النسوة الى الثكنة حيث كان البيك قد وصل اليها مع اربعة من أزلامه بسيارة مرافقه ، وبعد تناول الافطار انطلق الجميع الى الغاب بقافلة كبرى ، عن طريق محرده ، تلك الطريق التي عجز الزمن عن محو مجدها الروماني .

قالت المدام : التي تركب سيارة واحدة مع غولدا والمستشار ، هذه الطريق توصل الى سيجر ، وهي من املاك البيك وفيها قلعه اثريه . وتوقفت القافله قليلا في سيجر ، ليستمع الجميع الى حديث ابيك ، الذي بدا هنا واسع الاطلاع ويحفظ عن ظهر قلب من فرط ما ردد :

سيجر ، وردت بقصيده امرىء القيس وهو في طريقه الى قيصر القسطنطينية ليطلب منه معونة ضد القبائل التي قتلت والده الملك ، مر بحوران وسلك الدرب التي تمشون عليها الان ..

كان يومها صادقا ولكنه لما صار في القسطنطينية وقع في حب القيصرة فخا ف الملك ، صار وطنه امراة ... وأنا عندي المرأة أجمل من أي أرض في الدنيا .. اليس ذلك يا رابينا ؟.

ولما سمعت اسمها رفعت حاجبيها متسائلة ، وترجمت لها المدام السؤال فقالت ، بل الفرسان النبلاء دنجوانات كبار ..

ولما ابدت غولدا دهشتها لعظمة المهندسين الذين نقلوا المـــاء من الوادي الى الاعالي قال :

ـ هؤلاء هم اجدادنا العظام .. وأردف :

كل هذه السهول الواسعة وكل الاراضي التي مررتم بها والطريق التي شرفتمونـا بسلكها هي ملك لي ، ولاخوتي وابناء عمي ، ولافراد مـن العائلـة ، وبعد ان فرغ البيك من تسميع درسه قال المستشار :

ـ صبحي ، يا غولدا ، صديق مخلص لنا وأنا استشيره بكـل الشؤون التي تهمنا وتهم المصلحة العامة .. وبعد أن وصلوا الى قلعة المضيـق . وزاروا اثار افاميا ، لفت المستشار انظار الجميع الى انه كتب تقريرا ، الى المسؤولين في فرنسا ليرسلوا البعثات للتنقيب عـن الاثار العظيمة .. وتجولوا في القلعـة وزاروا المعبد وصعدوا الـى السطح من الباب الحجري الضيق ، واحدا اثر الاخر . وكانت صرخاتهم الحلوة تتجاوب اصداؤها في انحاء الوادي الكبير . وعلى السطح وأمام المنظر البهي حيث ينبطح سهل الغاب والمستنقع الكبير عاد البيـك الى تسميـع درسـه :

القلعة ، هذه هي جذورها السفلية فينيقية اكيدا .. فقد عثروا اثناء الحفريات على أواني خزفية وزجاجية تعود الى اولئك الاقوام . على أن ملامح اليونان ظاهرة فيها ايضا ، لكن الذي طورها حقا الرومان .. وهذه القلعة وسواها تقع على الرؤوس العالية وتطل علـى بعضها وهي فضلا عن كونها حصونا حصينة تتولى الحماية ضد الغزاة والفاتحين ، فهي ايضا عيون سهر ومراقبة لا تنام ، فعلى مشـارف البحـر تقع قلعة المرقب التي تشعل النار ببرجها عند رؤية الخطر ، فيرى النار ، من يراقب في قلعة السلمية ، فيشعل البرج هناك فترى الخطـر مصياف التي بدورها تشعل فيرى برجها الشاعل جسـر الشغور . وهكذا تنتقل الاخبار بسرعة اللاسلكي .

وأبدت غولدا دهشتها لعظمة الاثار ومعلومات البيك وكثـرة شعوب الفتوح ، وقاطعها البيك ، طبعا طبعا .. تفضلوا نبحر قليـلا في الغاب المشهور بسمكه الاسود ونشاهد شيئا من ملامح البحيرات التي تشبـه بحيرات افريقيـا ونباتاتها المدهشة .

ووصلوا نبع الطاقة فنزلوا الى القوارب يقودها ربابنة اشـداء واوغلوا في غابات القصب وشاهدوا السمك ، وانطلقت ضحكات كثيرة بسبب رشات مياه على الوجوه .. من القوارب المتقاربة . وعـادوا

الى نبع الطاقـــة حيث جهز الغذاء ، وأما النور فليسوا بحاجة الـــى تجهيـــز ..

وأمام بيـــت الشعر المضروب من لحظة ، رقصت زنوبة ، وقد دس البيك في يدها ورقة من فئة المئـــة ليرة فاشتغـــل الشوباش لديفول ، وفرنسا وللمستشار وصبحي بك ، ولغولدا ورابينا والمدام ، وغلادس .

وفي الرابعة انتهى الفقش والغذاء ، وبدأ رمي الودع .. رمتـــه نوفـــه كبيرتهم التي علمتهم السحر ، وبدأت بغولدا : انت زعيمة كبيرة ولك مستقبـــل بالشرق كبير .. تزورين بلادا كثيرة ، ويحترمك زعماء عظـــام . .وقولي أن شاء الله .

أمـــا رابينـــا :

فمستقبلها على جنب غولدا ، وهي محبوبة الشباب وحبيبتهم ، وحظها بالرجال يفلق الصخر وقولي ان شاء اللـــه .

ودحرجت الودعات الثلاث الكبيرات امام المستشار وقالت له :

— أنت ستصير مفوضا بالشام قل ان شاء الله .

وتفرست الحجة الدهرية بالمدام وقالت لها :

— أين رأيتك قبل اليوم ؟ ودحرجت الودع الذي قال :

المدام لعوب تحب الرجال، كريمة، متلافة تنفق ما في الجيب ويأتي ما في الغيب ، قلبها طيب وخرافها للفقراء وقولي ان شاء الله .

أمـــا الودع فقد كشف غلادس :

— حظها مع الرجال واصل للسماء ، وتحب بعيدا قريبـــا .. ويحبها ، وكل يوم يحكي معها من بعيد والله أعلم . وبسطت يدهـــا أمام البيك بالودع وقالت له تحشره :

— حط يدك ، عندما نكون لحالنا ، يا حبيبتي يا نوفه ، يا حبيبتي يا زنوبه .. يا حبيباتي النور .. أما بحضور المدام والمادموزيل فـــلا تعرف احد .. حط يدك وقل ان شاء الله .. وقال البيك وهو يضـــع يمناه على الودع ويسراه في جيبه :

ولو نوفة ... انت دايمة ، لفيها الان ... ونفحها مبلغـــا من المال وهو يقول : اخلصي نوفه لفيها .. لفي ..

وصرخ الودع :

— البيك يحب الجمال ، والله يحب الجمال ، البيك صاحب ذوق وسيف .. يخافه الفلاحون اكثر من عزرائيل ومع ذلك فقلبه حنون على النسوان .. حظه مثل نجم سهيل .. لفيناها ... وقل ان شاء الله وسكـــت الودع .

عاد الجميع الى حماه .. فالبيك الى قناقه والمستشار الى ثكنته وكان الحجي يومها في كل مكان : على البيادر مع الفلاحين ، وفي المحطة مع الحمالين ، وفي خانه مع المستلفين وخصوصا مع المخاتير والوقافين ، والوكلاء والتوجيهات . كما طلب من سائسه احمد أن ينبش له الشيخ صفوك من تحت الارض . قال السائس :

الشيخ بالقهوة مع النارجيلة رأيته هناك منذ نصف ساعة .

وقال الحجي : بلغه حاجتي اليه .

ولم يطل ، حتى استقبله على باب الخان ، استقبله الحجي نفسه ، وبعد الترحيب قال الحجي :

ـ عند البيك ضيوف هم المستشار وعياله من الفرنسيين وهم الان في نزهة بالغاب وفي برنامجنا ان يزوروا مضارب البدو ويتعرفوا على الكرم العربي فما رأيك يا شيخ المشايخ ؟

ورد البدوي الكبير :

أهلا بالضيوف الالوف .. غدا نريهم الكرم العربي .. وطالما المستشار موجود فسوف تركض الخيل امامهم ، وبعد الغذاء دبكه وزمر رعيان ، ورقص ونور .. وحفلة صيد الصقور .. والذي يريده البيك يكون ، اخبره غدا ، عند الشيخ صفوك النازل بشويحة شمال السلمية . ولا تنسى يا حجي ان تكون انت باكرا على رأس الربع ، أهلا ..

وشكره الحجي متمنيا لو تسمح له أعماله بهذا الشرف ، وملفتا نظره الى ديونه عند عشيرته البالغة حوالي ثلاثماية الف ، وأنه مستعد لاستيفائها من جميع انواع المحاصيل .

وقال الشيخ ، مالك عندي ، وانت تعرف ، عندما اقول .

واخبره الحجي انه اصطفاه بطقم نحاسي كامل للقهوة ، وليرسل جملا لتحميله .

قال الشيخ :

بسيطة يا حجي ، نراك بخير .

واخبر الحجي البيك بما دار مع الشيخ صفوك .

وهتف المستشار للمدام يسألها عن مزاج البنات وهل اتعبتهن الرحلة ؟

وردت المدام : من تريد منهن فطلبك بين يديك ..

أما هاتف المدام الى قناق البيك فتضمن شكره على الرحلة الجميلة، واخباره ان رابينا في الثكنة وذلك بعد اخذ رأي غولدا وسألته هل

يريـــد شيئا ؟.

قال البيك : اترى غولدا ترتاح ، غدا سيكون يوما حافلا .

وفي الصباح تجمعوا في الثكنة وخطفت غولدا رجلها بصحبة وكيـــل المستشار والمدام ، وركزت معلوماتها التاريخية عن مدينة ابي الفداء ، وفي الحاديـــة عشرة انتقل الجميع الى مضارب الشيخ صفوك ، قـــرب اسلميـــــه ...

كانت غولدا في ليلتها الاولى مع المستشار في الثكنة قد عرفت أنه مسيحي بالهوية وبذهابه المستمر الى الكنيسة ، وأنه درس في المعهـــد السياسي لادارة المستعمرات بعد أن تخرج ضابطا من الكلية الحربية، وخدم في شمال افريقيا وحارب هناك . وبعد الاحتلال الفرنسي لسورية واخماد المقاومة في حماه وادلب والجبال ، عين مستشارا في منصبه الجديد ، الذي يشغله ، وكون صداقات كثيرة مع الزعماء الاقطاعيين ومع شيوخ البدو ، لكنه لا يتحرك الا بحراسة مشددة ، فالشعب في حماة رغـــم فقره يحمل روحا وطنية متصلبة ، وهو يكره فرنسا وسائر الاجانـــب وانه كالبركان اذا انفجر .. وعلى الرغم من كونـــه ، أي المستشار ، اشترى كبار الاغنياء وزعماء العشائر ولديه خمسة خبراء في الشؤون العسكرية ، وطرق مكافحة المظاهرات والعصاة ولهـــم معرفـــة كاملة بأحوال الناس النفسية والسياسية والاقتصادية ، فانـــه غير مطمئن الى مستقبل فرنسا في حماه .. وطلب اليها أن تحفظ هـــذه المعلومات لنفسها وأضاف : حتى المدام زوجة مدير المحطة وتشتغل معه فهي لا تعرف من كل هذه الامـــور شيئا . وسرت غولدا كثيرا به ووعدته أنها ستعمل فور وصولها الى باريس على نقله من حماه الى مكان اكثر حساسية . .وأنها ستجعل الطائفة تقدر له خدماته الجلى .. بكل هذا كانت أفكار غولدا تدور عندما وصلوا الى مضارب البدو .. وقبل الحي بثلاثة كيلو مترات أو أكثر استقبلهم الفرسان على الخيل المتصارعـــة في سباق مزمجر ، وصيحات الخيالة على ظهورها أقوى من طلقـــات بنادقهم المستقبلة ، وارتجت الارض من وقع الحوافر ، وخيل للضيوف أن معركة حقيقيـــة تدور .

كان بيت الضيافة يرتفع على دزينة من الاعمدة ونشر السجاد في رحاب البيـــت العامر وعلى الطنافس المشحورة ، ودلال القهوة تعرش كالاوز المنتفخ ، أو الطاووس الغبية .. وعلى الباب الشيخ صفـــوك بين وجهاء العشيرة الكبار ، وترجل الركب امام المضرب وقال صفـــوك

اهلا بالضيوف ضيوف المستشار والبيك .. اهلا بهم في منازلهم وبين عشيرتهم ولم تستطع غلادس ان تفهم اللهجة البدوية فمر الجميع بترجمتين في احداهما البيك .

وأخذ الجميع امكنتهم ودارت القهوة المرة التي عبت منها رابينا ثلاث مرات ، لانها لم تهز الفنجان ، حتى تيسر لها من علمها ، فكادت ترقصه من الهز . وركض فرسان اربعة على خيول شديدة من حول البيك بغارة معروفة ..

وانعقدت حلقات الدبكة واشتغل الطبل والزمر ، ورقص النوريات وقدم لغولدا وصاحباتها عباءات خفيفة ليأخذن راحتهن في الجلوس .. ثم انه قدم الغذاء الذي تضمن اكثر من اربعين ذبيحة على صوانى الارز المكفن باللوز والصنوبر ، السابح بحمد السمن الجديدي الشديد .. والكرم العربي .

وهيأت رابينا آلتها المصورة واشتغل التصوير ، وهي تقول : هذا ما لم أشاهده لا في اوروبا ولا في افريقيا .. وغيرت وضعيات كثيرة بين الجلوس حتى شبعت الالة نفسها واكتفت ..

ولم يفت غولدا ان تلفظ خطبة الختام :

ـ اشكر زعيم القبيلة .. على هذا التكريم الذي ليس غريبا عن أخلاق العرب ، كما أشكر البيك على هذه الفرصة التي أتاحها لنا فتعرفنا بالشيخ النبيل ، وأرجو من الصديق المستشار ان يهتم به ، وبسائر الزعماء الكبار في العشائر لتبقى هذه الشعل المتوهجة في الاضاءة . كما اشكر كل القبيلة نساء ورجالا وخصوصا الفرسان على هذه الحفاوة البالغة التي ما كنا نتصور مثلها في حياتنا .

قال المستشار :

ـ أنا باسمي شخصيا وباسم ادارة المستعمرات عموما ، ونيابة عن السيد المفوض السامي لسورية ولبنان اشكر الشيخ صفوك وكل عشائر البدو .. وأرجو ان تتأكدوا بأن مصالحكم مؤمنه وان لا خطر عليكم في مواشيكم واغنامكم ومراعيكم وسائر مصالحكم .

كما انني متأكد من ان الشيخ صفوك لن يسمح للمشاغبين والدساسين باي حديث ضد المستشار لانه صار بيننا خبز وملح .. وأنني ادعو الشيخ صفوك وسائر وجهاء العشيرة الى غذاء عندي في الثكنة ، او في قناق البيك بحماه ان لم يحبوا غذاء الثكنة . وشكراً .

قال البيك :

ـ أنا أشكر الشيخ صفوك . لانه بيض وجهي امام اخواني واعطى

صورة عن كرم العرب ، الذي تكتب عنه الكتب ، ولو سمحتم سنودعكم الان معتذرين عن صيد الارانب في الليل ، فأنا أرى ان غولدا تعبت ، وأن لجسمك عليك حقا ، وشكرا .. وودعهم الفرسان بمثل مـــا استقبلوهم من حفاوة .

وصلوا حماه بعد الغروب وعادت غولدا الى المحطة فاستحمت وطلبت من السيدة المديـرة ان يكون العشاء خفيفا وابدت رغبتها فـي النوم فـورا .

وردت المديـرة :

ـ انها زيارة ، مرة في العمر ، ولست كـل يوم بيننا .. نامي الـى العاشرة وأنا اتولى ايقاظك للعشاء .

قالـت رابينـا :

ـ يجب ان ترتاح غولدا ، وكلنا تعبنا ، لكن في الواقع أنا لا أعرف ان اكل بيدي كما فعلتم في هذا اليوم . وفي العاشرة تحلقوا على مائدة المديرة وقال الحجي ان الياس استخبر اليوم من بيروت مطمئنا عـن الجميع فطمأنه ، وقال لام جيسكار أن البنات صرن بدويات وأن رابينا صارت نورية .. وضحكوا لنكتة الحجي وضحكت رابينـا متأخرة ، بسبب الترجمة .. واثناء الطعام جاء هاتف من بيروت وكان على الخط الياس ، الذي تكلمت معه غولدا ، واعلمته ان صحة الجميع بخـير وأنها بعد ثلاثة أيام ستكون في بيروت وعليه ان يخبر والدها في باريس ان الجميـع بخير ..

كما تحدثت غلادس مع أمها ، لتقول لها : البيك بيننا .. انهـا رحلة من العمر .. وعلى كل حال فالرحلة الاتية ستكون بمعيتك ، ومعيـة بابا ، سلمي باي باي ..

وقـال صبحي بـك :

غدا نزور مصياف المنطقة الجبلية ، ونحضر عرسا لاحد الفلاحين .. لكن غولدا قالـت :

اني اشكر صبحي بك على اهتمامه الكبير بنا كما اشكر الحجي الذي تعطل عن اعماله بسببنـا وأخذنا كثيرا من وقت السيد المستشار، كما أخص بالشكر المدام التي ارهقناها .. واتمنى لو عدلنا قليلا فـي البرنامج ، وطالما اننا هنا فأرجو لو سمحتم ان نزور حلب الشهبـاء سواء بالسيارات أو بالاوتومتريس .

ووافق الجميع على فكرة حلب . قال البيـك :

ـ حلب ، حلب . ولكن بعد غد .. غدا عند الفلاحين وحلب بعدها.

لكن غولدا عادت فرجته الغاء العرس . فاشغالها كثيره ووقتها قصير . ووافق البيك الا ان الحجي عاد للمزاودة الكاذبة :

ـ ولو آنسة غولدا ؟ ثلاثة أيام ومللت منا .. نحن بقينا في باريس اثني عشر يوما . وتبسمت له قائلة :

ـ وهل يمل منك ؟ ولكن تعرف الاشغال ؟ ولا بد من رؤية حلب .

وتفرقوا على موعد مبكر الى حلب وقد اعتذر الحجي عن المرافقة ولكن :

ـ بعد عودتكم فلام جيسكار ، والياس بعض الهدايا .. تحملونها معكم بالسلامة ..

وصلوا حلب العاشرة ونزلوا في فندق البارون ، فشربوا بعض المرطبات وانطلقوا الى القلعة فزاروها وزاروا بعض الاسواق ، وتناولوا طعام الغداء في الفندق ، وناموا بعد الظهر وفي المساء هتف مستشار حماة الى صديقه المستشار الحلبي ، الذي جاء فورا ليعلن ان حلب ترحب بوجودهم الكريم وقدم الحموي للحلبي الزوار كل بحسب قيمته وأهميته وأعلن المستشار انهم ضيوفه في الثكنة ودون أن يلقى جوابا نادى مدير الفندق وأمره بتجهيز عشاء يكفي دولة . وأمره بحملة الى الثكنة .. وعلى العشاء سأل صاحب الدعوة البيك عن برنامج غد فقال :

الحقيقة لا برنامج للغد ولكن غولدا برايها العودة الى حماه ..

وعاد المستشار يسأل غولدا عن البرنامج فردت :

كان براينا حلب والقلعة ولست ادري هل يسمح الوقت غدا بزيارة اثار في شرق حلب ، ونعود الى حماه . وعلى كل حال فقد عطلنا البيك عن اعمانه ..

فقال البيك : انا بدون عمل حتى تسافرون الى باريس ، ولو بقيت هنا العمر .. وقال المستشار المضيف : غدا اذن شرق حلب ، حفلة صيد بوادي الفرات ، ومطاردة غزلان بالسيارات .

ووافقت غولدا واعجب المستشار بذكائها وجمالها كما أعجب بجمال رابينا ، وكانت المدام لا تفتا تطلق بين الحين والاخر تعليقا بكثير من الخبث . وبعد العشاء عادوا جميعا الى الفندق ، وأصطحب المستشار رابينا الى الثكنة حيث سينطلقون منها في غد .

وفي الصباح تحركت اربع سيارات باتجاه الفرات عن طريق دير الزور في العاشرة والضحى متأخر والهواء يقلب امواج النهر القديم ،

وقفت غولدا على شاطئه تنظر الى مياهه بتأمل وصمت عميقين ... فقد كانت تحلم .

كانت سيارات المستشار الحلبي مليئة بالخيم والفوانيس ، واسلحة الصيد والحرب ، والوقود والفحم . وضربت الخيام بمنطقة الرصافة ، وتناولوا غذاء من السندويش الخفيف واشتغل السباق مع الغزلان ، وما هي الا ساعات حتى عادوا بأكثر من طريدة ، وتولى الجنود المختصون عملية الشواء مع زلم البيك ، بينما قام جنود اخرون على الحراسة وكانت ليلة الرصافة ، من ليالي بغداد أبدت غولدا اعجابها بها فقال المستشار الحلبي :

ـ هنا كان يصطاف هرون الرشيد ، والسيدة زبيدة .. وهنا ملكة الزباء اميرة تدمر وهنا صراعات في التاريخ لا تنتهي ..

وسمع عواء ذئب وصوت ثعلب ، ومر نسيم منعش وضربت كؤوس بكؤوس .

قالت رابينا :

ـ لماذا لا تنتقل فرنسا الى الرصافة ؟

وسددت غولدا لها فمها مقاطعة :

ـ يا رابينا الهواء علىل والبادية جميلة والاثار تشغل بال التاريخ والقمر يلهب ليالي العاشقين .. يا رابينا القمر ساطع من أجل الحب، فانظري ، انظري ،.. ما أجمل الليل والقمر وأنت ..

وبدلت رابينا حديثها فورا :

ـ يا سعادة المستشار هل يمكن لنا ان نخرج خارج المضرب ؟

وقال المستشار :

ـ لا يا جميلة .. الارض غير أمينة ، لا من السكان ، ولا من الافاعي سوى منطقة خيامنا التي طهرها الجنود ورشوها ، لذلك تنامين باطمئنان ، وعلى فكرة من ترغبين ان يكون صاحبك الليلة ؟

قالت غولدا :

ـ يجب ان ننام الليلة مبكرين لنصل حلب في التاسعة وانني سأعود منها الى حماه بالاتومتريس ، وكم أنا شاعرة بهذا الفضل ، فمنذ نعومة اظافري وأنا أهجس بسوريا والشام ، ووادي الفرات وناموا كيفما ارادوا ، وشارك معاون المستشار الحلبي خيمته السيدة المديرة .. وفي الصباح طويت الخيم ، وانطلق الركب الى محطة الاوتومتريس في حلب ، فركبوه جميعا الى حماه ، بعد ان ودعهم

المستشار ، وأما سياراتهم فعادت الى حماه فارغة تنهب دواليبهـــا الطريـــق .

خلال هذه الايام القليلة ، كان الحجي قد فرغ من اعداد الهدايـا الخمس وفقا لرغبة البيـك ومشتهاه .. وكانت بيروت قد سألت عـن موعد رجوع الصبايا .. اكثر من مرة .

فقـال الحجـي :

هم الان في حلب وننتظر عودتهم من ساعة الى أخرى وأكد لـه الياس ، ان سايكس ابرق اليـه يستعجل عودة ابنتـه .

ورد الحجي : سأنقل ذلك اليها ، عندما تصـل .

وعاد الياس للتجـارة :

ـ كيف موسـم الحنطـة .

وسألـه الحجـي :

ـ أتريد ان نشتري من غير المسلفين ايضا .. لان الموسم جيد .

وقال الياس : نشتري من الجميع مسلفين ، او غير مسلفين .

وقال الحجي : مليونان . والسترة على اللـه .

ورد الياس : قبل الفجر المال عندك ، كل انتاج العدس يجب ان يمر عن طريقنا .. وعلى فكرة كيف مواسم القطن ؟

قال الحجي : والله العظيم فكرة : يا الياس كيف ، أنت حاضر ؟

قال الياس : حاضر وبس : وماذا يصنع خط القامشلي .. وضحك الرجلان عن السماعتين وقال الحجي : هذا المساء نتهاتف .

ـ وصل القطار السريع المحطة ، استقـل المستشار سيارته للثكنة ، والصبايا الى تخوت المديرة والبيك الى خان الحجي ، وضربـه علـى كتفـه مداعبا : مساء الخير كيف صحتك .. ان شاء الله الهدايـا جاهزة . وقال الحجي : اهلا سعادة البيك تفضل ماذا تأمر حلوة ، مـرة .. شاي بارد ، ما تأمر سعادتـك حاضر .

قال البيـك : يا سايس احمد هات شفة مـرة .

والى الحجـي :

ـ الهدايا غدا صباحا بالمحطة . واحتمال السفر الى لبنان غـدا وارد ... هل جهزت الهدايا ؟ .

ـ قـال الحجي :

ـ يا سعادة البيك ، تحدث معي الياس وقال انه بحاجة لمئة الف طن حنطة وثمانين الف طن شعير وكل عدس المنطقة وسيرسل غـدا

المـــال ، فأرجو أن تعذرني من السفر .

وقال البيـــك :

ـــ لا بأس ولا لزوم لسفرك ، أنا أرافقهم ولكن لا بد من مجيئك بالليل لنعرف البرنامج .

ورد الحجـــي :

ـــ أنا والهدايا بالمحطة ولكن كيف كانت سفرة حلب ؟

وقال البيك : الرحلة يا سيدي تطورت وصلنا الى الرصافة وتصيدنا الغزلان .. وشربت بنت الحرام من الفرات .

قال الحجي : انها امراة مرعبة يا سعادة البيك ..

ورد البيـــك : رابينا احلى منها ولكن المال عصـــب الحياة . يصغر الكبير ويكبر الصغير . ويجعل الحجي مراهقا .. فما رايـــك دائم فضلـــك .

قال الحجي : بسيطة يا سيدي كما تأمر ..

نهض البيك ومن ورائه الحجي يودعه الى باب الخان الخارجي ، وعاد وهو يهمهم يا رب الارباب يا من تعرف البشر بلا حساب .. والتفت الى السايس قائلا : اليس كلامي صحيحا يا أحمد .

ورد أحمـــد :

لم اسمع ما تقول يا سيدي .

فقال الحجي : الحمد لله الذي جعلك لا تسمع .

كانت الست المديرة تحضر لسهرة ذلك الليل الذي يبدو وكأنـــه ليـــل وداع .. حينما وصل البيك الساعة الثامنة . وفي التاسعة وصل الحجي بسيارة تحمل الهدايا ، وهي عبارة عن خمسة صناديق مـــن الوسط تضم الثياب ، وخمسة صناديق صغيرة فيها الحلي .. وسلم الحجي قائلا : رحلة سعيدة ، وصيد ثمين هذه أول مرة اسمع فيها ان الغزلان تصطاد الغزلان كيف الرصافة يا آنستنا الحلوة ؟

وردت غولدا : والله يا حجي ليلة حلوة ، شربنا من الفرات وغسلنا وجوهنـــا منـــه .. ولما رأيت الفلاحين ذكرتك وقلت لماذا لا يصل نفوذ الحجـــي الـــى هنـــا ؟

ورد الحجـــي :

بهمة الوالد سايكس ونشباط الياس ببيروت ، سأصل الى البوكمال ولن أدع بدويا أو فلاحا الا ويمرق من تحت يدي ، يد الحجي مثـــل المغناطيس ..

وسأل البيك عن برنامج الغد وعرض نماذج عديدة .

لكن غولدا المهذبة دوما ، شكرت كعادتها ، واطنبت ورحبت بحلاوة التي تعرف معنى الشكر للاستزادة من النعم ، وهي تتمنى العمر ان تبقى بينهم ، لكن وصلها هاتف من الياس قبل قليل يخطرها والدها بحاجه اليها ، وان حسابات كثيرة يجب ان تسوى مع دول عديدة ، وان والدها سيسدد مبالغ طائله الى بنك اشترا ، ويجب ان يدقق معه بالارقام .. وان تكون الى جانبه كما طلبت من المستشار ان يدعم البيك ويكون الى جانبه سياسيا واقتصاديا يزداد نفوذه بين اخوانه البكوات وشكرت المدام والحجي وعلادس وتمنت ان يقبلوا ضيافتها في مصرها بباريس . وتمنى المستشار لو سمحت له اداره المستعمرات باجازه في هذا الوقت ليرافقها الى ابعد من باريس ..

أما البيك فهو مستعد دائما لتلبية كل دعوة .

وقال الحجي : لوقتها فرج ورحمة ، ودعوة غولدا على الراس .

وقالت رابينا : ولكن يا حجي لا تنس ان تاخذ معك عتال لتحميل الاغراض .

ورد الحجي : رابينا عندها مزاج وتحب الفقراء .

والتفت الى البيك :

ـ سعادة البيك ، هذه الهدايا ، ارجو أن تقدمها وفقا لرغبة سعادتك . وقدم البيك صناديق الحلى الى الصبايا كما قدم صندوقا للمدام واخر للمستشار وشكر المستشار له هديته .

وقالت المدام : ولكن انا من أهل البيت .

فرد البيك :

ـ انت بيضت وجهي ولا انساك بعمري .

وفتحت رابينا صندوقها واعجبت بالهدايا ، واطرت كثيرا وبمعرفة .. ودهش المستشار لثمن الهدايا وعادت غولدا الى الشكر .

ورفع البيك كأسه ليشرب نخبها ونخب الجميع ويرجوها لو بقيت بينهم يومين اخرين ، وشربت غولدا نخبه ، ووعدته ان تلتقي به في المستقبل وزجته الا يكلف نفسه عناء المرافقة ، وسوف تسافر بالاتومتريس غدا . وسيارة البيك تقلها من طرابلس الى بيروت فبذلك اتفقت مع الياس .

قال البيك : كان بودي ان تسافروا بسيارتي وعلى كل حال فنحن على رغبتك وارادتك وغدا في الحادية عشرة تكون هنا بوادعك

بالسلامـــــة .

قال المستشار : لو تمشينا قليلا في هذا الليـــل فلي حديث مـــع غولـــــدا ..

ـــ ونزل الحجي لمراقبة تحميل العتالة . وبقي البيك قليلا في البيت .. وعادت غولدا من الثكنة بعد أن انهى المستشار حديثه معها .

وفي الصباح حضر البيك والحجي الى بيت المدير فتناولوا طعـــام الفطور الحموي المشهور بحضور السيد المستشار ودردشوا كثيرا عن الكرم البدوي والسمك الاسود ، وليالي باريس وطقم الحجي . وفـــي الحاديـــة عشرة اقلع القطار الى طرابلس وطارت قبلات كثيرة علـــى أرصفة المحطـــة في الهواء .. وعلى الرصيف الاخر في طرابلس كـــان الياس ينتظـــر ..

وبسيارة البيك أقل الضيفتيْن وابنته الى صوفر . .وطلبت غولدا من الجميع ان يتركوها لتنام . وفي اليوم التالي تركت الغزلان هديـــة لحديقة الياس ، كما جعلت هداياها وهدايا صديقتها رابينا امانة في بنك بيروت . وفي الثامنة مساء رحب بها صديقها لورانس بفندق فلسطيـــن بيافا .. وكانت ابرقت اليه صباحا من بيروتحيث كان بالانتظار ، وسألته ميناحيـــم فقال : ينتظر هاتفا بحضورك وقالت لـــه : اتراني غـــــير حاضرة ؟

وخف لورانس الى آلة مجاورة يعلن الاخر على الخط بأن المعلمة وصلـــت . وفي الفندق وعلى طاولة العشاء افهمها ميناحيم ان مقـــررات « البنـــد » تنفذ مرحلة مرحلة ، وحرفا حرفا .. وأن مقررات المؤتمرات الفرعيـــة تسير بشكلها الصحيح والمدروس ، ولكن لا بد من تضحيات كثـــيرة ...

وعن الشباب سألتـــه فقال :

ـــ البواشق تنتظر وليمة العصافير ..

واســعـــــار الاراضـــــي ؟. لمـــاذا لا توضـــع خطـــــة للتخفيض ؟ قالت بتركيز وكان جوابه حاسما : هذه ليست بيدنا ولا بيـــد أحـــد ، هذه يحكمها القانون الاقوى من الانسان : قانون العرضـــــ والطلـــب ، والطلب اليوم اقوى من العرض بما لا يقاس . لذلك كان لا بد من زيادة التمويل ، من اين يؤتى بالمال انا لا افهم .. الميزانيـــة لا تعرف مصادر المال .. الميزانية تفرض نفسها وعلى المهتمين ايجاد الفلوســـــ .

قالت غولدا : وهي تسوى زينتها امام مرآة حقيبتها بعد أن فرغت من فنجان قهوتها ودون أن تلتفت اليه :

صحيح .. صحيح .. شراء الاراضي اهم مراحل الخطة .. الارض الصلبة ساحة المعركة المقبلة ، والارض الصلبة هي الارض المملوكة ، وسوف لن يقاتل الرفاق على رمال متحركة ، يجب زيادة التمويل وليسقط العرض والطلب وكل القوانين والتفتت اليه وهي تقول :

ـ اسمع يا ميناحيم .. قبل سفري الى باريس سأمر بالاسكندرية مع رابينا ، فكيف ؟

وقال ميناحيم : سيارة لورانس ، واثنان من الرجال ، لم يرافقك هو ، والى بور توفيق والعوامة الى بور فؤاد .. والقطار الى القاهرة .. وكل شيء واضح الى الاسكندرية ..

وعقب لورانس :

ـ آنسة غولدا : انا وسيارة لورانس تحت تصرفك ..

قال ميناحيم : تحت يدي الان وفي مناطق مختلفة اربع بيارات للبيع سأشتري ثلاثا منها باسمك وواحدة لرابينا .. فهل تفوضين ؟

قالت ضاحكة :

حرك الاسعار الى تحت وانا حاضرة ، ورابينا ايضا .. وبعد يومين احول لك المبالغ على فرعنا في يافا . واكملت وهي تنهض : سننام فورا . ولورانس يتولى ايقاظنا في الرابعة صباحا ..

وصلتا القاهرة في الثانية بعد ظهر اليوم التالي بعد رحلة حافلة بالصبر القبيح كان امامهما حوالي اربع ساعات وهو موعد انطلاق القطار الى الاسكندرية ، وابدت رابينا رغبتها برؤية الاهرام فقالت غولدا :

ـ الاهرام كتل حجرية يابسة ، المهم ان تشربي من مياه الاثر المتحرك . واقلتهما تاكسي الى كازينو ، كليوبترا على النيل ، فتناولتا طعاما خفيفا وشربتا من الماء المثلج .

قالت غولدا :

ـ انظري فقد شربت الان من النيل كما شربت بالامس من الفرات وضحكت لها رابينا بملاحة وفهمت عليها فلم تحرمها من زيارة خاطفة للاهرام .. وامام الظلم المكوم احجار تحدث للتاريخ والانسان هتفت غولدا :

اين مستشار حماه .. يهز اعطاف نابوليون ؟

وفي الاسكندرية امرت سائقا ان يوصلها الى قصر مكدوني باشا على الكورنيش .. والعبد على الباب سألت بلهجة مصرية اصيلة :

الباشا فين ؟

وقال العبد المسترخي على كرسي كقفة :

ـ اقول له مين يا حلوة ..

ـ قـل « غولدا » من فرنسا كسلان تتكلم وانت قاعد ، افتـح الباب . وهب المسترخي كنابض عفوا ستـي ما عرفنـاك اجنبيه .. تفضلي ..وركض مسرعا الى الداخل ودلفتا وراءه الى الصالون الملوكي .. وصعد العبد الى سيده معلنا ان سيدة اسمهـا غولدا من فرنسا ترافقها اجنبيـة اصبحتا في الصالون وهرول الباشا كثـور هارب من اسطبل ، فقطع درجات السلم العشرين بخفة غزال نافر ، وبعد ان عانق « المفاجأة » عناقا طويلا .. قال ، وهو يلتفت الى الغريبة ارى معك حلوة .. فأين كنت تخبئينها عني في فرنسا ؟ وقدمت له رابينا ، فعانقها على الحساب وبالانكليزية قالت غولدا :

وصلت الان من مرسيليا .. وانا في طريقي الى يافا .. وقلت عيب الا ازور الباشا فقطعت رحلتي لاراك .. لي صديق في يافا . ابرق لي يستعجلني بالحضور فقد اشترى لي بيارات ، ولرابينا واحدة .. وقلت لا تخرب الدنيا ، بل بالعكس تعمر بليلة مع الباشا .. وغدا اسافـر الى قبرص ومنها الى يافا .. كيف صحتك ايها الغالي الحبيب ؟

وقال الباشا : كل مشاريعك ممتازة .. ولكن لماذا كالزوبعة ؟ الان تأتين وغدا ـ تذهبين ؟ وحقك لن يكون هذا ابدا ..

وردت بدلال : ان شاء الله في العودة اجعلك تمل منا ؟

وبعد تناول البارد ، وتبادل الذكريات خرجوا بسيارته الى حيـث أعد العشاء بقصره الاخر على الكورنيش .

وعلى المائدة تحدث عن مشاريعه المستقبلية في باريس ولندن . وعن ارتفاع الاسعار وازدهار الاتجار وارباحه من هذا الشعب الطيب هنا في مصر ..

وايقظت غولدا الباشا باكرا للتمشي معه قليلا في حديقـة القصر المغسولة اورادها بنوافير الماء المثرثرة . بينما كانت رابينا تجلس علـى مقعد تقلب صفحات مجلة عربية .. لا تفهم منها سوى الصور ..

قالت غولدا : لم اسمع رأيك بالبيارات بعد .. فهل توافقني على هذه التجارة ؟

قال الباشا : والله لا اعرف ماذا اقدم لك هدية .. نزلت كالبرق وذهبت كالرعد .

وردت غولدا : انت يا باشا فضلك سابق .. ولكن ما رايك بالمشاريع ؟

قال الباشا : مشاريع موفقة ، والبيارات اعتبريها هدية مني ... وهذا شك مفتوح على بنك لندن والشرق بلندن .. اسمعي البيارات الاربع على حسابي .. وارجو ان تقبليها ولا اقبل بغير هذا ..

وصرخت برابينا : تعالي اسمعي ما يقول صديقي ، تعالي .

قبلت غولدا الباشا حينما كانت السيارة على الباب ، وقادها الباشا بنفسه حيث ودعها بالمرفأ وعاد هو لا يعرف كيف باعوه ولا كيف اشتروه ...

مرت الايام .. واعلن وكلاء الحجي عن ربع ليرة مكافأة لكل كيس، يقدم قبل الاوان .. وكانت مزاحمة اثلجت صدر الحجي ، والبيك ، والوكلاء والفلاحين انفسهم ..

واشتغل الشحن الى طرابلس ومنها الى ديار المجاهيل !.

جاء حساب الحجي للفلاحين وان حسابه لشديد ..

كان ابراهيم قد استلف كالمعتاد البذار والمونة والكسوة واجره الحصاد وقدرت القيمة بأربعة الاف ليرة على الموسم ، ولدى السداد ، عجز عن كامل الوفاء ، وبقي عليه الفان .. واراد ان يدورهما كالمعتاد لكن الاوامر من باريس كما نقلها الياس الى الحجي ، كانت تقضي بعدم التدوير ....

قال الحجي :

ـ باق عليك كثير ، يا ابراهيم ! .

ـ هذا ما قسمه الله ، يا حجي ، وانني مستعد للدفع على القادم ! .

ـ ولكن البيك لا يرضى بالتدوير ..

ـ انظر ماذا تصنع بنا يا حجي ، نحن قوم نحب السترة وحفظ الكرامة والان ما معي .

ـ طيب ، نستد منك البغلة وعندك عشر نعجات وخمس عنزات فما رأيك ؟

وبعده ؟

ـ نشتري لك بدلا عنها او نشتريها ونبيعك اياها بتقويم جديد

للعـــام القادم .
ـــ ماشي الحال .
ـــ صح يا ابراهيم ، اليس لدى زوجتك مصاغ .
ـــ يا حجي ، لو كان لدينا مصاغ ، لما نبشنـــا صوف الفرش .. ولما بعنا البغلة .
ـــ الحق عليك ... ترسل ابنك للمدرسة وتنفق عليه .. بدلا من ان تشغله بالحقل فتستفيد منه ، وتوفر على نفسك النفقات .
واحب ابراهيم ان يرد ولكن السايس احمد أعلن عن قدوم البيك ، فقطع الحجي الحديث وصرف ابراهيم على ان يعود اليه في صباح اليوم التالي باكرا .
رحب الحجي بالبيك وثرثر قليلا عن المحاسبة ، والفلاحين عندمـــا رن جرس الهاتف ، وكان على الخط الياس الذي سأل عن صحة البيك، وضرورة رفع طاقة الشحن ، وأكد له على ضرورة دفع كل الديون ...
شرح الحجي للبيك ، رأي سايكس ، وموجزه عدم القبـــول بمبـــدأ التدوير . وكان البيك واضحا . هذا حق وليبع كل فلاح امرأته ويدفع .. وان تأخر احد فما عليك الا ان تخبرني، وحسابه عندي .. أنا مسافر لحلب ، حصتي في العنابر جاهزة فأشحنها .. قبل ان تسوس أو تتعفن هل توصيني بشيء .. ودون ان يسمع منه ودعه وانصرف .
ارتبك الحجي ، واضطرب للاسلوب الجديد ، فالقضيـــة ليست مقتصرة على فلاح او عشرة بل هناك مئات الفلاحين غير القادرين .
وبقي الحجي مع حسابات الفلاحين .. حتى اضطر للنوم في الخان، ومع صلاة الفجر ، وتدخين النارجيلة الصباحية ، حضر المخاتير والمشايخ والوكلاء ، دخلوا مصبحين مشتاقين للطلعة البهية واوامره الكريمة ..
قال الحجي :
ماذا يا مخاتير ان الكثيرين قد وقعوا بعجز ، فما الحيلـــة ؟
ورد أحدهم :
ـــ والله يا حجي بعض القرى ، لفحت حنطتها الشمس ..
وقاطعه وكيـــل :
ـــ علمي الموسم زين ، يمكن الناس أكلوه ..
قال الحجي : أبدا لم يحصل هذا ، كان موسم البيك ممتازا وانـــا بنفسي دققت الحسابات .
قال الشيخ :
ـــ قبل تدوير الحسابات ، يجب تقديم كل شيء عند كـــل فلاح ،

حتى الدجاجات يجب بيعها ، فالحق حق والحجي يجب ان يستد كامل حقه ..

قال الحجي :

انا دعوتكم ، لاخذ الراي ، والتشاور ويجب ان تعرفوا كيف تخرجون ذلك مع الفلاحين ، ثم امر السايس ان يقدم الهدايا للاخوان . وشيعهم بالسلامة ، واستودعوه الله بالشكر ...

كانت الساعة قد قاربت الثامنة والنصف عندما طلب الياس ليقول له ان اكثر من ثلاثة الاف فلاح من اصل اثنى عشر الفا قد وقع في عجز وان التدوير أمر لا مفر منه ..

قال الياس :

ـ ولكن ما هو راي البيك ؟

ورد الحجي :

رأى سعادته ان يبيع الفلاح امرأته ويسدد ..

وقاطعه الياس ضاحكا :

عظيم عظيم جدا . . نحن لا ينقصنا غير النساء ، ثم اردف برصانة :

ـ هذا كلام رجل غير مسؤول .. ولكن انت هل قومت المواشي عند كل الفلاحين ...

وأكد الحجي :

حتى الدجاج .. ابقيت لكل انسان طحنة ، ان اخذتها .. يمكن ان تكثر السرقات ، وانا لا احب ان اعلم الناس على الحرام ..

لكن الياس كان حازما في أمره :

ـ رايي يا حجي ان تمارس ، مع البيك ، عملية الضغط للنهاية ؟ وعندما لا يبقى في اليد حيلة فالتدوير وارد .. ولن اخبر سايكس بالموضوع . ونحن من حقنا ان نقدر ظروف المنطقة .

ـ يجب ان تلاحق عملية الشحن بكل قدراتك ، وانا بين يديك جاهز للتسليف الجديد ، وبالمقادير التي تحب وتشتهي ، والثقة بيننا من زمان ، ولن يفسدها موسم فاسد أو موسمان . ولم جيسكار تسلم عليك .. مع السلامة ..

ولم يكد يلقي السماعة حتى أعلن السايس عن قدوم ابراهيم .. واهل الحجي به ورحب ، وسايره بالقهوة المرة والحديث عن عمره :

لعلك لم تتجاوز بعد الاربعين يا ابراهيم ..

قال ابراهيم :

ـ ومن اين يا حسرة لقد جاوزت الخمسين .

— لا تظهر الخمسون ابدا عليك ، فالعمل يجوهر الجسم يا ابراهيم ... لماذا لا اراك الا مدانا الظاهر ضيوفك كثيرون .. وتقيم مواليد . وتعلم ابنك .

— المواليد يا حجي فيها بركة . والضيوف من الله ومحمد بالمدرسة لان العلم افضل من الجهل .

— خير ان شاء الله باق عليك الفان !.

— أوضاعي يا حجي صعبة دورها للعام القادم واذا لم يكن كذلك فروح بلط البحر . فغضب الحجي وكظم غيظه وطلب اليه العودة في الغد .

— غادر ابراهيم الخان .. وبعد قليل غادره ايضا الحجي الى قناق البيك ليحدثه عن اوضاع الفلاحين والتسديد ، وجواب ابراهيم القاسمي : لديكم فلاح اسمه ابراهيم العلي ، انكسر على الفين ولما حشرته قال : هذا الذي طلع . وبلط البحر .. وانا اعرف ان ابنه في المدرسة .

وثار البيك :

يا للرذيل .. مكسور .. ويحكي كلاما اكبر منه .. سأقطع لسانه واجعله يدفع على الراكع ولكن يا حجي ، من أين يأتي بالالفين ؟ فما رايك ؟..

قال الحجي :

عندي فكرة .. سألته عن عدد اولاده فقال عنده اربعة صبيان .. وليس لديه بنات وانما عند اخيه بنت واخوة متوف وعمرها اربع عشرة سنة .

وقال البيك ضاحكا :

وماذا ستصنع بالبنت .. وانت بالخمسين ؟ .

— قال الحجي بل اكثر من خمسين لكن رأيي ان نزوج البنت لاحد الفلاحين الذين يملكون الاغنام ، ونأخذ القيد .

قال البيك :

— فكرة ممتازة .. محسن ابن سلمان حالته جيدة .. ولكنه متزوج ومع هذا فلا بأس يتزوج واحدة ثانية .. واتفق الاثنان على زيارة القرية بنفسيهما ، لتسوية الاوضاع هناك ..

في اليوم التالي مر البيك بالخان ، فأركب الحجي بسيارته وانتقلا الى قرية ابراهيم .. وفي الطريق قال البيك ..

— يا حجي .. اخبار جديدة ، كنت في بيروت بالاسبوع الماضي ومررت بفلادس واخبرتني انها زارت غولدا بالقدس .. ورجعت غير

مسرورة .. وقالت لي :
غولدا ورابينا ، مثل البكوات واكثر وقصور وفلاحون من اوروبا ، والجزائر وتونس ومراكش ...
واستغناء عن الفلاحين القدماء .. ولرابينا اخت اسمها ديانا .. تسكن في قصر قدمه لها باشا من مصر اسمه مكدوني .. ورجعت غلادس حزينة ، لانها لم تكرم ولم يهتم بها احد .. وكانوا قليلي الادب معها ..

قال الحجي :

ـ انا اعرف .. ان هذه المراة خبيثة دفعتني مبلغا في باريس وانا مثل الماشي بنومه على كل حال يا سيدي .. لا يحصل الا ما قدره الله ..

ـ دخلت السيارة القصر العامر ، وامر البيك جاسما ان يحضر الوكيل والمختار والشيخ ، والفلاحين المكسورين ، وعددهم خمسة بينهم ابراهيم .. واخوه عبد الله .. ومحمود وعلي وحسين ابو حسني ونودي على الجميع فحضروا ، وجلسوا جميعا على الارض بحلقة حول البيك والحجي ، ما عدا ابراهيم واخاه عبدالله ، قد ظلا واقفين ، ولم يؤمرا بالجلوس ..

وقال البيك ، موجها كلامه لابراهيم :

باق عليك حسبه للحجي فهل هذا صحيح ..

ـ نعم يا سيدي حسابه صحيح .

ـ ولماذا لا تسدده اذن ؟

ـ يا سيدي اخذ كل ما نملك .. حتى صوف الفرشات واذا سمحتم يا سيدي ندور الباقي ، وكما تأمرون سعادتكم يكون والتفت البيك للحجي قائلا :

ـ ماذا تقول يا حجي ؟

ورد :

ـ نعم صحيح ولكن تعرف سعادتك ، انني مطلوب وعلي ضغط من بيروت ولو قال كل فلاح دور .. دور .. كنت سكرت ، ودرت في الطرقات ..

قال البيك :

ـ يا ابراهيم ارى الحجي غير راضي بالتدوير ، فما هو راي المختار ؟

قال المختار :

— يا سيدي ، انت ادرى بفلاحيك ..
وعاد البيك الى الحجي :
هل تدور ، او عندك فكرة تقدمها ، وننظر فيها ؟
قال الحجي :
انا يا سيدي علي ضغط وعند اخيه بنت ، نزوجها لمحسن ابن سلمان ونأخذ القيد نسدد الدين لا بد من زواجها بالنهاية .
قال المختار :
— ولكن محسن متزوج عنده امرأة .
فرد الحجي :
— يتزوج واحدة ثانية ، وعنده غنم وبذلك استد حسابي وادفع لاهلها .. الفا يدبرون به الحال ..
وافق المختار مضيفا :
— ويشتري ابراهيم بغلة ، وان احتاج تسلفه الباقي ..
وقال الحجي : ليست مشكلة ناد على محسن ..
وهنا اعترض عبدالله :
— يا سعادة البيك ، لا يعقل ان نزوج ابن سلمان فهو ليس من اصحابنا .
ورد البيك :
— اصحاب او غير اصحاب ناقصتنا الصحبة .. ما هذا العلك ؟
قال ابراهيم :
— يا سعادة البيك يجب ان نشاور أم البنت .
ورد سعادته منتخيا :
— وهل مانت الرجال ؟
وعاد ابراهيم الى الاستعطاف :
— يا سعادة البيك ابوها متوفي تركها يتيمة برقبتنا ، ولا بد من مشاورة امها ..
وقاطعه عبدالله :
— والله يا سعادة .. ما دمت في الحياة لن أزوج بنت اخي على كيف الحجي ، فصحيح له الفان .. يدورهم .. وسعادتك تكفلنا . وان لم ترض نرحل عن القرية ؟ ولنا الله !.
وقال البيك :
— صحيح فلاح وقح غدا لن ارى وجه احد منكم هنا .
وقال ابراهيم : ماشي الحال ، عبد الرحمن بك بالمنطقة الغربية

يكفلنا وانهى البيك الحديث : أي ماشي الحال غدا اجلب كفالة من عبد الرحمن ، لجانب الحجي وارحلوا .. ولكن لا رحيل قبل الكفالة أو تقديم البنت .. وانصرفوا لينفخ البيك :

فعلا فلاح لم يرض ان يزوج بنت اخيه بطريقة اعتبرها تمس بشرف الفلاحين ..

في صباح يوم تشريني اشتدت وطأة حرارته الصباحية ، كانت العائلة قد حزمت امتعتها الرثة الضئيلة قسم على الاكتاف وعلى الرؤوس فحتى الاطفال حملوا جزءا من الامتعة ، تشد الرحال سائرة باتجاه الغرب ، قاصدة ارضا اخرى لاقطاعي اخر ، تجهد وتكد وتظل مدينة . ومضت براس هذا الرجل الفلاح المتمرد الف فكرة وفكرة ، كانت نسمات الريح الساخنة قد بدأت تهب فتلفح الوجوه ، كما كانت الافكار التي تدور في راس ابراهيم .. انها رحلة شاقة ومتعبة كما هي حياته شاقة ومتعبة ، استمر مسيرهم طويلا حتى وصلوا قرى عبدالرحمن بك فحطوا رحالهم هناك في الوقت الذي كانت تحط قوافل اللاجئين رحالها في مناطق متعددة من الارض العربية مطرودة من فلسطين واتجه ابراهيم فورا الى عبد الرحمن بك بعد الوساطات الطويلة من الوكيل الذي وافق بدوره على ان يقيم في ارضه ، كما وافق على كفالته عند الحجي .

رجع محمد من مدرسته في حماه ، وبحث عن اهله فلم يجدهم فأخبر بالذي حصل واتجه من فوره بعزيمة الى اهله . متعبا منهكا .

رحب به والده وكذلك والدته وفي المساء كان محمد يقص لوالده ، انباء المظاهرات العارمة التي شهدتها كل مدن القطر وعن توزيع المنشورات الحماسية واعطاه احدها التي تدين الاستعمار وتطالب بوضع حد للمواقف غير المسؤولة التي تقفها الانظمة ازاء الغزوة العنصرية الصهيونية الجديدة والتي تحث الجماهير على الاستيقاظ .

نبذة عن حياة الكاتب

محمد إبراهيم العلي

ولد الكاتب محمد إبراهيم العلي عام ١٩٣٤ في إحدى قرى منطقة السلمية التي تقع في شرق مدينة حماة. وعاش فيها طفولة اتسمت بعدم الاستقرار وقسوة العيش. وهكذا لاحقه قدر عائلته الذي لم يستقر بها مكان منذ قرن من الزمن مدفوعة بروح التمرد ضد الظلم والاضطهاد.. فعائلة العلي كانت أصلاً تعيش في الساحل السوري حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولكن نزاعاً مسلحاً بين جده الأكبر وقائد الحامية العثمانية في تلك المنطقة قتل على أثره الضابط العثماني اضطر العائلة إلى الهرب باتجاه الشرق على أطراف البادية السورية حيث وجدت لها مستقراً في منطقة السلمية، ولو إلى حين... ودخلت العائلة في صراع مع إقطاعي المنطقة الشرقية، ولم يكن والده في يوم من الأيام يقبل الضيم أو الخنوع بل

كان يتمرد على ظلم الإقطاعي حتى ولو كلفه ذلك مطاردة عائلته والبطش بها وتهجيرها إلى منطقة أخرى .

وفي بداية العشرينات من هذا القرن وأثناء فترة الاحتلال الإفرنسي لسورية كانت عائلته سباقة في التصدي إلى الاحتلال الإفرنسي، كما تصدت دائماً لظلم الإقطاعيين وتمردت عليهم حتى ولو كلفها ذلك عدم استقرارها وتهجيرها .

لقد كانت أفكار التمرد والعصيان ترهب وتقض مضاجع الإقطاعيين وأسياد القرى وكان هؤلاء غالباً ما يتوصلون إلى ضرب هذه الأفكار وإفراغها من كل أثر إما بالعنف أو بشراء الذمم أو بالاستعانة بجنود الإحتلال أو التهجير وكانت هذه الوسيلة الأخيرة من نصيب أسرته .

وبعد الحرب العالمية الثانية استقرت عائلته في منطقة الغاب التي كان الإقطاع فيها ضعيفاً... ولقد هيأت له هذه الحياة على الرغم من قساوتها تنوعاً مدهشاً في المشاهد والاكتشافات والمعارف. واغتنت ذاكرته بالصور والوقائع والأحداث التي دفعته بقوة فيما بعد وفي فترة فتوته إلى اختيار الكفاح طريقاً له في الحياة. وأن يضع معنى واحداً لحياته كلها يتمثل في مجابهة الإقطاع والحد من سيطرة الأغنياء المستغِلين والدفاع عن حقوق الفلاحين البسطاء في الحرية والعيش بكرامة. وارتسمت إلى الأبد في مخيلته ألوان الاضطهاد التي كان يسومها الإقطاعيون لفلاحيهم، وضروب

التنكيل والاستغلال البشع التي كانوا يوقعونها بهم، وبشكل يتساوى مع حملات وأشكال القمع والإضطهاد التي كان يقوم بها جنود الإحتلال من طرف ثان، لتكتمل الصورة بأفظع وأقسى صنوف الظلم والقهر التي لا تنعكس مظاهرها وآثارها على انحطاط الحياة وجفافها فحسب، إنما تبقى آثارها على أجساد الفلاحين وأرواحهم المهزومة.

وبدت الحياة كما لو أن القدر يأبى أن يترك لهؤلاء المقهورين أي فرصة للعيش أو أي أمل فيه عندما وصل ضجيج الحرب إلى تلك القرى، وهزت انفجاراتها بيوتها الطينية وأقلقت صمتها الأبدي الحافل بالذل والحرمان. كان من الصعب تخيل المفارقات التي انطوت عليها تلك الفترة. ففي الوقت الذي كان ينحبس فيه المطر وتتيبس الأرض، وتختنق البذور في تربتها، ويعز على الناس الغذاء حتى لا يجدون ما يقتاتون به إلا عشب البراري، كانت طائرات المتقاتلين تزرع سماءهم باللهب وتقصف قراهم بالقنابل فتمنحهم جحيماً ضارياً لا راد له يبدو فيه الإقطاعي المكتنز بالصحة والملذات الشيطان بعينه الذي لا يتورع عن اختلاس تموين الفلاحين الضئيل من سكر ودقيق الذي توزعه السلطات المحلية للفلاحين بالحد الذي يمكن أن يدفع عنهم الموت فقط.

تلك هي الصور التي تلبست روحه منذ وعى على الحياة. وانطبعت في أحاسيسه كأثلام لا تفارقها حتى بعد زمن طويل تغيرت فيه الحياة إلى

هذا الحد أو ذاك. والتصقت به كجلده تحمله إليها أجنحة من الذكرى كلما تحسس عالمه الأفضل الذي وصل إليه.والمتتبع لأعماله الروائية، وهو الذي اتجه إلى الكتابة في سن متأخرة ، سيكتشف دون جهد أثر تلك المرحلة في أعمال نفسه ، وأثرها بالتالي على تكوينه الأدبي والفكري. والحق أنه ما استطاع أن يخرج من أسارها. ظلت تشده إليها وكأنما تحدث الآن. وفي أعمال عديدة لشدة ما تشربت بها روحه، ما استطاع أن يعطي عنواناً واحداً لموضوعات مختلفة سوى كلمة «الطغيان»... وهو عنوان الثلاثية التي استوحى موضوعاتها من تلك الفترة من حياة الفلاحين. لأنه لم يكن قادراً طالما أنه أمسك بالقلم على أن ينسى أباه أو أحد أقاربه أو أحد معارفه وهو ما يزال على قيد الحياة ويحمل فوق ظهره أو وجهه ندبة عريضة من سياط السادة أو بنادقهم في تلك المرحلة.

لقد رافقته تلك الأحاسيس والصور في مراحل حياته المتنوعة والحافلة بالتجارب، (والتي أصاب فيها بعض النجاح)، فكانت هادياً له في علاقته مع العالم والناس وميزاناً ذا سطوة في تفسير الاكتشافات والحقائق التي تمر به. فما أولى ظهره لبسطاء الناس الذين خرج من بينهم، وما انسلخ عن عبق الحياة القديمة بشقائها ومآسيها، وما نسي أنفاسهم وروائح عرقهم ودفء أجسداهم. لقد كانوا بالنسبة له دائماً المحيط الطبيعي الذي يمده بالحياة والسعادة.

وما كانت المراحل اللاحقة في حياته إلا فسحات صغيرة جهد فيها نفسه ليثبت تلك الصور في الذاكرة والوعي والمشاعر ويغتني بتجارب إضافية، لا لكي تعينه على الكتابة في المستقبل، وهو الذي لم يفكر بالكتابة إلا في وقت متأخر، حتى يتسلح بعدة الحياة المناسبة للكفاح الذي اختاره من أجل التغيير والنضال ضد الظلم والأوضاع الجائرة التي يرسيها. لا سيما أن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب في جنبات المجتمع السوري آنذاك.

ففي نهاية الحرب العالمية الثانية وحصول البلاد على استقلالها وجلاء القوات الأجنبية عن أرضها كان قد أنهى تعليم الكتّاب (الملا) وحفظ القرآن الكريم وأتقن علوم اللغة والتجويد. ولأن تغيراً أراد والده أن يرسله إلى مدارس المنطقة الساحلية لمتابعة تعليمه هناك نظراً لعدم وجود مدارس في منطقته.

لقد أدرك والده بحسّه الواقعي أن العلم هو العدو الحقيقي والرئيسي للاقطاع طالما أنه يحاربونه كما يحاربون الوباء ويقاومون قيام أي مدرسة كما يقاومون أي تمرد. وهو لهذا الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من القضاء عليهم. وهكذا قرر إرساله إلى مدرسة في جبال الساحل. لكن سوء الأحوال المادية والظروف الصعبة التي عاناها في ذلك العام اضطرته للعودة إلى أهله. وفي العام الذي تلاه ذهب إلى حماة ودخل في مدرسة دينية تدعى «المحمدية الشرعية» وانتسب فيها إلى الصف الخامس مباشرة.

وتابع دراسته في حماة من عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥١ حيث حصل على الشهادة الإعدادية من ثانوية «ابن رشد» الداخلية التي كانت تعطي بعض المقاعد للفقراء.

في تلك الأثناء كانت مدينة حماة مدينة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها المئة ألف نسمة. وكانت تعيش فيها خمس أسر أو ست أسر من الإقطاع التي تملك ريف وأراضي المحافظة. منها أسرة العظم والبرازي والكيلاني والبارودي. في حين كانت عدة أسر ثرية أخرى تهيمن على البازار والسوق التجاري الذي تتجمع فيه الأموال ومحاصيل الفلاحين. بينما كانت بقية الناس تعيش في فاقة تفصلهم عن الأغنياء والموسرين هوة عميقة تتنامى باستمرار.

في سنوات الدراسة تلك اندفع إلى قلب حياة المدينة، التي تعيش تناقضات طبقية عنيفة. جوهرها واحد لا يختلف عن جوهر التناقضات الطبقية في الريف وإن بدا أنها أقل وطأة منها. وإلى هذا العهد تعود معرفته بالعلاقات الاقتصادية التي تربط القرية المدينة. ودور الخانات والتجار في استغلال الفلاحين القبيح وآلية وأساليب دورات الاستغلال هذه التي تعتمد أساساً على جهل الفلاحين وحاجتهم إلى المال والدين لفك عثراتهم المتلاحقة. ولم يكن من باب المصادفة أن تكون رواية «المرابي» التي تناولت موضوعها من هذه البيئة ومن هذه العناصر أول رواية له. ذلك أن

تلك الحانات الاستغلالية مع مخافر الدرك في زمن الفرنسيين مع قصر البيك كانت تمثل مجتمعة رموز الطغيان الكريهة التي تسلب خيرات الأرض وتسوم الناس بعقوبات تبدأ بالتجويع ولا تنتهي بالجلد حتى لا يفكروا بالاحتجاج والعصيان يوماً ما.

كانت السياسة تعني عنده الكفاح ضد ظلم الإقطاع. ولذلك كان أول عمل قام به وهو على مقعد الدراسة الانتساب إلى حزب الشباب الذي كان يطرح بعض قضايا هذا الصراع. وفي عام ١٩٤٨ أصبح عضواً عاملاً فيه، وسمي الحزب فيما بعد بالحزب العربي الاشتراكي. الذي اندمج في مطلع الخمسينات بحزب البعث ليؤلفا سوية حزب البعث العربي الإشتراكي. وجاءت الأحداث متلاحقة لتغني الأفكار السياسية في ذلك الوقت. لقد نشبت حرب عام ١٩٤٨ وتلتها الهزيمة والنكبة التي هزت مشاعر الناس وانتفضت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وخرجت الجماهير إلى الشوارع والساحات في كل مكان تتساءل عن أسباب الهزيمة ومصير فلسطين وعما يخبئ لها المستقبل. ونشطت في تلك الفترة الأحزاب السياسية كافة واحتدم الصراع بينها وبين الإقطاع والبرجوازيات الكبيرة. وفي مدينة حماة لعب المعلمون دوراً رئيساً في هذا الصراع الذي اتخذ أشكالاً عديدة من المواجهة والعراك إلى المظاهرات والاضطرابات، إلى كتابة المناشير والتحريض والتوعية، وتوزيع المناشير على الفلاحين في

القرى لأنهم يشكلون الكتلة الكبيرة التي يمكن أن يعتمد عليها في أي انتفاضة أو ثورة. ولعبت الأحداث السياسية اللاحقة دوراً جديداً في تعميق الصراع وتطوره وصارت النضالات المطلبية والقضايا الوطنية والقومية متلازمة. فخرجت المظاهرات الغاضبة ضد اتفاقية رودس. وحدث على أثرها أول انقلاب عسكري قاده المشير حسني الزعيم، لكنه لم يدم أكثر من شهر حتى انكشف على حقيقته وأسفر عن وجه ممالي للإقطاع والاستعمار ولم يأت بجديد للطبقات المسحوقة.

عاش هذه الأحداث بكل كيانه وتتبع انعكاساتها على الفلاحين وأهل المدينة في حماة، وشارك بفعالية قصوى في أعمال حزب العربي الإشتراكي الذي اندمج فيما بعد بحزب البعث العربي ليشكلا حزباً واحداً ـ اسمه حزب البعث العربي الإشتراكي.

وأخذت الأفكار الإشتراكية منحى آخر أكثر واقعية وأشد وضوحاً. وكان لا بد من تقويتها وتصليبها بمزيد من المشاركة الفعالة في الأحداث الوطنية. ولم تحدث مظاهرة أو إضراب في تلك الفترة لم يشارك فيها. وقد أمدته حياته بين البدو وسنوات الرعي بأسلحة ما كانت تخطر على بال. وهي حسن استخدام «المقلاع». كان يستطيع أن يصيب أي هدف وكأنه يستخدم بندقية. وكان مع بعض الرفاق والزملاء الطلبة يستطيعون إغلاق أسواق المدينة الرئيسة باستخدامه فقط. أو أن يهزموا فصيلاً من الدرك المدجج بالسلاح الناري.

لقد خاضوا معارك كثيرة في المدارس والساحات وأمام دار الحكومة وقصور الإقطاع. ومنذ ذلك الوقت بدا له واضحاً جلياً أنه بوحدة الصفوف وبالوعي الطبقي يمكن أن تهتز الأرض تحت عروش هؤلاء المتزعمين.

كان من الصعب عليه وهو في المدينة أن ينسى الإقطاعي الذي عاد إلى القرية بعد رحلة صيد غير موفقة، فأخذ يطلق العبارات النارية بفوضى وهستيرية حتى أصاب أحد الفلاحين وأرداه قتيلاً. ويصعب عليه أيضاً أن ينس حياة الحصادين المشرشرين عرقاً ودموعاً يتعرضون لضربات الشمس التي كانت تودي بحياة الكثيرين منهم. وقد ارتبط كل ذلك بشكل لا تنفصم عراه مع قبان «حجي» الخان الذي يغش في الوزن ويقرض بالفائدة. لم يتوقف عند استعادة الذكريات المؤلمة والانفعال النفسي بها، إنما أخذ يترسم معالم الطريق المؤدية إلى تغيير هذا الواقع الكريه. وكان هذا يمده بمزيد من الاندفاع والزخم. ومع أنه شارك بحماسة وإخلاص في معارك الأحزاب التقدمية السياسية في تلك الفترة، إلا أن ذلك لم يسفر عن نتائج ثابتة وراسخة ولم تكن أكثر من آلام المخاض قبل الولادة.

لكن ذلك لم يؤثر على تفاؤله بالمستقبل، ولم يشوه أحلامه العريضة في التغيير. الأمر الذي وضعه أمام قناعة ثابتة هي أنه يجب أن لا يتوقف عند حد، وأن يمضي في الحياة بسهولة لا يلين أمام صعابها ولا يلوي عنق

المراحل لخدمة أغراض عابرة. إنما يهيء نفسه لثورة قادمة بدأت ارهاصاتها تتوضع في أرض الواقع.

في عام ١٩٥٣ غادر قريته إلى حوض الفرات وعمل في القرى هناك وكيلاً لمعلم ثم معلماً مثبتاً. في البداية علّم البدو. ورغم معرفته بهؤلاء الناس سابقاً ومعايشته الحقيقية لهم في مراحل طفولته، إلا أن هذه التجربة كمعلم بينهم أغنت معلوماته وانطباعاته عنهم أكثر فأكثر، واستطاع في تلك الفترة أن ينفذ إلى أعماق هذا المجتمع الذي يبدو ظاهرياً غريباً، وأن يطلع عن كثب على أساليب تفكيرهم ومعالجاتهم للقضايا الحياتية التي تمر بهم. وطرائق معيشتهم ذات العناصر البسيطة ومدى تأثيرها على وعيهم. وربما لهذه التجربة الغنية بالذات يعود الفضل الأول لكتابته رواية «التحول الكبير» التي اتخذت من سد الفرات العظيم الذي بني بمساعدة الإتحاد السوفييتي (سابقاً) مادة وموضوعاً لها.

وفي سنوات تعليمه تلك لم يكن يعتبر نفسه معلماً موظفاً يلقن التلاميذ أصول القراءة والكتابة فقط. كان يشعر بمسؤولية تجاه كل مجتمع يعيش فيه. هي أن يشارك في تفصيلات حياته اليومية ومشكلاته وشؤونه. ولذلك حمل معه إلى هذه البيئة البكر أفكار حزب البعث العربي الإشتراكي الذي ينتمي إليه، وخاض معهم جولات وجولات من النقاشات والتحاور، يقرب من خلالها أفكار الحزب إلى أذهانهم وعقولهم.

وعندما اكتشف أمره من قبل السلطات المحلية، وكان الحزب وقتئذٍ يعيش عهداً سرياً، اعتقل وأودع السجن عام ١٩٥٤ لكنه لم يبق فيه سوى يوم واحد. لأنه في اليوم الثاني من اعتقاله حدث الإنقلاب على الرئيس الشيشكلي وأفرج عنه.

وربما ستلعب أمثال هذه المصادفة دوراً مدهشاً في حياته اللاحقة. وستلعب دوراً عجيباً في إنقاذه من الموت المحتم. وذلك عندما قامت ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ قبل يوم واحد من تنفيذ حكم الإعدام به. الأمر الذي سيأتي تفصيله بعد قليل.

بدأ حياته العسكرية عام ١٩٥٤. التحق بمدرسة الرتباء في مدينة قطنا القريبة من دمشق. وقضى فيها مدة الدورة وهي ستة أشهر تخرج بعدها منها برتبة عريف. وفي هذا العام أغتيل العقيد الوطني عدنان المالكي الذي كان مشرفاً على مدارس الرتباء التي تنتمي إليها مدرسته. كان يرعى مباراة في كرة القدم وكان حاضراً بين الجمهور. وفي اليوم الثاني اشترك في مراسم الدفن وكان من الجنود الذين ساروا في حراسة النعش. كان المالكي من الوطنيين المتحمسين للقومية العربية وكان حليفاً لحزب البعث العربي الإشتراكي، وقد هز اغتياله النفوس وملأ القلوب بالاستنكار والغضب.

بعد تخرجه من مدرسة الرتباء عين في الجولان رئيساً لمخفر عسكري قريب من بحيرة طبريا. حين وقعت أثناءها معركة حامية مع القوات

الصهيونية المتمركزة في مواجهة مخفره. واستشهد قائد سريته. وعلى أثر المعركة نقل الفوج بكامله إلى القطاع الشمالي من جهة الجولان. وأصبح رئيساً لمخفر عسكري مقابل مستعمرة «كفر شامير» بقي هناك حتى عام ١٩٥٦ حيث انتهت مدة خدمته الإلزامية وسرح بعدها من الجيش. لكن بعد أن درس الثانوية وحصل عليها وهو في الجندية.

بعد تسريحه بيوم واحد جرت حرب السويس والعدوان الثلاثي على مصر. فأعيد ثانية إلى الخدمة برتبة رقيب. وتقدم بعدها بطلب إلى الكلية الحربية والتحق فيها عام ١٩٥٧ متأخراً عن الدورة ثلاثة أشهر وقبل فيها لأنه أدى الخدمة العسكرية الأمر الذي ساعده في اللحاق بزملائه في الكلية. وفي الكلية كان طالباً نشيطاً معروف الإنتماء إلى حزب البعث العربي الإشتراكي. وكان هذا أمراً غير مرغوب فيه ورغم التنبيهات الكثيرة فقد واصل نشاطه الحزبي، وكانت قضية الوحدة هي القضية التي يتمركز حولها فكره ونشاطه الحزبي كبعثي. وبطبيعة الحال لم يكن هذا يرضي الكثيرين من الضباط. مما حال بينه وبين التخرج من الكلية إلا في دورة لاحقة. وبعد قيام الوحدة التحق بالكلية الحربية في القاهرة وتخرج منها عام ١٩٥٩ برتبة ملازم وعين في كتيبة المظلات المتمركزة في القاهرة.

ـ اتبع دورات عسكرية مختلفة كقائد سرية في سلاح المشاة، وكمدرب في الصاعقة ومدرب في المظلات، ورفع إلى رتبة ملازم أول.

وفي الفترة التي قضاها في مصر ربطته علاقات طيبة بالجنود والضباط المصريين وأحب مصر والمصريين وجاءت الوحدة لتنعش الآمال وتحقق ما ناضل من أجله طويلاً، لكن لم يمنع أن يعارض فكرة حل حزب البعث العربي في سورية كما طلب القادة السوريين. وعندما خضع قادة الحزب لهذا القرار وحلوا الحزب. أبدى استنكاره أمام أحد قادته البارزين يومذاك وهو صلاح البيطار وكان موجوداً في القاهرة. وأعلن أن هذا الأمر يعد خطيئة تاريخية كبرى. لكن ذلك لم يؤثر على علاقاته مع الأخوة المصريين ولا على موقفه المبدئي من مسألة الوحدة بين مصر وسورية. وتابع نشاطه العسكري بكل إخلاص.

ـ عمل دورة مدرب صاعقة في انشاص الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية للقاهرة.

قفز من الحوامة دون مظلة عن ارتفاع ٨٠ متراً على سطح مياه النيل، مع أنه لا يجيد السباحة! وكان الرئيس جمال عبد الناصر يرعى حفل التخرج فتقدم منه بعد نهاية العرض وأثنى عليه.

وعندما حدث الإنفصال كان موجوداً في القاهرة. وكان من أشد المعارضين للإنفصال واعتبره جريمة كبرى ضد التاريخ العربي الحديث يجب أن يحاسب عليها مرتكبوها.

عاد بعدها من القاهرة حاملاً الكثير من الإنطباعات عن الجنود والضباط المصريين الذين يملكون حساً وطنياً كبيراً وقدرة هائلة على

التحمل والصبر. وعندما وصل إلى دمشق حاول التلفزيون السوري إجراء مقابلات مع الضباط العائدين لاستدراجهم للإساءة لمصر ولعبد الناصر. لكنه رفض هذه المقابلة.

وفي هذه الفترة سُرح العديد من الضباط البعثيين ومنهم الرئيس حافظ الأسد. ونقلت وحدته إلى معسكر رسم العبود الواقع في شرق حلب.

هناك مقولة لعبت دوراً أساسياً في حياته وهي أن الجيوش إذا امتكلت الوعي الطبقي إلى جانب الإحساس الوطني يمكن أن تكون قوة مؤثرة في مجرى التحولات الثورية. وخصوصاً في بلدان العالم النامي التي تلعب فيها الجيوش عملياً. دوراً رئيساً في السياسة.

لقد لعب الجيش السوري في فترة ما بعد الإستقلال حتى بداية الستينات دوراً أساسياً ووحيداً في تغيير الحكومات من خلال الإنقلابات المتعاقبة. لكن قادته في ذلك الوقت لم يكونوا يحملون أية صيغة من صيغ الحكم الوطني أو الشعبي. واندفعوا بغلو باتجاه الإنقلابات ضمن نطاق الصراعات التناحرية للوصول إلى السلطة. ونسوا إلى حد كبير مسؤولياتهم الوطنية في الدفاع عن الأرض، وتطوير البلاد. كانوا يمثلون الطبقات والشرائح العليا في المجتمع وكانوا يعملون على خدمتها في السياسة والإقتصاد. وآل الأمر ببعضهم إلى التآمر على مستقبل البلاد وعقد

الصفقات السياسية والإقتصادية السرية التي تربط البلاد بعجلة الإستعمار الحديث وترتهنها لمشيئتها ومخططاتها.

لكن الذين عايشوا الجنود السوريين على الجبهات ومواقع القتال مع العدو الصهيوني، وتلمسوا الجذور الطبقية لهؤلاء الجنود في القرى والمدن، يدرك تماماً أنهم سيكونون يوماً ما ساعد الثورة الأيمن التي ستعمل من أجل قضايا وطنية قومية ملحة كالوحدة العربية الإشتراكية نصيرة الفقراء والعمال والفلاحين والكادحين.

من هذه الفكرة انطلق إلى تحديد علاقته بعمله العسكري. كان يشعر أن الجندي الذي يقف صامداً على الحدود للدفاع عن أرض الوطن ضد أخطار العدو الصهيوني، سيعي يوماً ما أن عمله هذا سيكون ناقصاً على الرغم من عظمته ما لم يكتمل في الدفاع عن المستغَلين من أبناء وطنه الذين يعمرون هذه الأرض وتخليصهم من قهرهم وفقرهم التاريخيين.

لقد لاقت أفكار حزب البعث العربي الإشتراكي التي تتمحور حول هذين الهدفين، والتي تربط بقوة بين التحرر الوطني والتحرر الإجتماعي، انتشاراً واسعاً بين صفوف المواطنين، وفي صفوف الجنود والضباط في الجيش. وكان لاغتيال عدنان المالكي القائد العسكري الوطني أكبر الأثر على نفوس الناس الذي لفت أنظارهم إلى هذه المؤسسة الوطنية التي يمكن أن يكون الخلاص على يديها.

وبالنسبة له فقط اتخذ قراراً شخصياً ينسجم مع مشاريع حزبه الذي كان يعيش عهداً سرياً. لقد راعه عهد الإنفصال بانقضاضه على المكاسب الوطنية والقومية التي تحققت سابقاً، فبعد قضائه على أول وحدة عربية

بين قطرين في تاريخ العرب الحديث، اتجه نحو المكاسب والقرارات التقدمية التي أنجزت في عهد الوحدة ليقضي عليها ومنها مثلاً قانون الإصلاح الزراعي الذي أعطى الفلاحين بعضاً من حقوقهم. وكان الغلو في مناهضة المد الجماهير ومحاربة التقدم إيذاناً لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي يجمع بين قادته العديد من الضباط المسرحين للقيام بعمل ثوري يوقف عهد الإنفصال عند حد إن لم يكن ليلغيه.

هكذا تلقى التعليمات من حزبه بأن يقوم تنظيمه الحزبي العسكري باحتلال مدينة حلب. وكان قائداً لسرية في كتيبة المظلات المتمركزة حول حلب. وقد اختلف معه بعض الضباط في الكتيبة فسيطر على الكتيبة كلها، وفي الساعة الثانية ليلاً من الأول من نيسان عام ١٩٦٢ احتل بالكتيبة حلب وسيطر على المدينة بكاملها قبل شروق الشمس. وكانت جماهير المدينة معه ولم يجد أي احتكاك مع المواطنين لأن حلم الوحدة كان شغلها الشاغل. في تلك الأثناء كان من المفروض أن تتواقت مع عملهم في حلب عمليات أخرى في بقية المحافظات كحمص ودمشق. لكن الاختلافات الشديدة في مؤتمر حمص، وتراجع بعض القادة العسكريين عن تنفيذ عهودهم أدى إلى إخفاق عملية حلب.

حيث عادت حمص التي تتواجد فيها قوات عسكرية وتعاونت مع القيادة في دمشق ضد الحركة في حلب.

عندها عقد مؤتمر لقادة القطعات العسكرية حضره الملازم الأول محمد إبراهيم العلي رغم أن المؤتمرين لم يعترفوا به كون رتبته صغيرة. بينما كان أقل ضابط في المؤتمر بربة مقدم. وكان للملازم الأول دور فعال في المؤتمر حيث أصر إصراراً كبيراً على ضرورة إبعاد عبد الكريم

النحلاوي وجماعته الذين تمردوا على الإنفصال مع أنهم كانوا قبل حينه قادة الإنفصال. ولا بد من الإشارة أن لموقف الملازم الأول محمد إبراهيم العلي في وجوب إقصاء النحلاوي وجماعته عن سورية اللبنة الأولة في ثورة الثامن من آذار لأنها أزاحت إحدى المعوقات العسكرية الأساسية من طريقها والمتمثلة في النحلاوي وجماعته.

لكن عملية حلب أخفقت وألقي القبض عليه وأدخل السجن مع عدد كبير من رفاقه العسكريين منهم (حافظ الأسد)، حيث بقي فيه أحد عشر شهراً وحكم عليه بالإعدام بتهمة التمرد العسكري.

كانت المحاكمات طويلة جداً استغرقت ثمانية شهور وقد شارك فيها مئات الشهود وصدق تنفيذ مرسوم الحكم في التاسع من آذار عام ١٩٦٣. وطلب منه أن يقدم استرحام لرئيس الجمهورية ولكنه رفض كما رفض الهرب من السجن.

في تلك الفترة كان مادة للإعلام العربي وخصوصاً المصري منه. وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تصرح يومياً على قضيته. بينما خرجت جماهير سورية من أقصاها إلى أقصاها في مظاهرات ومسيرات احتجاجية تطالب السلطات بالإفراج عنه. كان يمثل في نظرها قضية هي قضية الوحدة أولاً. لقد أثر في نفسه عميقاً ذلك التعاطف الشعبي الرائع في قضيته. وقاده إلى قناعة ثابتة هي أن أي تضحية مهما عظمت تظل صغيرة وضئيلة أمام حب الجماهير الجارف.

لقد كانت هذه الحركة تمهيداً أولياً لثورة الثامن من آذار التي قامت عام ١٩٦٣. ووضع لها اللبنة الشعبية الأولى، واقتلع من أمامها كل

المعوقات. وفعل الرفاق في الحزب حسناً عندما قدموا موعد قيامها عدة أيام لتصادف الثامن من آذار، أي قبل يوم واحد من موعد تنفيذ حكم الإعدام به.

بعدما أنقذ من الموت وخرج من السجن والتحق بكتيبة حراسة الأركان التقى بفصيل الإعدام الذي كان سينفذ الحكم به. وكانت هذه من المفارقات المدهشة التي مرت به في حياته.

بعد ثورة الثامن من آذار تسلم قيادة الحرس القومي بقرار من قيادة الثورة في سورية. ليصبح فيما بعد عام ١٩٦٧ باسم الجيش الشعبي، وما يزال في قيادته حتى الآن.

اشترك في جميع الأحداث التي مرت في سورية. واشترك بالرأي والفعل في القضاء على كل المؤامرات التي تعرضت لها الثورة.

ومن الأحداث الهامة التي تركت بصماتها على تاريخ سورية الحديث كانت حركة ٢٣ شباط عام ١٩٦٦ التي أقصت رموز التيار اليميني المناور في الحزب عن سدة الحكم وكان لمحمد إبراهيم الدلي دوراً أساسياً في تلك الحركة والتي أرست أسس التفكير العلمي والمنهجي في حزب البعث العربي الإشتراكي. وكان أن تعرض للإغتيال والموت أكثر من مرة على أيدي الرجعيين والمتآمرين..

ففي الثامن من أيلول عام ١٩٦٦ تعرض لمحاولة اغتيال قام بها المتمردون من الجيش، حيث ألقوا القبض عليه خدعة ووضعوه في زنزانة عليها حراسة مشددة، وحاولوا إطلاق الرصاص عليه، لولا فشل العصيان الذي قامت به هذه الحركة وهروب قادتها.

لقد كانت معرفته بالرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب قديمة تعود جذورها إلى الفترة التي قضياها في مصر أثناء الوحدة. حيث تولدت علاقاتهما وتعاونا طيلة تلك الفترات التي نشط فيها الحزب سراً وعلناً، قبل وصول الحزب إلى السلطة عام ١٩٦٣ وما بعده. وكان أن عمل بإخلاص للحركة التصحيحية التي قادها الأمين العام للحزب الرئيس حافظ الأسد عام ١٩٧٠ وبقي مخلصاً وأميناً لأفكاره وقيادته حتى الآن.

اتبع دورة قائد كتيبة ـ ثم التحق بالأكاديمية العسكرية واتبع دورة أركان حرب.

وكان له الشرف الكبير الذي يعتز به كثيراً، أن يكون أحد المؤسسين لمنظمات الثورة الفلسطينية منذ بداية تشكيلها السري حتى وبعد إعلانها عام ١٩٦٥. وله الكثير من الأصدقاء في صفوف القادة الفلسطينيين.

بدأت علاقته بالأدب عام ١٩٧٧. ونشرت أولى رواياته في أواخر هذا العام بعنوان «المرابي» عام ١٩٧٨ نشر رواية «الطغيان» ـ الجزء الأول . ثم «الطغيان» ـ الجزء الثاني والطغيان الجزء الثالث و«المرابي» ـ الجزء الثاني والقناديل الجزء الأول والقناديل الجزء الثاني بعنوان المطاردون. وعن حرب تشرين عام ١٩٧٣ كتب رواية «نجمة الصبح» التي ترجمت إلى اللغة الروسية.

ثم روايته الذئاب عن الصراع العربي الإسرائيلي. وروايته المرابي الجزء الثالث بعنوان «الخان»، ثم روايته المرابي الجزء الرابع بعنوان «المحطة» وهذه روايته المرابي الجزء الخامس بعنوان «الفجرية» ومجموعة قصصية وكتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري.

وهكذا كانت حصيلته الأدبية حتى الآن ثلاث عشرة رواية ومجموعة قصصية واحدة.

وهو عضو في اتحاد الكتاب العرب وله مساهمات فعالة في نشاطاته وعلى الأخص ما يتعلق منها بتطوير علاقات التعاون والصداقة بين اتحاد الكتاب العرب واتحادات الكتاب في بقية البلدان الصديقة. والدول العربية والعالم.

منح عدد كبير من الأوسمة في سورية لإخلاصه الوطني ــ ومنح الوسام الحربي من الدرجة الأولى بحرب تشرين عام ١٩٧٣.

منح عدة أوسمة من دول أجنبية، ومنح وسام الصداقة مع الشعوب بمرسوم من قبل مجلس السوفييت الأعلى في الإتحاد السوفييتي في ١٨ آب ١٩٨٧.

- تزوج من عزيزة عبد الهادي العلي من مواليد ١٩٤٥ من قريته وله ستة أولاد.

صدر للمؤلف

ـ المرابي	الجزء الأول	١٩٧٧
ـ الطغيان	الجزء الأول	١٩٧٨
ـ التحول الكبير	رواية	١٩٧٨
ـ الطغيان	الجزء الثاني	١٩٧٩
ـ القناديل	الجزء الأول	١٩٨٠
ـ نجمة الصبح	رواية	١٩٨١
ـ المطاردون	«القناديل الجزء الثاني»	١٩٨٢
ـ الطغيان	الجزء الثالث	١٩٨٣
ـ المخاتير	«المرابي الجزء الثاني»	١٩٨٤
ـ شوك الدردار	مجموعة قصصية	١٩٨٧
ـ الذئاب	رواية	١٩٨٨
ـ الخان	« المرابي الجزء الثالث»	١٩٩١
ـ كتاب عن حياة كيم إيل سونغ والشعب الكوري		١٩٩٢
ـ المحطة	« المرابي الجزء الرابع»	١٩٩٤
ـ الغجرية	«المرابي الجزء الخامس»	١٩٩٤

تحـــت الطبـــع للمـــؤلف

- المتمردون «القناديل الجزء الثالث»
- الثـائرون «القناديل الجزء الرابع»
- الدولاب روايـــــة
- الوكـلاء المرابي الجزء السادس

* * *

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة
وهي تمر مرّ السحاب ﴾

صدق الله العظيم

❀ ❀ ❀

الدنيا مقلوبة والغد أفضل

دار الندى للنشر - دمشق - شارع الروضة - هـ : ٣٣٣٨١٦١

السعر ١٧٠ ل.س